نادية هاشمي

رواية

الحبر المسكوب

«رواية تصنع من الألم
لغة للصفح والمحبة»

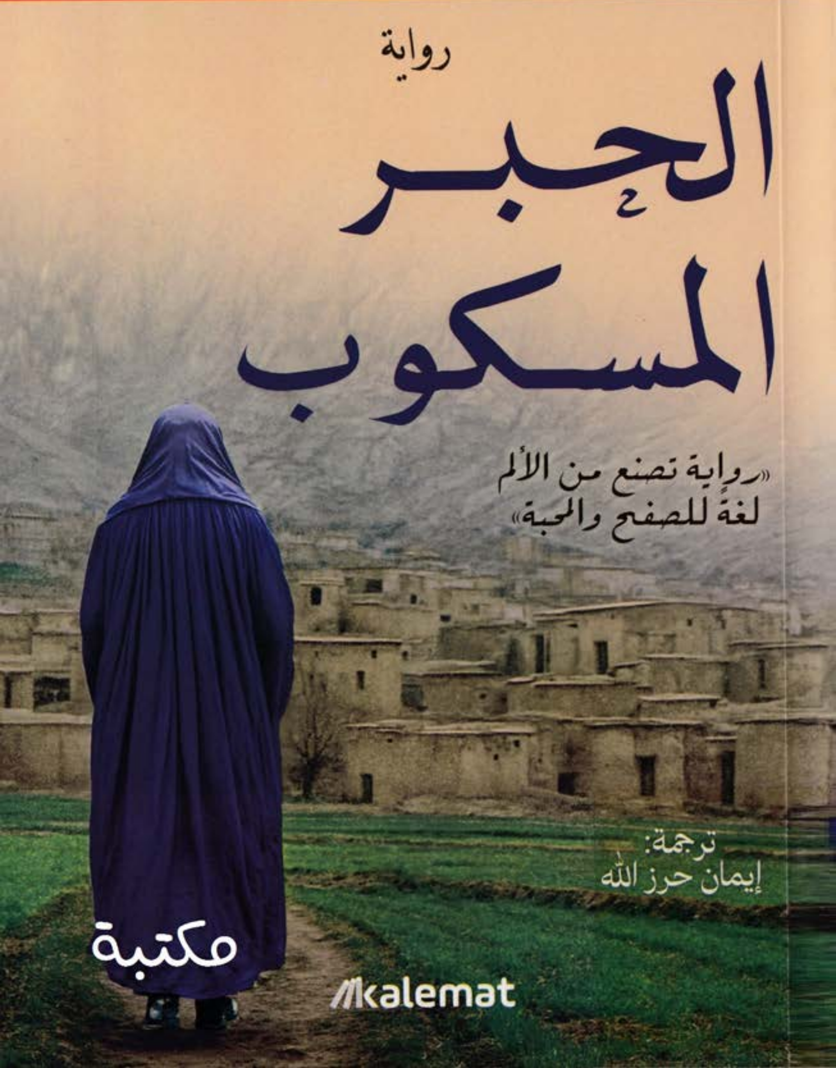

ترجمة:
إيمان حرز الله

مكتبة

kalemat

إهداء لـ ..

ڤيوليت

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

الحبر المسكوب

Spilled Ink

الحبر المسكوب

Spilled Ink

ناديا هاشمي

Nadia Hashimi

ترجمة: إيمان حرز الله

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

المملكة العربية السعودية

Copyright © 2024 by Nadia Hashimi

مكتبة

t.me/soramnqraa

مكتبة الملك فهد الوطنية

رقم الإيداع: 1447/3228

ردمك: 978-603-8569-07-8

الحبر المسكوب

Spilled Ink

مكتبة
t.me/soramnqraa

ناديا هاشمي

Nadia Hashimi

ترجمة:

إيمان حرز الله

2025

kalemat

إلى فؤاد ويولين ونايلا وكايلي

على مقربة دقة دائمًا

أقوالنا بيتنا الذي نسكنه

- حافظ[1]

---

(1) شمس الدين محمد حافظ الشيرازي، شاعر فارسي صوفي عاش خلال القرن الرابع عشر. (المترجمة)

الفصل الأول

مكتبة
t.me/soramnqraa

أسمع الدقات حتى ورأسي تحت اللحاف: دقة، لحظة صمت، دقتين سريعتين، ثم الدقة الأخيرة. أنظر من تحت اللحاف إلى منبهي وأتذمر حين أدرك أنه رنَّ منذ عشر دقائق بالفعل.

أعتدل وأدق بمفاصل أصابعي على الجدار لأجيبه:

دقة. دقتين. دقة.

استيقظتُ، أخبره بإرهاق.

ظل نومي صعبًا مؤخرًا. أتذكر لحظة منتصف الليل تأتي وتذهب. في أي وقت نمت؟ أتحسس فراشي بأصابعي ولا أجد سوى خيوط لحافي. أنبطح على بطني وأبحث بذراعي بجانب الفراش، أتحسس السجادة حتى ألمس السلك الحلزوني. أضع دفتر الرسم في حِجري. ما زال كشاف القراءة مثبتًا بغلافه. أضغط عليه عدة مرات لكنه لا يعمل. استنفدتُ بطارية أخرى.

أجلس حتى أفيق. تتدحرج الأقلام من طيات لحافي على الأرض. على الأقل تذكرتُ تغطيتها. أقلام الحبر الأرشيفية ليست رخيصة، وقد اشتريت للتو هذه الدزينة من الأقلام ذات السنون الرفيعة جدًا. هل من الممكن أن أكون في أثناء أرقي، في تلك الحالة من نصف الوعي، قد غُصت في متاهة أعماقي وخرجت برسمة ملهمة؟

أنظر إلى الجزء المجعد من الورقة حيث كنت أضع يدي حين سقطتُ في النوم. ظللت أعمل على هذه الرسمة شهرًا الآن، وما

زلت أشعر أن شيئًا ما فيها ليس صحيحًا. يرى يوسف رسوماتي غريبة، لكنني أحب الصور التي تحمل غرابة ما. أقلب إلى الصفحة السابقة. رسمتُ منذ أسبوعين امرأة بجناحين تخرج من شجرة غُرِز في جذعها حذاء بكعب عالٍ رفيع. لم أعد أعرض على والديّ رسوماتي بعد أن سألاني عن معنى البقرة المكللة بتاج في مِقلاة. فكرت حينها أن المعنى من مقولة «الصورة تساوي ألف كلمة» أنك لا تضطر إلى قول الألف كلمة.

أزيح اللحاف وأضع دفتر الرسم في درج الطاولة بجوار فراشي، حيث أحتفظ بجهاز استنشاق قديم وكرة ثلج زجاجية من عالم البحار. أتساءل إن كنت سأكف عن الرسم يومًا ما، مثلما شُفيت من الربو، وتسامحت مع فكرة حبس الحيوانات في قفص.

أسمع خطوات في الغرفة المجاورة، لا أدهش. الجدار الفاصل بين غرفتينا رفيع جدًا وألواح أرضية البيت كله تصرّ، فأعرف أن يوسف تأخر في النوم ليلة أمس على الأقل بقدر ما تأخرت أنا.

ينفتح باب في الرواق.

أندفع خارج غرفتي بشعري منكوش وأنا أقول: «ليس اليوم». نتسابق في الإمساك بمقبض باب الحمام، لكنه يمسكه أولًا.

يقول بابتسامة: «لليوم الثالث على التوالي يا يالدا». منشفته على كتفيه، وتيشيرته مجعد من النوم.

أتذمر قائلة: «لا، أرجوك».

كل صباح أخوض سباقًا إلى الحمام الذي نتشاركه. لم يكن الأمر بهذا السوء حين كنا في الخامسة من عمرنا، وكنا نغسل أسناننا معًا من دون أن يصطدم مرفقانا، لكننا الآن في السابعة

عشـرة مـن عمرنـا. لا أريـد سـخريته وأنـا أغسـل وجهـي بمقشـر الوجـه ذي رائحـة المشـمش، خاصـة مـع علمـي بأنـه يسـتخدمه أحيانـًا. وأعـرف أنـه لا يريدنـي معـه أيضـًا وهـو يتألـم مـن نـزع الاثنتـي عشـرة شـعرة ونصـف التـي نَمـت لـه فـي وجهـه مـع البلـوغ. أمـا شـعر رأسـه، فهـو ثقـب أسـود آخـر يختفـي فيـه ويفقـد إحساسـه بالزمـن كليًّـا وهـو ينظـم تموجاتـه الداكنـة بطريقـة يجـب أن تبـدو كأنـه لا يهتـم بـه إطلاقـًا.

شـعري أنـا، فـي المقابل، فـي أمـسّ الحاجـة إلـى عناية، لكننـي لا أفعل سـوى لفـه علـى إصبعـي وجمعـه فـي كعكـة منفوشـة -التصفيفة التـي أنقذتنـي مـن الجنـون.

أقـول لـه بضعـف لأننـي لا أتعامـل جيـدًا حيـن لا أنـام جيـدًا: «لا، أرجـوك! هـل سـيقتلك لـو تركتنـي أدخـل أولًا لمـرة واحـدة؟»

فيجيبنـي: «أتعرفيـن، هيّـا، ادخلـي أنـتِ أولًا»، ويرفـع كتفيـه ويتراجـع خطـوة عـن البـاب، لكننـي أقـف مكانـي. اسـتيقظتُ تمامًـا الآن وانتبهـتُ جيـدًا.

أقـول لـه: «لا، ادخـل أنـتَ»، لأننـي بعـد سـنوات مـن مقالبـه صـرت أعـرف جيـدًا حيـن أوشـك أن أدخـل فـي واحـد منهـا.

يبتسـم ويمـد يـده نحـو مقبـض البـاب، المقلـب بالفعل، لكنـه ليـس كمـا توقعتـه. أندفـع لا إراديًـا نحـو بـاب الحمـام، وأسـد عليـه الطريـق بقدمـي اليمنـى، يدفعنـي بكتفـه لكنـه يتوقـف حيـن تصيـح أمـي مـن المطبـخ، بتوسـل: «أرجوكمـا، لـو كنتمـا تحبانـني، امنحانـي راحـة ليـوم واحـد فحسـب».

أنظر إلى يوسف فأجد وجهه مسطحًا بالاستسلام. يؤثر فيه أسلوب أمي في إشعارنا بالذنب بشكل مدهش. أتأثر به أنا أيضًا، لكنه بالنسبة إليه نقطة ضعف مكشوفة.

يقول بعجرفة: «أسرعي فحسب، كيث ينتظرني».

أغلق الباب خلفي وأنظر إلى ساعة الحائط، مع أنها توقفت منذ عدة أشهر عند الساعة الخامسة. قررتْ أمي أن هذا حمامنا، وأن علينا تغيير بطاريتها بأنفسنا. وقررتُ أنا ويوسف أن الساعات شيء عفا عليه الزمن. نحن جميعًا عالقون في اللحظة الحالية، يحاول بعضنا تلقين بعض دروسًا، على ما أظن.

أنظر وأنا أغسل أسناني إلى أدوات استحمامه المرصوصة بنظام على جانبه من الحوض. يتوقع الآخرون منّا أن نتشابه في كل شيء لأننا توأمان. لكننا لسنا كذلك. يوسف منظم، ليس بدرجة مرضية. لا يرتب قمصانه حسب ألوان الطيف، وليس لديه سلال خوص مرصوصة بنظام في دولابه. لكنه مرتب بطبعه. تقول أمي إننا ظللنا مختلفين هكذا منذ صغرنا. كان يرتب سياراته الدمى كأنه الموظف المثالي في الجراج. في حين كانت فوضاي أسطورية ومحبِطة، خاصة بالنسبة إلى أمي التي تحب التحدث عن عثورها مرة على باندتي المحشوة في الفرن، ومرة على مجموعة أحجاري الخاصة في درج تسريحتها. صرت أحتفظ بفوضاي لنفسي الآن، جزئيًا لإدراكي بأنني أفضل التحديق إلى كومة أشياء على النوم، وغالبًا لسأمي من مقارنتي بأخي.

أنظر إلى هاتفي. علينا الخروج من البيت خلال عشرين دقيقة. كيث ينتظر يوسف.

أو ربما ينتظرنا نحن الاثنين؟

أنظر إلى وجهي في المرآة بجدية. يخبرني الناس أنني محظوظة بشعري الغزير، لكنني أرى الفتيات في مدرستي، لديهن زغب قليل على أذرعهنّ وسيقانهن، فاتح جدًا، لا يبدو منه سوى لمعة لو لم يزلنه. أنا لست كذلك.

بدأت نتف حافات حاجبيّ رغمًا عني هذا العام، متأخرة جدًا حسب معايير المجتمع. بعض قريباتي بدأن إزالة شعر وجوههن وأطرافهن منذ العاشرة، وواحدة أجرت أربع جلسات لنزع الشعر بالليزر بالفعل، وأخبرتني أخرى أن أمها تأخذها إلى صالون تجميل، حيث تقودها امرأة تشبه الزواحف إلى غرفة صغيرة في الخلف، وتفرد على ذراعها شمعًا ساخنًا، ثم تضع عليه قطعة قماش، لتنزعها بكل شعر الذراع. بعد ذلك تضع المرأة التي تشبه الزواحف عصارة صبار الألوفيرا وزيت جوز الهند على جلد قريبتي المتأثر كنوع من الاعتذار المرطب. بقدر ما أكره النظر إلى زغب ذراعيّ، يبدو ما تحكيه قريبتي كطقس شيطاني، وأنا لا أحب الشيطان.

يقول يوسف بصوت عالٍ من خلف الباب كأنه يقرأ أفكاري: «هيا يا يال، أنتِ لديكِ جمالك الطبيعي يكفيكِ» ، ثم يضيف: «أنا من في حاجة إلى مزيد من الوقت في الحمام».

أخي نادرًا ما يكون محايدًا، إنه إما يخطط لشيء ما ضدي وإمَّا ينتشلني من بئر عميقة. ربما أسأت الظن به اليوم. أبتسم وأمد يدي نحو مقبض الباب. أحاول إدارته لكنه ينزلق بين يدي. أبعد أصابعي المدهّنة. لا، لم أسئ الظن به.

يقول ليغيظني: «ماذا يؤخرك هكذا؟» وأميز في صوته الابتسامة على وجهه. أمسح الفازلين عن أصابعي بمناديل ورقية. أنظر حولي فأرى غسول وجهه لتنظيف البشرة، أفتح غطاءه وأصب فيه بعضًا من مرطب الشعر.

أقول له: «تظن أنك خفيف الظل؟». لكنني أعترف أنه انتقام معقول. الأسبوع الماضي، أمسكت بهاتفه وغيّرت أسماء نصف قائمة اتصالاته تقريبًا إلى «مبيعات»، و «متصل مزعج». تجاهل عدة رسائل نصية، وتحوّل عددٌ من اتصالات والديّ به إلى البريد الصوتي، قبل أن يدرك ما فعلته.

أقول حين يفتح لي الباب من الخارج: «أملس جدًّا».

فيقول بابتسامة كبيرة: «شكرًا».

أوضّح وأنا أفسح له ليدخل الحمام: «أتحدث عن مقبض الباب، وليس عنك، هذا مقلب هواة».

تصاعدت مقالبنا خلال السنوات القليلة الماضية حتى طالت بعض العابرين البريئين أحيانًا. ذات ليلة، سهرتْ أمي حتى وقت متأخر تشاهد مسلسلًا تركيًا، وفي طريقها إلى غرفة نومها، داست بقدمها على فأر مزيف وضعه يوسف عند باب غرفتي. استيقظنا جميعًا على صرختها، وربما جيراننا أيضًا. ظل يوسف يتوسل إليها من خلف باب غرفته المغلق أن تسامحه، وأخذنا جميعًا استراحة من المقالب مدة شهر تقريبًا.

لا تحب أمي المقالب، ولا المفاجآت العادية حتى؛ ما يجعلني أتساءل عن شعورها حين تلقت خبر حملها بتوأم. لا يتذكر والداي أي توأمين آخرين في عائلتيهما أو حتى في العائلات التي

يعرفانها هناك «في الوطن»، أفغانستان. أخبرنا أبي مرارًا أننا هدية خاصة من الله، لكنني أظن أن مفاجأتنا تلك لأمي هي ما حالت دون أن نحظى بإخوة صغار.

أغير ملابسي وأتسلل إلى حمام والدي لوضع قليل من كريم أساس أمي على البقعة اللينة الوردية في ذقني. يفصل بين حمامهما وحمامنا جدار مشترك، لذلك أسمع صوت يوسف.

«غسول وجهي؟ هذا ليس جيدًا يا يالدا!»

أفرح لانتقامي، وأعاود الانتباه لذقني. لم يمحُ الكريم أي شيء، بل جعله لافتًا للنظر أكثر. أغسله بالماء وأكرر المحاولة، باستخدام كمية أقل من الكريم هذه المرة.

تصيح أمي: «تأخرتِ يا يالدا!»

أستعد جيدًا، ثم ألقي بكتبي في الحقيبة وأذهب إلى المطبخ. بيتنا من طابقين، في الطابق الأعلى ثلاث غرف نوم في أقصى الرواق، ثم المطبخ وغرفة المعيشة. وفي الطابق السفلي غرفة معيشة بأثاث تتمنى أمي أن تغيره. كنا نخاف أنا ويوسف في صغرنا الهبوط إلى هناك وحدنا، حتى الآن، أتحرك بسرعة في أثناء مروري من هناك إلى الجراج. باب البيت الأمامي على بَسطة بين الطابقين. كرهت أمي هذا التصميم القديم، وذهبت العام الماضي لمعاينة عشرات المنازل المفتوحة على الشارع، لكنها توقفت عن البحث نهائيًا بعدما عرفت مدى ارتفاع الأسعار في منطقتنا.

في مطبخنا الآمن في الطابق العلوي، يسكب يوسف من صحن حبوب الفطور في فمه مباشرة، ليتناول اللبن المحلّى المتبقي.

لا يمكنه تهجئة كلمة قرفة من دون التصحيح التلقائي، لكنه لا يترك قطرة تسقط من صحنه، ولا حتى من حول فمه(1). ما كنت لأجرب هذا لو لم أكن وحدي في البيت. أتناول موزة عن الطاولة، وأقبل أمي بسرعة على وجنتها.

فتقول لي: «يالدا، هل نشرتِ الكوبون أمس؟» وتتنهد تنهيدة عميقة أعرف أنها ستدعو الله بعدها أن يمنحها الصبر.

أُخرِج هاتفي من جيبي وأفتح تطبيق الحي. أجد الإعلان الذي صممته لعرض طبق السلطة المجاني مع كل صنفين -فكرة أمي للتعامل مع ركود العمل مؤخرًا، وأنشره في الأخبار. أقول لها وأنا أُريها الشاشة لتتأكد: «تم نشره». تبتسم وتمنحني قبلة على صدغي قائلة: «شكرًا لك يا عزيزتي». ترفض إضافة السكر إلى طعامنا، لكنها تقطر عسلًا حين نفعل ما تريده منا بالضبط.

يسألها يوسف: «أين أبي؟»

فتجيبه: «في المطعم، مع عامل إصلاح المبرد».

فيسألها مجددًا: «ألم يصلحوها مؤخرًا؟»

فأؤيده قائلة: «قبل عيد الشكر مباشرة، منذ أسبوعين بالكاد. هل تعطلتْ مجددًا؟»

تغلق أمي باب الخزانة الذي فتحته لتوها دون أن تأخذ شيئًا من الخزانة، تتنهد ثانيةً، يوجد دائمًا شيء ما يجب إصلاحه، ثم تقول: «سيعود إلى البيت مبكرًا هذا المساء، عودا في موعدكما لو سمحتما. أريد أن نجتمع كلنا في العطلة. هذا مهم. إنه وقت الأسرة».

---

(1) تلاعب بكلمات إنجليزية، spell بمنعى يتهجّى، وspill بمعنى يسقِط قطرة.

منذ وفاة ابن عمتنا رحيم، العام الماضي، أمسى وقت الأسرة حدثًا مرتبًا وبموعد محدد.

الأمر ليس لأننا لم نقضِ وقتًا معًا من قبل، بل قضينا معًا صباحات أيام أحد كسولة، وخروجات إلى مركز التسوق تحت المطر، وتمشيات في دروب الغابة. لكن الآن لم يعد شيئًا عاديًا. كل شيء بحساب، كأن عليها دفعنا إلى تحقيق نسبة معينة لتنقذنا من مصير رحيم.

تمسك، وهي في ملابسها الرياضية، بعلبة حبوب الفطور على الطاولة، وتقرأ المكتوب عليها. تطرقع بلسانها مستاءة. يبدو أن التحدث معنا عن التغذية السليمة يرهقها أكثر من أشد تمارينها صعوبة.

مع ذلك تقول لنا: «ليتكما تتركانني أعد لكما بيضًا مخفوقًا على الإفطار، هذا ليس سوى سكر صناعي». ثم تنقر بإصبعها على المنضدة وتضيف بندًا آخر إلى قائمة مشتريات البقالة. ولأنها ليس عليها الذهاب إلى المطعم حتى الساعة الحادية عشرة، تخصص وقت الصباح لإخراجنا من البيت أولًا، ثم تمارينها الصباحية، والبحث عن أطعمة تجعلنا نعيش إلى الأبد.

«سأغادر من دونك يا يالدا جمالي» يعلن يوسف بصوت يحاول جعله عميقًا، ومستخدمًا اسمي الثنائي. تهديد فارغ، نعلم كلانا أنه لن يتجاوز الشرفة الأمامية، ومع ذلك أسرع وأحمل سترتي وحقيبتي.

أقول: «هيا بنا».

يوسف إما يعرف أن الطريق إلى المدرسة صار يسبب لي تقلصات معوية مؤخرًا، وإمَّا يتظاهر بأنه لا يعرف. في الحالتين، يسعدني أنه لا يتحدث عن هذا. ننطلق في سيرنا، خطواته طويلة وبطيئة، وخطواتي أقصر وأسرع، ما يبقينا قريبين حتى وإن كنا غير متزامنين.

أمامنا مباشرة ينفتح باب سلكي بصرير ثم ينغلق. لا نتوقف ولا نبطئ حتى.

يومئ يوسف برأسه لكيث الذي يقترب في سيره على عشب فنائهم المتجمد لينضم إلينا في السير على الرصيف.

يقول كيث وهو ينظر إلينا نحن الاثنين: «مرحبًا». انتقلتْ أسرته إلى البلدة منذ عام واحد، لذلك لسنا أصدقاء قدامى. عن نفسي قد أتوقف عن التحدث إلى والديّ، أو سأهددهما بهذا على الأقل، لو قررا الانتقال في منتصف عامي الأول في المدرسة العليا. لديه أصدقاء كثيرون، لكنه، لأن أغلب الأسر هنا يعرف بعضها بعضًا منذ المدرسة المتوسطة، يبدو كأنه يطفو على سطح مجموعات الأصدقاء بدلًا من الانتماء إلى واحدة على وجه الخصوص.

أقول بشكل طبيعي: «مرحبًا». تشكّل كلماتنا سحبًا صغيرة في الهواء البارد، وتتبخر فورًا.

يقول يوسف: «كيف الحال؟»

ثم ينهمكان معًا في حوار عن مباراة كرة سلة جرت أمس، شاهدتُها مع يوسف ورأيت الأهداف الثلاثة -التي لا تصدق- التي يتحدثان عنها. فكرت في مشاركتهما الحوار لكنني عدلت

عن هذا لعلمي بعادتي السيئة وهي أنني إما أقول أشياء كثيرة جدًا، وإمَّا أقول الشيء الخطأ، ثم يظل ندمي على ما قلته يُزعجني لبقية اليوم، وأحيانًا لبقية الشهر.

في نهاية الشارع تقاطع متفرع في أربعة اتجاهات، ومزدحم دائمًا في هذه الساعة من الصباح. عادة ما ننتظر أن يتذكر أحد سائقي السيارات أن للمشاة الحق في عبور الشارع. تدخل سيارتان في التقاطع في اللحظة نفسها. يميل الرجل في إحداهما على البوق ويطلقه، فتلوح له المرأة في السيارة الأخرى، ترتدي نظارة شمسية بحجم وجهها تقريبًا، لتؤكد أن الغضب متبادل. نعبر الشارع وهما يتشاجران بالشفتين، من خلف زجاجيهما الأماميين.

أقول: «على الناس أن يهدؤوا قليلًا».

فيجيب كيث ضاحكًا: «نعم، لكن لدي سؤال سريع، هل هؤلاء ناس؟ الناس لا يفعلون هذا». يشير برأسه إلى منزل إلى يسارنا، في فنائه الأمامي أربع لافتات. اثنتان لدعم اسمين لا أعرفهما لتولي مناصب في مجلس المقاطعة. والأخريان ظهرتا حين تم تسكين ست وعشرين أسرة أفغانية لاجئة في فندق على أطراف البلدة. تحملان رسائل تبدو حميدة ويمكنها شمول الجميع مثل «احموا منطقتنا»، لكن الأمر لا يتطلب شهادة عليا في القراءة لمعرفة ما بين السطور. لو سُمح لهم بالتعبير عمّ يقصدونه حقًّا لمنعوا وضع لافتات.

سأل كيث: «هل سمعتما بما تدّعيه فرقة الجرافيتي الآن؟».

منذ عدة أسابيع، عاد ثلاثة طلاب إلى الحرم في منتصف الليل بوجوه ملثمة وقلنسوات مشدودة على رؤوسهم بإحكام، بعد أن

رسموا صليبًا معقوفًا ومخططًا أوليًا لتشريح الذكر على الجدار الخارجي للمدرسة، بالطلاء الرشاش. اتصلتْ هواتفهم بشبكة الإنترنت في المدرسة في أثناء وجودهم هناك؛ ما ترك بصمة رقمية على عملهم الفني.

قال يوسف: «سمعت أن وايت سيزعم بانتهاك حقوقه الدستورية». ظل وايت مثيرًا للمشكلات دائمًا. من النوع الذي لا يتحدث كثيرًا في الفصل ويبدو كأنه يراقب الآخرين من خلف غشاء ناصية شعره الطويلة.

قال كيث: «قد يفعل، حضرت معه مادتين العام الماضي، ولا أظنه يكتب اسمه حتى بشكل صحيح في ورقة الامتحان. كما سمعت أنهم كانوا مخمورين، يمنحهم والد وايت حزمة من ست علب كلما فاز فريقنا لكرة القدم».

أعلق قائلة: «من الجيد أن فريقنا فاشل»، فيضحكان، وأشعر بدغدغة صغيرة لرد فعل كيث.

مساحة الرصيف لا تكفينا نحن الثلاثة، لذلك يسير كيث بقدم على العشب وأخرى على الأسمنت، ويوسف في المنتصف، وأنا الأقرب إلى الشارع. شعرت في الخريف الماضي بأنني دخيلة على هذه الحوارات، لكنني لاحظت أن كيث يُلقي لي بسؤال من حين إلى آخر ليدمجني. لا أتحدث كثيرًا في الصباح حين نكون ثلاثتنا معًا، لكن في الظهيرة، حين يتركنا يوسف لدراسته الخاصة، يختلف طريق العودة إلى البيت. أشعر، حين لا يكون يوسف معنا، بأنني شخص كامل ولست مجرد شكل آخر من عرض اثنين في واحد.

أشعر بالامتنان ليوسف أغلب الوقت، لأنه يستنفد نصف اهتمام والدينا على الأقل، وأكثر من هذا عادةً. ولأنه يضحك لدعاباتي، ويوقظني بدقاته على جداري. لم يسبق لي أن شعرت، حتى لحظة استيلاء موسيقاه على حياته، بأنني ليس لديَّ أحد لقضاء الوقت معه في البيت.

في بعض الأيام، ينقذ أحدنا الآخر، وفي أيام أُخر يخنقه. أتساءل دائمًا كيف كنت سأبدو من دون مقارنتي بهندامه وحضوره وابتسامته البسيطة. ظل لدي صديقتان لم تتغيرا، بينما يبدو أنه يضيف إلى دائرة أصدقائه كل أسبوع. يقل الشبه بيننا كتوأمين كلما اقتربنا من إنهاء المدرسة العليا. صرنا لا نتشارك أشياء كثيرة جدًّا منذ بدأتُ أشعر برأسي ليس كبيرًا بما يكفي لاستيعاب الأفكار التي تركض فيه. يتشارك كل منا مع أصدقائه أكثر مما نتشاركه معًا. لم أعد أقرأ أفكاره كما اعتدت من قبل.

حين ألمح كيث يبتسم لي، وشعره الذي بلون القرفة ينتصب، تتعرق راحتاي.

فيسعدني أن يوسف لم يعد يقرأ أفكاري هو الآخر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

سأل كيث: «أين يوجد بطيخ في ديسمبر حتى؟»

لا ألومه لسؤاله، تتسوق أسرته من المتجر الذي فيه منضدة طويل للمأكولات الجاهزة، وممر كامل لشرائح الخبز، وقسم خاص بزهور الأوركيد وباقات الورود. نتسوق من هناك أيضًا، أحيانًا. لكننا في الغالب نشتري خضراواتنا ومكونات العصائر التي تعدها أمي من محل البقالة الآسيوي حيث يوجد أحد عشر نوعًا من الثمار ونوع واحد فقط من شرائح الجبن.

أجيبه قائلة: «هذا سهل، نحن نزرعه في فنائنا».

فيقول: «غير صحيح»، ويرمقني بنظرة شك.

فأعترف قائلة: «غير صحيح».

يسألني: «ولماذا البطيخ؟»

فأجيبه: «المفترض أنه رمز السعادة والحب»، وأشعر بأذنيّ تتحرّقان، وأريد أن أركل نفسي.

حين سألني عن خطط أسرتي لقضاء عطلة الشتاء، تورطتُ بطريقةٍ ما وأخبرته بأن هذه العطلة تحمل اسمي، يالدا، الانقلاب الشتوي(1). جعلتُ الاسم يبدو أنيقًا كصيدلية في عيد الحب. ربما ظن أن كل هذا غريب جدًّا.

---

(1) يوم 21 ديسمبر، ومعروف أيضًا بعيد منتصف الشتاء ويتميز بأنه أقصر مدة نهار وأطول مدة ليل في العام. (المترجمة)

في بداية العام الدراسي، لم نكن نعود إلى البيت معًا. يغادر يوسف المدرسة قبل الحصة الأخيرة ليذهب إلى دراسته الخاصة. وكيث صديقه هو وليس صديقي.

يعود يوسف إلى البيت وحده ليأخذ السيارة القديمة التي اشتراها لنا والدنا، وإما يذهب إلى المدرسة المتوسطة لتمرين عدد من الأطفال على عزف الجيتار في برنامج خاص بعد الدراسة، وإمَّا إلى كريشيندو، استديو الصوت، الذي يعمل فيه على تأليف موسيقاه. هذه دراسته الخاصة التي تناسبه تمامًا. يتعامل مع الأطفال بصبر يدعو إلى الاستغراب. وفي الاستديو، حيث يتمرن مع فرقته أيضًا، يعلّم العازفين الصغار الواعدين النغمات وكيفية الإمساك بالجيتار. يحبونه لأنه أصغر من المعلمين الآخرين ويساعد الصغار على عزف أغانيهم المفضلة لتقريبهم من آلتهم الموسيقية. عليه في نهاية الموسم الدراسي أن يسلم أغنية أصلية، وورقة بحثية عن أثر الموسيقا في الأطفال.

فكرتُ في الالتحاق بدراسة خاصة في الرسم، لكنني خشيت الاضطرار إلى عرض رسوماتي في المدرسة، التي تمتلئ أروقتها بالأحكام بالفعل. فاكتفيتُ بدراستي العادية.

كنت، حين لا يعود يوسف معنا، أسير خلف كيث وسماعاتي في أذني. ذات يوم، توقف عند منعطف حتى وصلت إليه. أشار إلى أذنيه، وحين أوقفت الموسيقا في هاتفي، أخبرني أنه ليس من الآمن أن أسير وأنا أسمع الموسيقا.

قلت له إن اهتمامه الشديد بسلامة المشاة شيء مدهش، لكنني دهشت حقًّا من أنه لاحظني وأنا أسير خلفه.

سرنا معًا بقية الطريق إلى البيت ذاك اليوم، وكل يوم دراسي بعده. نتحدث عن الموسيقا والتغيير المناخي، ونناقش ما إن كانت معلمة العلوم قد أجرت عملية زرع شعر أم لا. بيته قبل بيتنا فلا يرانا والداي ونحن نسير معًا، ما يريحني جدًا. لأنني لا ينقصني جنونهما بشأن تحدثي إلى فتى.

أقصد أن هذا لا يعني أننا نتواعد.

نحن مجرد شخصين يسيران في الاتجاه نفسه ويتحدثان في موضوعات عامة، لذلك لا أفهم لماذا أخبرته بشيء يجعله يتساءل عمَّ يحدث في بيتي.

تحتفل أسرته بعطلات لا تحتاج إلى شرح، وتعد عطلات رسمية من الدراسة بلا شك. لكنني حين قلت إن الليلة هي عطلتنا الشتوية، بدا مهتمًا حقًا، فانطلقت في هرائي.

«ليس البطيخ فحسب، نضع أيضًا رمّانًا وفواكه مجففة وجوزًا، وتشعل أمي مجموعة شموع. ثم نسهر حتى منتصف الليل نقرأ أشعارًا وأشياء من هذا القبيل».

أرمقه بزاوية عيني، لا أعرف فيمَ يفكر.

يقول: «تبدو مثل جلسات السمر حول نار مخيم ليلًا».

أشعر بارتياح، كأنني خشيت قليلًا أن يتهمني بالشعوذة. يوسف محق، أنا في حاجة إلى أخذ الأمور ببساطة حقًا.

أقول: «نعم، لكننا نحب فعل هذا داخل بيتنا. أنا مولعة بأنابيب المياه الداخلية».

يقول بدهشة مصطنعة: «هذا مثير، لدينا الكثير جدًا من القواسم المشتركة»، أحاول كتم ابتسامة، فيسألني: «أي قصيدة ستقرؤونها الليلة إذن؟»

أهـز رأسـي وأجيبـه: «والـداي همـا مـن يقـرآن. أنـا وأخـي نسـتمع فحسـب». أشـعر بإحـراج لأننـي لا يمكننـي قـراءة وكتابـة اللغـة التـي نتحـدث بهـا فـي البيـت، فـلا أذكـر الأمـر. كذلـك لا أريـده أن يطلـب منـي قـول شـيء مـا بالداريـة لتسـليته. فـي الأسـبوع الأول لركوبـي حافلـة المدرسـة المتوسـطة، طلبـتْ منـي فتـاة أن أقـول شـيئًا مـا بلغتـي. مالـت هـي وصديقاتهـا علـى المقاعـد ليسـمعن مـا سـأقول. أخبرتهـا بداريّتـي المتكسّـرة قليـلًا أن أسـنانها تُذكّرنـي بحبـوب الـذرة المحروقـة. ضحكـن وحاولـت إحداهـن تقليـد الأصـوات. طلبـن منـي تكـرار مـا قلتـه ثـلاث مـرات قبـل أن ينسـين أمـري تمامًـا.

قـال كيـث: «أنـا متأكـد مـن أن آخـر قصيـدة قرأتهـا لـي أمـي كتبهـا الدكتـور سـوس». يثيـر هـذا اهتمامـي، فأسـأله: «هـل أنـت مـن معجبيـه؟»

فيجيبني: «إنه شاعر عبقري».

أقـول: «للتوضيـح فقـط، هـل كان ذلـك حيـن كنـت فـي الخامسـة مـن عمـرك؟ أم الأسـبوع الماضـي؟»

يرمقنـي بنظـرة غضـب مصطنـع ذهبيّـة، كأنـه رسـم متحـرك يسـير علـى قدمين.

ثـم يقـول: «أتعرفيـن، هـذا جيـد. أنـا فتـى كبيـر. لا يمكنـك إيذائي»، ويـدس يديـه فـي جيبيـه. ثـم يـردف: «أظـن أنـه قـد يُقتـل فـي إحـدى زياراتـه للمدارس».

أقـول: «لا أعـرف. تـم منـع قليـل مـن كتبـه بسـبب صـور عنصريـة. وفـي جميـع الأحـوال، كان شـخصية منطويـة. قضـى أغلـب الوقـت وحيـدًا، يكتـب، وبعيـدًا عـن الأطفـال الآخريـن تمامًـا».

يقول: «حسنًا، لم أسمع بهذا من قبل، لكن مسألة الانطوائية -تبدو كأنها سمة فنية، لذلك تعتبر منطقية. قال يوسف إنك فنانة».

أسأله مدهوشة: «هل قال هذا حقًّا؟»، ثم أوضِّح قائلة: «أنا أرسم قليلًا».

يقول: «هذا جميل. قال إنك جيدة حقًّا. هل تنشرين أعمالك؟»

أهز رأسي. كلما فكرت في نشرها تتكون عقدة في معدتي. لماذا لا يمسك يوسف لسانه؟ لا أعرف لماذا ذكر هذا.

أجيبه محاولة أن أبدو غير مهتمة: «ليس حقًّا، إنها مجرد هواية. ليس مثل يوسف. هو من يسعى حقًّا لصقل موهبته».

يقول: «نعم! سمعت أن فرقته ستعزف في الويرهاوس. هل تحصلون على تذاكر شخصيات مهمة جدًّا أو شيء كهذا؟»

الويرهاوس، هو مكان واسع ومزدحم بالشباب، يقع على أطراف البلدة. لم أذهب إلى هناك لكنني رأيت صورًا على الإنترنت حين أخبرني يوسف أنهم يأملون في الاشتراك في مسابقة الفرق الموسيقية هناك. مكان عادي وشعبي من أربعة جدران وخشبة مسرح. مرفق به ما يدعونه «مطعمًا»، مع أن قائمته تحوي أصنافًا أقل من عربة طعام في الشارع. بجواره أيضًا بار، لا يعد جزءًا منه عمليًّا، لكنّ الفاصل بينهما جدار واحد، لذلك جعلني يوسف أقسم على السرية حول هذا الحفل. لن يشعر والداي بأدنى إثارة لو علما أنه سيعزف بالقرب من بار.

أقول لكيث: «لا أعرف، أحب مشاهدتهم يعزفون، لكن...».

هل يعرف أن يوسف لم يخبر والدينا؟ لا أريد كشف يوسف. يبدو جنوحًا قليلًا أن تضطر إلى التسلل من وراء والديك بدلًا من تعاملهما بهدوء مع ما تفعله.

يقول: «لكنكِ لا تريدين الذهاب وحدك؟»

ماذا يعني بهذا؟ لا أريد أن أفسره بشكل خاطئ، لكنني أعجز تمامًا عن فك أي شيفرة.

فأجيبه: «لا، بل لم أسأل صديقاتي حتى... والحفل أيضًا ليس للجميع، أتعرف؟»

يقول: «نعم، أريد أن أذهب لكنني لست واثقًا بما ستقول أمي حين أخبرها، أظن أنها قد تقترح الذهاب معي».

فأقول: «ربما عليّ الرفق بوالدي قليلًا، لم أحسب أن أمك ستكون مثل أمي».

يرفع كتفيه قائلًا: «ولماذا لا؟ الأمهات أمهات».

هل هذا صحيح؟ ظننت دومًا أن الأمهات الأمريكيات -اللاتي ليس عليهن شرح عطلاتهن للجيران- لن يترددن في السماح لفتى في المدرسة العليا بحضور حفل موسيقي. كانت أنشطة مثل مخيمات المبيت خارج البيت، أو الخروجات الجماعية تصيب أمي بنوبة قلق.

ثم يضيفُ: «يمزح أخي قائلًا إنه التحق بالجيش ليعيش في مكان لا قواعد كثيرة فيه».

فأقول: «نعم، حسنًا. إذن، ربما على والدتينا أن تلتقيا»، وأشعر بالندم على ما قلته فورًا. لماذا أريدهما أن تلتقيا؟ يبدو عليه أنه يتخيل الأمر، لقاء الوالدتين، ولا يبدو عليه السرور.

فأقول لتخطي الارتباك: «نعم، لا أظن أن والديّ سيوافقان أيضًا».

يقول: «ماذا لو لم نسألهما؟» ثم يبتسم ويتنحنح بشكل غريب. يبدو... مرتبكًا، ما ظننته صفتي الخاصة بي وحدي، حتى الآن.

أقول وأقلّب في ذهني فكرة ذهابنا إلى الويرهاوس معًا من دون أن نخبر والدينا: «هذه فكرة مثيرة». تعجبني قليلًا، لكنها تقلقني لاحتمالية الكذب على والدي بشأن خططي لتلك الليلة. لكن يوسف سيكون هناك، وقد ظلا يخبراننا طوال حياتنا أن نبقى معًا.

يضيف قائلًا: «يمكننا الذهاب معًا. إلى الحفل أقصد. غالبًا، سيذهب يوسف مبكرًا للتجهيزات. لو شئتِ. سيكون الطقس باردًا، على ما أظن». يتحدث على دفعات، جمل متتالية. هل يطلب مني الذهاب معه؟ أشعر بالإطراء كلكمة في معدتي ولا يمكنني التفكير في رد مناسب. لا يفهم ترددي فيبدأ بملء الصمت المربك بمزيد من التأملات المتقطعة.

يقول: «أو إنها ليست كذلك، لكنها مجرد فكرة. ذهب أخي إلى هناك ويقول إن المكان لا بأس به. غامض قليلًا ربما، رأى فئرانًا قليلة تتسكع عند حاوية القمامة خارجه».

فأقول: «إنه مكان غامض إذن، وفيه فئران، لكنه لا بأس به». أسأله فجأة: «هل فكرت في العمل في التسويق؟»

يهز رأسه ويجيبني: «أنا متأكد من أنها لم تكن فئرانًا. في الغالب قال 'قططًا' لكنني لم أسمعه جيدًا. أو ربما أنتِ من لم يسمعني جيدًا. في جميع الأحوال، أظن أن مجموعة من الأشخاص

وربما القطط أيضًا سيكونون هناك. وفي الغالب سأحاول أنا أيضًا الذهاب، لذلك أخبريني لو أردت أن نذهب معًا».

لا مجال للخطأ في هذا -طلب مني للتو الذهاب معه، وبمرح.

فأجيبه: «نعم، حسنًا». وأحاول جاهدة أن أبدو طبيعية وهادئة وليس كتلة من الفوضى العارمة.

فيقول: «جميل، أتعرفين أن فرقة برايان باتون أرادت أن تعزف هناك أيضًا؟ وأن هدف حياته، أن يشعل نارًا في جيتار على المسرح؟ اقترح ذلك بالفعل في عرض مواهب المدرسة العام الماضي، لكن الآنسة كالاهان أقنعته باستخدام ألسنة لهب من الورق المقوى بدلًا من ذلك».

أقول: «أنت لست جادًا».

أتخيل براين باتون بحزامه الجلدي المميز، أسود ومرصع بمسامير معدنية، يقص ورقًا مقوى إلى أشكال حمراء وبرتقالية بمقص الأطفال. تحولت أحلامه النارية إلى مشروع مهارات فنية.

يجيبني كيث: «بل جاد جدًا. لذلك علينا الذهاب لمنعه من إحراق المكان».

فأقول: «لدينا مطفأة حريق إضافية في مطعمنا، سأحضرها معي». ثم أسكت تمامًا بعدما بدا أننا اتفقنا للتو على الذهاب معًا.

يسود صمت طويل ونحن نعبر الشارع، ننظر في كلا الاتجاهين كتلميذين مدربين جيدًا. كلما أفكر في شيء ما للتحدث عنه، ينتفخ بالون الصمت المربك بيننا.

يسألني: «إذن، هل تعملين في المطعم كل عطلة أسبوعية ؟»، فأتنفس بارتياح قبل أن أجيبه.

«ليس كل عطلة أسبوعية. بل حسب الجدول».

كاذبة، أقول لنفسي. لأنني هناك كل عطلة أسبوعية، أعمل مع والديّ. منذ أن حظي يوسف بعمل في استديو الموسيقا صرت العاملة الوحيدة في المطعم، التي ليس لديها أطفال، لكنني لا أريد أن يظن كيث أنني ضحية عمالة الأطفال.

يقول: «هذا جميل».

فأسأله: «العمل في العطلة الإسبوعية جميل؟»

فيجيبني: «لا. أقصد. إنه كذلك، لكن ليس هذا ما قصدته. قصدت أنه جميل أن لديكم مطعمًا. وأن لديك عملًا حقيقيًا بالفعل. عملت صيفًا واحدًا في سويرل، كنت أغرف المثلجات لأطفال كانوا يستغرقون أربعين دقيقة لاختيار طعم الفانيليا.

«أنا أحب سويرل».

«كنت سأذهلك بحلوى منثورة مجانًا لو جئتِ في أثناء نوبتي».

«كان ذلك سيكون مريعًا».

«مهلًا، ماذا؟»

«لا أحب الحلوى المنثورة. زينة الطعام لا تؤكل. ممَّ تُصنَع؟»

«حسنًا. سأضيف لكِ ما تختارين. لكن هل ستفعلين بالمثل لو جئت إلى مطعمكم؟»

أجيبه بلا تردد: «حسنًا، ليس لدينا حلوى منثورة، لكنك ستأكل من أفضل مطبخ في العالم». لا يمكنني منع نفسي. احترامي لطعامنا لا يسمح لي بالتردد. «إن خبزنا يجب وضعه

بين»العجائب». لا أمـزح. نحـن لا نسـلق شـيئًا أو نطهيـه بالبخـار فحسـب، بـل نتبـل، ونشـوِّح بالزبـدة، ونقلـي، ونشـوي. وبالإضافـة إلـى الملـح والفلفـل، نسـتخدم الكركـم، والنعنـاع، والكمـون، وبعـض السـمّاق. كل هـذا علـى الكبـاب يجعلـه ممتـازًا».

يقول: «ممَّ! هذا يبدو مرعبًا».

أرفع حاجبًا.

فيوضـح قائـلًا: «لمـس السـماق يصيبنـي ببثـور سـيئة حقًـا. أنتـم يـا رفـاق تأكلونـه؟ مـمَّ صُنعتـم؟»

فأقـول مبتسـمة: «لا. هـذا سـماق مختلـف»، وأضيـف كأننـي أعده: «لا يسـبب بثورًا».

أتخيلـه جالسًـا إلـى الطاولـة التـي فـي الركـن، أسـفل ملصـق غـلاف ناشـيونال جيوغرافيـك لصـورة الفتـاة الأفغانيـة اللاجئـة ذات العينيـن الخضراويـن، التـي تظهـر فـي نتائـج بحـث جوجـل لـو كتبـتُ «فتـاة أفغانيـة». هـل سـيأتي وحـده أم مـع أصدقـاء؟ مـاذا سـيقول أبـي لـو جـاء؟ ربمـا كان علـيّ التفكيـر فـي هـذا قبـل فتـح فمـي.

ننعطـف ونصـل إلـى بيتـه الـذي بهـت طوبـه مـن الشـمس وتعلـو بابـه الأمامـي نجمـة صفيـح. تقـف والدتـه خلـف زجـاج البـاب الأمامـي، تراقبنـا.

يلـوح لهـا فترفـع يدهـا. أشـعر بحـرارة تسـري فـي عنقـي وأرفـع يـدي، مـع أننـي لا أعـرف إن كانـت تلـوح لنـا نحـن الاثنيـن أم لابنهـا فحسـب. أعلـم أن والديـه ليسـا مثـل والـديّ، والأرجـح أنهمـا لا يعترضـان علـى سـيره مـع فتـاة، لكننـي مـا زلـت أشـعر بالإحـراج.

أعـدل حقيبـة ظهـري علـى كتفـي وأُخـرِج هاتفـي مـن جيبـي

لأتفقده بلا سبب إطلاقًا لأن شحنه نفد تمامًا بعد الغداء بساعة.

أقول ببهجة: «أراك غدًا». وأبدو كطير يصدح حقًّا.

فيبتسم ويجيبني: «نعم، أراكِ غدًا».

أشعر بإحراج لمشهد الوداع هذا أمام والدته، لكنني أذكر نفسي بأنها لم ترَ شيئًا أكثر من محادثة ودية بين زميلي دراسة.

أمرّ بمنازل قليلة أخرى قبل أن أصل إلى بيتي. في الشتاء، يبدو بيتنا من الخارج مثل أي بيت آخر. لكنه في الربيع والصيف، حين تنمو البصيلات التي غرستها أمي في الأرض بعمق، إلى زهور التوليب والسوسن، يتحول فناؤنا الأمامي إلى ينبوع ألوان في الشارع. لذلك على الأرجح تهتم أمي بالانقلاب الشتوي جدًّا. لأن التغير لا يحدث حولها. بل لها، كأنها هي الأخرى تدور حول محورها وحول الشمس. أنا وأخي نشبهها، مع أننا نتعرض للضوء في أوقات مختلفة من العام تقريبًا. تخنقني حرارة الصيف. لم أحب قط ضجة أول يوم في الدراسة -ربما لأنني لا أعود إلى المدرسة بصاحِب جديد أو سُمرة شاطئ، أو خصلات شعر وردية.

الشتاء هو موسمي الروحي. أعيش من أجل السترات الصوفية الفضفاضة، والموكا بالنعناع على أي شيء، وسعادة سقوط الثلج في أي يوم. تضمن لمبات الإضاءة في المدرسة، ذات الستين واط، عدم ظهور أحد في المدرسة بوهج سمرة الشاطئ. الشتاء هو الموسم الذي -إلى حدٍّ ما- يساوي بين اللاعبين.

يفضل يوسف الربيع. كأنه إحدى بصيلات أمي، تنمو وذراعاها ممدودتان كأنها على استعداد لالتقاط كل ما تلقي به الحياة لها. في مارس الماضي، أقنع أعضاء فرقته أن عليهم البدء بكتابة

أغانٍ خاصة بهم إنْ أرادوا أن يصبحوا شيئًا ما أكثر من فرقة موسيقية بديلة. أنهى دفتري ملاحظات قبل أن يخرج بشيء ما يعجبه بما يكفي ليقرأه على أحد. وفي عطلة الربيع، عزفوا الأغنية في البلازا، منطقة مطاعم صغيرة في وسط البلدة، ورأيت المارة يتوقفون، ويبدون إعجابهم، ثم يواصلون طريقهم. كنت كلما غادر أحدهم قبل نهاية الأغنية، أنظر إلى يوسف. كان إما لم يلحظ وإمّا لا يأبه. لم أسمع في صوته ترددًا قط. كذلك لم أر عينيه تتابعان أحدًا غادر قط.

أفتح بابنا الأمامي. اعتدت أنا ويوسف العودة إلى بيت خالٍ لأن المطعم يزدحم مساءً. لكن العودة إلى بيت خال من دونه أصعب. لا أعرف ماذا يقلقني -كائنات فضائية؟ لصوص؟ حمام مسدود؟ أم لص يتسبب في انسداد الحمام؟

هذا أكثر ما أحسد عليه يوسف. الوقت الذي يقضيه على المسرح لا تشوبه أفكار لا حصر لها عن كيف قد تسير الأمور بشكل خاطئ، ولا يأبه بالمارة الذين يبتعدون لأنهم لم يعجبهم صوته.

أنا من أبالغ في التفكير، لذلك أعتبر مراقِبة على تطبيق بيكاب أكثر مني نشطة. أضم يدي معًا، في انتظار أن يضع الآخرون النجمة الغالية على الصورة التي نشرتها، سواء أكانت التي صورتها لنفسي في المرة الوحيدة التي ذهبت فيها مع أمي إلى المشتل، لشراء نبات إبرة الراعي لحديقتها الصيفية، أم صورة الدراجة الصدئة التي وجدتها في الغابة. لو وجدت النجوم، أتساءل ماذا أعجبهم في الصورة! أم أنها مجرد تعاطف،

ليشعروا أنهم قاموا بعمل صالح في اليوم. أخمن عدد من شاهدوا الصورة في أثناء تصفحهم الموقع، ولم يهتموا بها، أو ينزعجوا منها حتى. أتخيل ملايين ردود الفعل غير المحتملة، لكن المحتملة تطاردني.

أُخرج دفتر رسوماتي لأنتهز فرصة الهدوء. لا أنشر رسوماتي على بيكاب أبدًا، لعلمي أنها ليست الأفضل هناك، ولو تلقيت عدة نجوم مهذبة، سأنساها سريعًا بعدة تعليقات استفسارية. ظل دفتر رسوماتي مكاني الآمن، وملاذي الوحيد. أرسم فيه ما يعني لي دون قلق بشأن إعجاب الآخرين. ربما أحاول رد الجميل لدفاتر رسوماتي فحسب بحفظها بشكل خاص لي وحدي. وحمايتها من آراء الآخرين.

أمسك بقلم سميك أستخدمه لوضع الخطوط العريضة.

أرسم زجاجة لها سدادة أعلاها، تشبه التي يشرب منها أليك في وندرلاند. أستخدم قلمًا أزرق قريبًا جدًّا من الأسود، لملئها بسائل. يصل السائل إلى منتصفها ثم يرتفع على جدارها، وتظهر دوامة صغيرة. ثم أرسم بأرفع أقلامي سنًّا، قامة حبرية ضئيلة تقف على سطحه، في مركز الدوامة، وطوف تحت قدميها. قامة بلا ملامح، مجرد ظل. ثم أرسم بدءًا من القاع كرمًا متسلقًا يلتف حول الزجاجة، بأوراق شجر مسننة تنمو في جميع الاتجاهات. يلتف الكرم حول الزجاجة مرارًا وتكرارًا حتى سدادتها.

حين أرفع قلمي عن الصفحة، أظن أن ما رسمته ليس ممتازًا ولا مذهلًا، لكنه مثير. أشعر أنني أود عرضه على أحد. ربما أمي؟

تقنعني نظرة أخرى للرسمة بأن هذه فكرة سيئة. ستبالغ في قراءتها إلى حد أنها ستبدأ بأخذي لتمشيات طويلة حول البحيرة لرفع نسبة الفيتامين دال في جسدي. أتصفح رسوماتي الأخيرة. منذ شهر تقريبًا، بدأت وأنا أستمع إلى تمرينات يوسف الموسيقية من خلف الجدار برسم حصان البحر، لكنه ليس الكائن الرخوي الضئيل الذي يتخيله أغلب الناس.

تُدعى فرقة يوسف «ذا هايبر كامبوس»، وهو تحريف قليل لهيبوكامبوس، الوحش البحري الأسطوري الذي تعرفنا عليه لأول مرة في روايات بيرسي جاكسون[1]. حين أرسل بوسيدونُ[2] الوحوشَ البحرية المكونة من نصف أحصنة ونصف سمك خلف بيرسي وأصدقائه. لا أعرف لماذا فكر يوسف في هذا الاسم لفرقته، لكن لا بد أنه راق لأصدقائه لأنهم اعتمدوه. ومن باب المرح، ظننت أنني سأرسم وحش الهيبوكامبوس.

ذهبت إلى غرفته ومعي دفتر الرسم مفتوح على رسمة بالحبر لحصان، حافراه الأماميان مرفوعان في الهواء ومنخاراه مفتوحان. شعر فارسه ممتد وممموج كأنه تحت الماء. ونصفه الخلفي مغطى بقشور وينتهي بذيل منحنٍ، مثل الدولفين. جلست على كرسي يوسف وفكرتُ في نزع الصفحة وتركها على مكتبه ليجدها. شعرت أن هذا أكثر أمانًا من وجودي هناك ومشاهدة

---

(1) بيرسي جاكسون والأولمبيون هي سلسلة روايات مغامرة خيالية تستند إلى الأساطير اليونانية القديمة من تأليف الروائي الأمريكي ريك ريوردان صدر أولها عام 2005. (المترجمة)

(2) إله البحر والعواصف والزلازل والخيول وأحد الأوليمبيون الاثني عشر في الأساطير اليونانية القديمة. (المترجمة)

رد فعلـه.

كدت أنزعها بالفعل حين لاحظت ورقة مجعدة تحت مكتبه. لا بد أنه قصد رميها في سلة المهملات. ربما كانت نظافته الشديدة ما جعلني ألتقطها. ألاحظ قبل رميها أنها إيصال من «رووم»، مقهى مجاور لاستديو كريشندو، يُدعى في الحقيقة رووم ويذ آ برو (أي غرفة مع مشروب). وحسب لافتة مؤطرة معلقة على حائط هناك، كان مالكاه رجلي أعمال تركا مكتبيهما الزجاجيين لتحقيق حلم حياتهما. المكان طبيعي ومريح ومفتوح للجميع. تحب صديقتاي مونا وأسما مثلجات الليمون الطبيعية هناك، وأنا أيضًا أحبه لأنه يبيع كتبًا ومجلات. أشعر بأنني بعيدة عن كوني طالبة، وقريبة من كوني مبدعة، حين يكون أمامي كوب فخار ودفتر رسم. يبدو مكانًا رائعًا للرسم أيضًا، لكن يجب أن أذهب وحدي لفعل هذا، لأنني لا يمكنني رسم شيء سوى شخبطات عشوائية حين يراقبني أحد.

الإيصال الذي أمسكه لشاي بلبن، وقهوة مثلجة بالإضافات المعتادة التي يحبها يوسف من الكريم والسكر، وقطعة كبيرة من كعك الشوكولاتة الرقيق. مشروبان وقطعة كعك واحدة.

لا أتخيل أن يتقاسم يوسف قطعة كعك مع ليام أو كريس. مع من ذهب؟ يخبرني حدس قوي أنه يخفي هذا عمدًا. آخذ دفتر رسوماتي وأعود إلى غرفتي لأضعه في الدرج دون أن أترك الرسمة على مكتبه.

ربما لست الوحيدة التي لديها أسرار.

الفصل الثالث

في إشارة حمراء، وأنا في سيارة أبي المعبأة برائحة البولاني(1)، أنظر إلى السيارة المجاورة فيكاد قلبي يقفز من مكانه. يغني السائق الذي إلى يساري مع الموسيقا، وينقر بيده مع الإيقاع على عجلة القيادة. لا بد أنه شعر بنظرتي لأنه التفت نحوي، وحين تقابلت أعيننا، ضحك ولوح بيده.

لم يكن غناؤه ما لفت نظري. كثيرون جدًا يغنون في سياراتهم. بل لأنه يشبه رحيم -أو هذا ما أراه. لأن آخر مرة رأيت فيها ابن عمتي، لم يكن يشبه نفسه حقًا.

لم نكن قد رأيناه منذ سنوات، منذ عيد الشكر قبل خمسة أعوام مضت، حين قدِمت أسرته من إنديانا إلى فيرجينيا لقضاء العطلة معنا لآخر مرة. كان ذلك تقليدًا لأن والدي رحيم كانا يأخذان عطلة طويلة من عملهما في حين يغلق مطعمنا في وقت مبكر من يوم عيد الشكر نفسه. كنت أحب تلك الزيارات. فيما كان الكبار يتحدثون عن الفروع البعيدة لشجرة العائلة ويلعبون الورق، كنا نحن الصغار نقضي وقتنا معًا. من بين أقربائي الكثيرين، لا أحد يشبه رحيم. كان لأنه أكبر منا في السن يبدو كأنه يحمل معرفة خاصة وواسعة. كان يمكنه التحدث إلى والدينا على الغداء عن أفضل لاعب في فريق مانشستر لكرة القدم ثم يتحدث إلى الصغار على العشاء عن الحيتان القاتلة. وكان يمكنه

---

(1) نوع من الفطائر الأفغانية. (المترجمة)

تقليد صوت أمه بدقة بالغة إلى حد أن خدع والده أكثر من مرة. كان سلوكه من النوع الذي يجعل قلوب الجَدّات تذوب في حبه.

أحبّته أمي لأنه لم يكن متعلقًا بهاتفه طوال الوقت. قال إنه لا يود أن يكون عبدًا للوغاريتمات. علق يوسف على هذا وقتها، بنصف مزاح ونصف جدية في صوته، أن رحيم لديه حياة سرية ما. مرت لحظة صمت قصيرة، ثم ضحك رحيم وقال إنه ليس جاسوسًا، لكنه حتى لو كان كذلك، فلن يخبر أحدًا أبدًا. ضحك يوسف وضحكتُ أنا أيضًا مدهوشة من أسلوبه في تحويل التعليق إلى شيء خفيف مثل الريشة والنفخ فيه حتى يخرج من الغرفة.

اعتدنا، أنا ويوسف ورحيم، السهر حتى وقت متأخر في غرفة المعيشة لنشاهد أفلامًا. ذات ليلة، أوى يوسف إلى النوم مبكرًا. كنا قد شاهدنا عددًا من الأفلام الجيدة، لذلك شغلت أحد الأفلام التي نراها أنا ورحيم سيئة جدًّا لدرجة أنها جيدة تقريبًا. كان فيلمًا عن مدرسة داخلية صارمة للساحرات المراهقات.

لا بد أن عمي زهير قد استيقظ ظمآنًا. وقف في غرفة المعيشة بكوب ماء في يده وقال إن علينا الذهاب إلى النوم. ثم نظر إلى شاشة التلفاز، حيث كان ثلاث فتيات يجرّبن أثوابًا لحفل رقص. عبرَ عمّي الغرفة في خطوتين واسعتين وأمسك بجهاز التحكم. ضغط بإبهامه، فأظلمت الغرفة، لكنني شعرت به يزجر رحيم بعينيه. ولكسر الصمت الثقيل قلت شيئًا ما عن كوني مرهقة بالفعل وذهبت للنوم. حتى الآن تتقبض معدتي حين أتذكر تعبير وجه رحيم حين دخل والده الغرفة.

لكنه تصرف في الصباح التالي كأن شيئًا لم يحدث. لعب مع يوسف بألعاب الفيديو قليلًا ثم قضى أغلب الوقت على الشرفة يقرأ رواية جاسوسية. عادوا إلى بيتهم بعد يومين. بعد ذلك تباعدتْ مكالمات عمي زهير، وعند مرحلة ما، لم يعد يعاود الاتصال بوالدي حتى حين يترك له رسالة. ظلت والدته، عمتي ليدا، تجيب اتصالات أمي لكن بمحادثات قصيرة، ومجاملات خاوية. لم يعد رحيم وأسرته لزيارتنا بعد ذلك، واختلقت العمة ليدا أعذارًا عديدة حين اقترح أبي أن نسافر نحن إليهم.

كان لدينا أنا ويوسف شكوكنا، مع أن كلمة «شكوك» ليست السليمة هنا لأنها تتضمن حُكمًا، وهذا ما لا نقصده. لا أتذكر من قالها أولًا. في عائلة كبيرة ومتفرعة مثل عائلتنا، يوجد احتمال أن يخرج شخص ما عن الفئة المستقيمة. لكننا لم نر رحيم بعد ذلك لمدة عامين، ولم نناقش ميوله بالتأكيد. ظل من الأسهل كثيرًا التفكير في أن الأمر ليس من شأننا في جميع الأحوال -حتى اليوم الذي سمعتُ فيه أمي تتحدث على الهاتف إلى إحدى قريبات أبي تعيش في إنديانا أيضًا.

كانت الأقرب إلى أمي من بقية عائلة أبي، بمن فيهم والدا رحيم. لذلك كانت تبقيها على علم بأحدث أخبار الأقارب في إنديانا، وهي الطريقة المهذبة لقول كلمة «نميمة». كان رحيم على وشك التخرج في الكلية، وأمه تزور الأسر الصديقة التي لديها فتيات، بأمل إيجاد فتاة تناسبه. كان رحيم أكبر مني سنًّا، لكن ذهني لم يستطع وضع كلمة زواج في جملة واحدة مع اسمه.

وبدلًا من تخطيط والدته لزواجه، انتهى الأمر بوالده يرتب لجنازته.

أُوقفت السيارة في ساحة انتظار المركز التجاري، حيث يوسف في استديو كريشندو في الطابق الثاني عند المنعطف. أحيانًا نذاكر أنا وصديقتاي في مقهى رووم، في الجهة المقابلة من الشارع. أصف السيارة وأرسل إلى أمي رسالة لأخبرها بوصولي سالمة. تقلق حين أقود السيارة، أكثر مما تقلق حين يقود يوسف. أخبرتني ذات مرة أن هذا لأنها تحس بتوتري حين أقود، لذلك لا أعرف أين ينتهي قلقها ويبدأ قلقي.

يوسف وكريس وليام في الاستديو يتمرنون لليلتهم الكبرى في الويرهاوس. يوسف ليس قلقًا. ليس من طبعه القلق. حين يكون أمامه حفل وشيك، أو أغنية يعمل عليها، يصبح حادًّا. هذه الأيام، يستولي حفل الويرهاوس على تركيزه كله. في البيت لا يلاحظني حتى وأنا أراقبه ينقر بقدميه، يتمرن على حركة أصابعه حتى وهو لا يمسك بالجيتار، يدندن وهو ينجز فروضه المدرسية. وبثقل مسابقة الفرق الموسيقية في ذهنه، صار ينسى أشياء أخرى، مثل حفل الوجبة المشتركة في الاستديو اليوم.

منذ نحو ساعة، دخل غرفة الاستراحة في الاستديو فوجد صواني من ورق الألومنيوم على المنضدة، فاتصل بأمي، شرطة النجدة الخاصة بنا، وأبلغها بالظرف الطارئ الذي وجد نفسه فيه.

الطعام هو اللغة التي تعبر بها أمي عن حبها، لذلك يعتبر المطعم مشروعها المثالي. تقضي وقتًا طويلًا جدًّا في جزيرة مطبخنا وحدها، بين المبرد والفرن في متناول يديها، تستعد

للحظة الحتمية التي سنعلن فيها أنا ويوسف أننا جائعان. في المطعم تقدم دائمًا حلوى مجانية للزبائن الذين يعودون إلى مزيد من وصفاتها، وكذلك للزبائن الجدد؛ ليعيشوا خبرة وجبة أفغانية كاملة. تحب أيضًا تقديم الدجاج المطهي بالبخار ومهروس القرع المشوح للأفغان الذين وجدوا أنفسهم بعيدين عن وطنهم وعن كل ما يألفونه.

أفتح باب المقعد المجاور للسائق وأحمل صينية البولاني الذي توقعت أمي أن الجميع سيحبه. كانت البطاطا المهروسة في براد المطعم بالفعل. وضعها أبي على العجينة المسطحة ثم طواها وقلاها.

أخرج من السيارة وأسير نحو السلم، فألمح شيئًا ما من زاوية عيني. إنه ثعلب، يندفع من بين سيارتين إلى الغابة الصغيرة القريبة خلف المبنى. يختفي ذيله الطويل المنفوش وأحاول نفض خوفي عني، أقول لنفسي إن الثعلب في الغالب شعر بالخوف مثلي.

أصعد الدرجات الأسمنتية، وأمر بصالون العناية بالأظافر، ثم محل خالٍ بلافتة «للإيجار» في عارضته. هذا المركز أحد أقدم المراكز التجارية في البلدة، واضطرت محلات قليلة فيه إلى الإغلاق خلال السنوات الثلاث الماضية. لذلك يتساءل الناس إن كان قد حان الوقت لهدمه وبناء آخر جديد أو إن كان بالإمكان تجديده ببعض الطلاء والمحلات الجديدة. ظني أن استبدال متجر أدوات التدخين الحديثة بأي شيء آخر سيكون بداية جيدة.

استديو كريشندو في أقصى طرف الطابق الثاني. ينحني الممشى الأسمنتي نحو النهاية، لكن مدخل الاستديو بعيد عنه

بخطوات قليلة. أفتح الباب وأرى بيتو، المدير، يتحدث على الهاتف خلف مكتب الاستقبال. توجد شجرة أعياد ميلاد صغيرة في ركن من الصالة، مزينة بمئات من الطبول الضئيلة، من النوع الذي يباع «العشرة بدولار». يبتسم حين يراني ويشير لي لأواصل السير إلى الغرفة الخلفية فيما يعيد تحديد موعد درس ما. على الجدران ملصقات لفرق موسيقية، ومطويات حفلات، وصور لآلات موسيقية، وطلبة يعزفون على مسارح صغيرة.

على كلا جانبي الرواق غرف عازلة للصوت. في أول غرفة إلى يميني، تتصفح امرأة كتابًا عن الموسيقا، في حين يتمرن ابنها على آلة كمان. يخرج كريس من إحدى الغرف.

حين يراني يبادرني قائلًا: «مرحبًا يالدا، تنقذين يوسف مجددًا».

فأجيبه: «لو أخبرك أنه من أعد هذا، اِلق بالجيتار في وجهه».

فيضحك.

كريس من النوع الذي يبدو عليه كل ما يشعر به. منذ شهر، كانوا في منزلنا يشاهدون أحد أفلام مارفيل. طلب يوسف من أبي أن يحضر معه في طريقه إلى البيت بعض المثلجات، وبالطبع وافق أبي. ساعدت أبي في حمل صينية الأطباق والملاعق إلى غرفة المعيشة، لأن يوسف وصديقيه لم يسعهم تحويل أعينهم عن شاشة التلفاز. رحب بي يوسف وليام وشكراني سريعًا، لكن كريس تصرف بشكل مختلف. نظر إلى أبي وهو يضع يده على كتف يوسف ثم نظر إلى طبق المثلجات كأنه أمنية حياته. توفي والده بمرض السرطان حين كان كريس في السابعة. يذكرني بالأشخاص

الذيـن يضلـون مـن أم أو أخ فـي المطـار، ويقفـون لمشـاهدة إقـلاع الطائـرة. لديـه تلـك النظـرة دائمًـا -شـعور دائـم بالفقـدان.

يقـول وهـو يشـير إلـى غرفـة فـي نهاية الـرواق: «يمكنـك وضعها في غرفـة الاسـتراحة». يوسـف وليـام فـي الغرفـة التـي تسـبقها مباشـرة. يجلـس ليـام إلـى مجموعـة طبـول تبـدو نسـخة كبيـرة مـن طبـول زينـة شـجرة أعيـاد الميـلاد. يرتـدي قميصًـا خفيفًـا علـى تيشـيرت أبيـض. يقـف يوسـف بظهـره نحـوي. ينظـر مـن أعلـى كتفـه، يمكننـي رؤيتـه يكتـب رسـالة لأحـد مـا. ظـل حريصًـا علـى خصوصيـة هاتفـه بشـكل زائـد مؤخـرًا. يسـتدير قليـلًا كـي لا أرى شاشـته والتطبيقـات المفتوحـة حيـن أقتـرب منـه.

تحدثـت إليـه فـي هـذا ذات مـرة، لكنـه ضحـك وطلـب منـي أن أعطيـه هاتفـي ليفتـش فـي رسـائلي. فكانـت هـذه نهايـة هـذا الحـوار.

أضـع البولانـي علـى المائـدة المسـتديرة، وأزيـح الأطبـاق الموجودة عليهـا بالفعـل جانبًـا لأفسـح مجـالًا. سـلة فيهـا شـوكات بلاسـتيكية بيضــاء، وكيـس رقائـق ذرة. لـو كنـت أعـرف أن رقائـق الـذرة مـن الخيـارات المتاحـة لأخبـرت يوسـف أن يذهـب إلـى محطـة البنزيـن علـى الجهـة المقابلـة ويوفـر علـيّ المهمـة.

أسـمع كريـس يقـول مـن الـرواق: «يالـدا وصلـت». أنضـم إليهـم فـي الغرفـة التـي يتمرنـون فيهـا، الأكبـر مـن بيـن الغـرف السـت فـي الاسـتديو.

يقـول ليـام: «أهـلًا». فألـوح لـه. ليـام هـادئ جـدًّا لدرجـة يجعلنـي أبـدو ثرثـارة أكثـر مـن لاعـب علـى الإنترنـت يـود تسـلية متابعيـه. يقـول يوسـف إنـه نمـوذج كلاسـيكي لعـازف طبـول، متحفـظ وثابـت ومثابـر.

ظلا صديقين منذ المدرسة المتوسطة، حين عرض ليام على يوسف سماعته الأذن وعرّفه ببعض فرق الروك القديمة.

أقعد على كرسي بعجلات بلا ذراعين. وأسألهم: «هل قررتم ماذا ستعزفون؟»

يسعل ليام. فأحس أنني لمست جرحًا.

ينتبه يوسف لرد فعل ليام ويرفع كتفيه.

يجيبني كريس: «ليس بعد، نحاول الاختيار بين أغنية يوسف الجديدة أو شيء ما اعتدنا عزفه. يقول ليام إن الجمهور يحب الأغاني المألوفة».

يسأل يوسف وهو يعقد ذراعيه على صدره: «وما رأيك أنت يا كريس؟»

فيغمغم ليام قائلًا: «سيوافقك، إنه يوافقك دائمًا».

يقول كريس: «هذا هراء، وأنت تعرف هذا».

ينقر ليام بعصاه على حافة أحد طبوله. فيقول يوسف: «اذكر اسم فرقة تحبها تعزف أغاني فرقة أخرى. أنا في انتظار الإجابة».

يهز ليام رأسه قائلًا بإرهاق: «يا رجل، هل أنت جاد الآن؟»

بقدر ما اعتدتُ هذا الشعور، يظل يزعجني. بينما يشعر الإخوة بقوة في وجود إخوتهم، يصبح موقف الآخرين مهزوزًا قليلًا.

يواصل ليام قائلًا: «هذا ليس عرض مواهب في المدرسة. الويرهاوس حفل حقيقي ولم يكن العزف فيه فرصة سهلة».

فيقول كريس مازحًا: «شكرًا لتذكيرنا لأننا كدنا ننسى أنك تعرف المدير هناك». لكن ليام لم يضحك.

يقول يوسف: «أنا أعرف أنه حفل حقيقي، لهذا أتعامل معه بجدية، لا أريد أن نكون مجرد فرقة بديلة. يجب أن يعرفوا أننا لسنا مجرد مقلِّدين».

فيجيبه ليام وهو يفرد ذراعيه: «حسنًا، سوف نعزف أغنيتك».

يسأله يوسف وهو يحاول التخفيف من حدة الأمر: «هل تريد ذلك حقًّا أم تريد إسكاتي فحسب؟»

يجيبه ليام: «هل يهم هذا في شيء؟»

يسود الغرفة توتر، ليس جو حفل عطلة بالتأكيد.

يجيب يوسف: «يهمني بالطبع».

فأقول في محاولة لتهدئة الجو: «ما زال أمامكم أسبوعان». لم يختلفوا من قبل قط، لكنهم لم يسبق لهم العزف في حفل كبير كهذا أيضًا. أردف قائلة: «لديكم متسع من الوقت للاتفاق».

لا أحد منهم ينظر إليّ، في الغالب لأنني أبدو كمعلمة رياض أطفال تحاول الصلح بين أطفال في منطقة اللعب.

يئز شيء ما. يخرج كريس هاتفه من حقيبته ويجيبه وهو يخرج من الغرفة.

يقول: «مرحبًا أمي، هل كل شيء بخير؟»، ثم يصمت.

ثم يضيف: «بريك. لماذا لا تقلينني أنتِ؟ إنه يتأخر دائمًا».

يهز يوسف رأسه ويذهب إلى الرواق. أراقبه من الجدار الزجاجي. يقول لكريس، «سأوصلك أنا»، فيومئ له الأخير بشكر خفيف وعفوي.

أقول لليام الذي ما زال يبدو محبطًا: «الأفضل أن أعود، ولا يهم ما ستعزفونه يا شباب، أنا متأكدة من أنه سيكون رائعًا».

فيقول بطريقة تنم عن أنه لم يغير رأيه لكنه لا يحب الجدل: «نعم، لا يهم حقًا».

أقول وداعًا ليوسف وليام وأغادر الاستديو. أقود السيارة إلى المطعم، وأنسى تشغيل الراديو حتى أوقف السيارة. كان ذهني شاردًا والسماء ملبدة بالغيوم، بداية المساء قاتمة بدرجة أكبر مما ينبغي.

الفصل الرابع

يقـول كيـث ونحـن نسـتند بظهرينـا إلـى جـدار الـرواق الأخضـر الطحلبـي: «هـذا الرجـل لا مثيـل لـه». تلتصـق كتفـه بكتفـي وهـو يمسـك هـاتفـه لنـرى الشاشـة معًـا، ويميـل برأسـه إلـى رأسـي. يضيـف قائـلًا: «فكـرت بعـد مشـاهدة هـذا الفيديـو أن هـذا هـو مـا أريـد فعله فـي حياتـي -تدريـب السـناجب علـى قفـز الحواجـز فـي فنائـي الخلفـي».

أعـرف الرجـل فـورًا وأضحـك. نجـح فـي تحويـل فنائـه الخلفـي المحـاط بسـور، والسـناجب التـي تعيش فـي منطقتـه، إلـى آلـة مـدرة للربـح ببنـاء متاهـات معقـدة في الفنـاء واسـتخدام ثمـار الجـوز لجـذب السـناجب إليهـا.

أقـول لـه: «هـذا جيـد حقًـا، لكنـه تطـور كثيـرًا منـذ ذلـك الحيـن، هل رأيـت الكازينـو الـذي بنـاه للسـناجب؟ مسـتوى التفاصيـل... أقصـد، لديـه مخططـات وأدوات صغيـرة داخـل بيـوت السـناجب تلـك».

يقـول: «نعـم! كان هـذا البـاب السـري فظيعًـا. أبهرنـي. لـم أظنـك مـن النـوع الـذي يحـب تدريـب السـناجب علـى قفـز الحواجـز».

«المرء يعرف شخصًا ما فقط حين يرى منشوراته».

يضحـك ويقـول مازحًـا: «حسـنًا إذن، دعينـي أعـرف حيـن تنشـرين شـيئًا مـا». فأبلـع ريقـي لأن هـذا، بالتأكيـد تقريبًـا، ليـس حـوارًا وديًـا بيـن صديقيـن. أشـعر كأننـي وضعـت قدمـي فـي حـذاء ليـس لـي.

في هذه اللحظة من الصمت أشعر بأحد يراقبني.

اسمها نهال، وفي عامها الأول في المدرسة، لذلك لا ندرس معًا أي مواد. حين رأيتها أول مرة شعرت كأن يدين لا مرئيتين أدارتا رأسي نحوها. كان لون طرحتها جميلًا. أخضر أروع بكثير من لون الخزانة التي تحدق إليها. على ظهرها حقيبة سوداء لامعة، ويبدو أنها اشترتها حديثًا. ترتدي قميصًا خفيفًا يصل إلى أسفل جيبي بنطالها الجينز الداكن ببوصتين. يبدو حذاؤها جديدًا أيضًا، أبيض سادة، ويلمع مثل حقيبتها. يشبه الذي اشترته أمي لقائمة احتياجات الأسر الأفغانية اللاجئة. مع ذلك، كان ما أذهلني الكنزة التي تحملها في يدها، لها قلنسوة بلون أخضر زيتوني، وصورة لصبار مُزهر على الظهر.

كانت هذه الكنزة معلقة في دولابي منذ وقت ليس طويلًا.

مررت بجانب نهال دون أن أتوقف لقول أي شيء أو لتقديم نفسي. كان لدي أسبابي. سأتأخر على فصلي ولا أعرف ماذا أقول. وربما لن تفهم داريتي المتكسرة، وقد لا تفضل التحدث إلى أحد لا تعرفه. حين قعدتُ في الفصل، خطر لي أن الخط الفاصل بين الأسباب والأعذار حاد جدًا كالنصل، وأن نهال لم تكن تدير قرص قفل خزانتها أو تفعل أي شيء سوى التحديق إلى الخزانة.

أردت فعل ما هو أفضل لكنني لم أعرف ماذا أفعل حقًا. فكرت في أن أسأل أمي إن كانت الأسرة في حاجة إلى أي شيء آخر لكنني خفت من انقلاب الأمر عليّ. لأمي طريقتها في تحويل طلب صغير إلى مشروع كبير، على سبيل المثال، حين أخبرتها ذات مرة أنه سيكون جميلًا أن نزرع الطماطم، عادت إلى البيت ببذور وتربة وأعلنت عن الافتتاح الكبير لحديقة أسرتنا. كلفني

محصـول هـذا الصيـف -سـبع ثمـار طماطـم وثمرتـا جـزر صغيرتـان- سـاعات مـن حياتـي.

بعـد أسـبوع مـن ملاحظتـي نهـال أول مـرة، مـررت بهـا فـي الـرواق مصادفـة والتقـت أعيننـا، ابتسـمتُ نصـف ابتسـامة ثـم نظـرتُ بعيـدًا حيـن لـم تـرد الابتسـامة.

منـذ ذلـك الحيـن، أمسـكت جيـدًا بزمـام بؤبـؤي عينـي لتجنـب الإحـراج مجـددًا. شـعرت أن هـذا تأكيـد علـى عـدم رغبتهـا فـي معرفتـي، ولـم أرغـب فـي أن أبـدو كأننـي أشـفق عليهـا أو كأننـي أريدهـا أن تشـكرني علـى مـا فعلتـه أمـي لأسـرتها.

لكـن للكـون حيلـه الخاصـة، لذلـك بالطبـع، صـادف أن مـرت بنـا نهـال،

فشـعرت فجـأة أن وجـه كيـث قريـب جـدًّا مـن وجهـي، وبتوتـر مـن تلامـس كتفينـا. نظـرت إلـيّ نهـال للحظـة مطولـة وهـي تسـير ببـطء فـي الـرواق، تحتضـن كتبهـا.

ابتعـدتُ عـن كيـث بمسـافة فـورًا. فـردتُ ظهـري واختفـت ابتسـامتي، لكـن نهـال كانـت قـد مـرت.

يسـألني كيث: «هل أنتِ بخير؟»

أشـعر أنهـا فاجأتنـا ونحـن نفعـل أكثـر مـن مجـرد الوقـوف أحدنـا بجـوار الآخـر.

أقـول محاولـة أن أبـدو طبيعيـة: «نعـم، نعـم... تذكـرت للتـو أن علـيّ كتابـة مقـال، ويجـب أن أسـتعير كتابًـا مـن المكتبـة مـن أجـل فـرض الرسـم. أراك لاحقًـا؟»

فيجيبني وهو يضع هاتفه في جيبه ويومئ برأسه: «بالطبع، أراك بعد المدرسة».

أنعطف في الرواق المؤدي إلى المكتبة، أشعر برعشة كهربية تسري فيّ، مزيج من التحفز والخوف لأنني لا أعرفْ ماذا يحدث بيني وبين كيث. أتساءل كيف صار الأزواج الآخرون أزواجًا. هل يوجد عدد محدد من الساعات يتحول بعده الشخصان إلى شيء ما تلقائيًا؟ هل سيسألني؟ هل أنا قديمة بشكل لا يصدق لأفكر أن الأمور تسير هكذا؟ ظهرت الأقاويل عن الإعجاب والمشاعر المتبادلة بين زملاء الفصل منذ العام الدراسي الأول، لكن الأمر اختلف الآن، بعد أن عرف أغلبنا، وربما ليس كلنا، الحقيقة بشأن جنية الأسنان.

تقول مونا وهي تضع ذراعها حولي: «إذن». لم أرها تقترب؛ ما يعني أن ذهني مشتت أكثر مما ظننت.

ولأنها صاحبة الميدالية الذهبية في المبادرات، تبدو في عينيها لمعة الخطر، وهي تسألني: «هل صار صاحبك رسميًا أم ماذا؟»

أغمغم قائلة: «لا. أرجوك لا تفعلي هذا بي».

فتسأل، باستنكارٍ مصطنع: «ما الذي أفعله بكِ؟ أنا أسأل صديقتي أن توضح لي موقفها ببساطة، ليمكنني دعمها بأفضل شكل في أول علاقة لها».

علاقة. تنقبض معدتي للكلمة التي تبدو فجأة ضخمة ومخيفة كحوت إلى جانب مركب بدائي.

«بربك يا مونا. أنت مخطئة تماما. كنا نتحدث عن السناجب فحسب». أؤكد على كلمة السناجب كأن هذا سيثبت لها أنها لم تكن محادثة رومانسية. ثم أضيف: «وفي جميع الأحوال، دعي مسألة التصنيف هذه لأن هذا بجدية ليس... أمرًا جادًّا».

تقول لي: «يالدا، هذا أنا. أنا لستُ أمكِ، ولا قريبة قد تُصدر حكمًا سخيفًا عليكِ. ونحن لسنا في العصور الوسطى أيضًا. أنتِ معجبة به، صحيح؟ أعني، لستُ معكِ في هذا. ظني أنه كان في حاجة إلى قص شعره منذ أسابيع، وأنا مستاءة منه مقدمًا لأنه أخذ مني أقرب صديقة لي».

أقول: «مونا!»

فتقول: «لقد قضينا معًا أوقاتًا طويلة يا يالدا. قد يكون اليوم هو الأخير في أيامنا الجميلة». ثم تسألني، وهي تُثبّت عينيها عليّ: «ستفتقدينني أيضًا، أليس كذلك؟»

فأجيبها: «سأفكر في هذا لبعض الوقت»، وأمسك يدها لأسحبها إلى المكتبة معي.

نجلس إلى طاولة مستديرة بين أرفف الكتب الخيالية. أنا بحاجة للتحدث مع أحد في هذا، ومن بين صديقتَيّ، أشعر أن بوسعي التحدث بحرية أكثر مع مونا. لا أعرف كيف سيكون رد فعل أسما، وجزء مني يخشى أن يخيب أملها فيّ لخروجي مع كيث. لو حدث هذا. أي لو كان هذا ما يعنيه الذهاب إلى الويرهاوس معًا. أتذكر محادثتنا عن الفئران التي تتسكع عند حاوية القمامة، وأشك في سلامة عقلي.

تسألني مونا، وهي تنظر إليّ بشك: «ماذا يحدث؟ يوجد شيء ما تُخفينه، قولي، وإلا فلسنا صديقتين».

فأجيبها: «حسنًا، أنا الآن بين نارين».

«يالدا!»

«حسنًا، سيعزف يوسف في الويرهاوس الأسبوع القادم...».

«حقًّا؟ هذا مكان حقيقي! وهل وافق والداكِ على هذا؟»

فأهز رأسي قائلة: «لا يريد أن يستأذنهما، لأنه يظن أنهما سيرفضان».

فتقول مؤكدة: «احتمال كبير».

فأواصل: «لن يحبذا الفكرة، لكنه وصديقيه سعداء جدًّا بهذا الحفل، وأنا أريد أن أذهب لأشاهدهم. و... كيث يريد الذهاب أيضًا. وسألني إن كنت أريد الذهاب معه».

تنقر بأصابعها على الطاولة باستمتاع، وتقول: «كنتُ أعرف أنه شأن عظيم. حسنًا، لنراجع هذا: أنتِ تريدين الخروج في موعدك الأول -دون أن يكتشف والداكِ- مع شابٍ ليس من المفترض بكِ مواعدته؛ لمشاهدة أخيكِ سرًّا، وهو يعزف في بارٍ ليس مسموحًا له بالعزف فيه».

يجعلني تلخيصها للأمر على هذا النحو أغمغم بارتباك: «لا أعرف. انسي الأمر. إنها فكرة سيئة».

«ما الفكرة السيئة؟»

نلتفت معًا في اللحظة نفسها، ونرى أسما تريد أن تنضم إلى حوارنا.

تقول أسما، وهي تشير إلى زجاج المكتبة: «لا عجب أنكما لم ترياني ألوّح لكما من الرواق، ماذا يحدث؟»

تُتيح لي مونا لحظةً للإجابة، لكنها، حين يغلب ترددي صبرَها، تقول لأسما: «كيث طلب من يالدا الخروج معه في موعد سري إلى حفل سري في الويرهاوس سيعزف فيه يوسف».

تقول أسما: «واو»، وتطرف عينيها عدّة مرات. هذا هو الاختلاف الرئيس بين صديقتَيّ. مونا لا تفكّر قبل أن تتحدّث؛ ما يجعل معرفة ما تشعر به سهلًا جدًّا. وأسما، على الجانب الآخر، تبالغ في التفكير قبل التحدّث، لكن هذا لا يهم في هذا الموقف، لأنني أعرف من وجهها تحفّظها الشديد على هذه الخطّة.

أغطّي وجهي بيدي.

تضيف مونا: «يمكننا الذهاب معكِ».

أباعد بين أصابعي لأرى إن كانت مونا من تتحدث حقًّا.

فتقول، وأصابعها مرتاحة على الطاولة: «اسمعيني، سنخبر والدينا أن حدثًا ما سيُقام في المدرسة تلك الليلة، كاحتفال ترحيب بالعودة إلى الوطن أو شيء من هذا القبيل».

فأجيبها منجذبة للفكرة: «واصلي كلامك».

فتواصل قائلة: «اسمعي، إنهم لا يعترضون على ذهابنا إلى مركز التسوّق أو مباراة مدرسية. إذن؟ هذه مسابقة موسيقية وديّة، وأراهن أن عددًا كبيرًا من المدرسة سيكونون هناك. يمكننا أن نذهب كلّنا لتشجيع يوسف».

تقول أسما: «ليس لديّ مانع من الذهاب».

تنظر إليها مونا بدهشة شديدة.

وأسألها أنا: «ماذا يعني هذا؟ هل تقصدين أنك تريدين الذهاب؟»

ترفع كتفيها وتجيبني: «لم أفكّر في هذا من قبل حقًّا، لكن نعم. يجب أن نذهب من أجل يوسف. وفرقتِه بالطبع. إنه حدث كبير بالنسبة إليهم أن يعزفوا هناك. أنا معكما».

نتبادل أنا ومونا نظرة. لسنا من الفتيات اللاتي يقتربن من المشكلات حتى، لكن أسما على مستوى آخر. إنها بُوصلتنا الأخلاقيّة حرفيًّا، توجّهنا دائمًا نحو الصواب. وإن كانت تريد الذهاب، فالذهاب واجب علينا إذن.

تعلن مونا قائلة: «اتفقنا إذن، سنذهب كلّنا»، وتنهض عن مقعدها لتؤكّد على القرار. ثم تسألني: «ماذا قال يوسف لوالديكِ؟»

فأجيبها: «أخبرهما أن الفرقة ستعزف في مركز مجتمعي. مثل عرض مواهب أو شيء من هذا القبيل».

فتقول باستحسان: «نعم، هذا جيد، جيد جدًّا. سنقول هذا نحن أيضًا. أعني، إنه مركز موسيقي، وفي المجتمع أيضًا».

تفكّر أسما بصمت. تهزّ رأسها، تبحث إبرة البوصلة عن حقيقة الشمال. ثم تقول بثقة: «أظنّ أنه لا بأس. إنه ليس بارًا. ليس علينا أن نكون أكبر من الثامنة عشرة لدخوله أو شيء ما كهذا، لذلك يُعدّ مجرّد قاعة عرض موسيقا».

فأُطلق تنهيدة لم أدرك أنني كنت أحبسها.

وتضيف مونا: «مثل قاعة كارنيجي. أو مركز كينيدي. أو ... برودواي».

فأنفجر في الضحك قائلة: «نعم!»

أشعر براحة بعد كشف خطّتي، حتى وإن كان لصديقتَيّ فحسب. ثم أضيف: «سيكون الأمر جيدًا، ذهب يوسف إلى الويرهاوس عدّة مرّات لتفقّده».

أخبرهم عن الجدار الملصق عليه بطاقات بريديّة من جميع أنحاء العالم، وصور الفرق الموسيقية التي عزفت هناك قبل أن تقف على مسارح أكبر. تتّسع عينا مونا وتتطاير شرارات في رأسها.

ولهوسها بأسئلة «ماذا إنْ»، تسأل: «ماذا إن اشتهر يوسف والشباب بعد هذا الحفل؟ يالدا، هل فكّرتِ في ما سيحدث لو صار أخوكِ مشهورًا؟ تخيّلي الناس يتزاحمون للاقتراب منه. يحاول المصوّرون التقاط صور له لمعرفة صاحبته الجديدة. يا إلهي. الفيديوهات الغنائية. ثنائي مع بيلي آيليش. قد يتحوّل إلى هاشتاغ!»

تقول أسما ضاحكة: «هل صار هذا هدفًا؟ أن تتحوّل إلى هاشتاغ؟» ثم تقترح عليها: «ربما عليهم العزف في الويرهاوس أولًا، ثم سنرى إلى أين سيقودهم هذا».

أقول لهما: «سيجعلني هذا أعيد التفكير في الأمر كلّه، لا أريد أن أكون شقيقة هاشتاغ». ثم أضيف وأنا أنهض: «حسنًا، أمامنا سبع دقائق فقط لتناول الغداء». أشعر أن عليّ تناول شيئًا قبل الحصّة التالية. سواء أكان هذا قلقًا أم إثارة، تجمّعت الطاقة الغريبة في معدتي، وأرجو أن تهدأ أعصابي ببعض الطعام. لا أعرف كيف ستسير خطّتنا هذه، لكنني واثقة أن ليلتنا هذه في الويرهاوس لن تكون مثل أيّ ليلة في حياتنا.

الفصل الخامس

تقول مونا: «نحن ندمّر كل شيء، في كل مكان، وبطرائق كثيرة جدًا... كيف سيمكنني جمع كل هذا في صفحة واحدة؟»

كتب المعلم البديل الفرض المدرسي على السبورة البيضاء: صِف أثر الإنسان في الموارد الطبيعية. في ثلاثينياته ربما، ويتضح من حماسته في الإمساك بالممحاة أنه حديث العهد في هذا العمل. حين يسمع مونا، يسير نحو مقعدنا.

يسأل بأمل شديد: «هل يوجد سؤال؟» إلى حدٍّ أظنه يعقد أصابعه من خلف ظهره. ثم يضيف: «عذرًا، لا أعرف اسمك بعد. أنتِ...؟»

فأجيبه: «يالدا. ولا، ليس لدي سؤال. أنا بخير».

فيقول: «يال... كيف تتهجّين هذا؟»

أتهجّى أحرف اسمي الخمسة له. يحاول نطق الاسم، لكن ما يخرج به أول مرة يشبه أكثر: ييلداه، ثم يضيف إلى اسمي مقطعًا وسطًا ليقول: ياليدا. تنظر مونا إليه ثم إليَّ. مثلي، يُدهشها صعوبة هذا عليه. أشعر بانزعاج للحظة. يبدو مرتبكًا حقًا، كأن اسمي يعذبه هو، وليس أنا.

تقول مونا بنبرة تعليمية: «كرّر خلفي فحسب: يال. لا، ليس ييل، لا أظنها تقدمت بأوراقها هناك من الأساس. يال. الآن قل: دا. مثل بارت سيمبسون. ثم ضمهما معًا: يالدا. يالدا».

فيقول: «اسم جميل». وأتمنى أن يتركنا نعود إلى كوكبنا البعيد، لكنه يسألني: «هل أنتِ من الشرق الأوسط؟»

لا أحب هذا السؤال حقًا. أغلب الناس يجيبونه بنعم أو لا، لكنه ليس بهذه السهولة بالنسبة إلينا. قد يكون دين الأفغان هو الدين نفسه السائد في الشرق الأوسط، وقد نتشارك بعض الأطعمة، لكن بلدنا في وسط آسيا. حين أجبتُ بأنني من آسيا مرات من قبل، نظر إلي الناس كأنني لا أفهم سؤالهم. فأجيبه: «كلا، ليس تمامًا».

فيسأل بابتسامة: «إيرانية؟»

فأجيبه: «أسرتي من أفغانستان».

فيقول: «حقًا؟ واو! إنه مكان مثير. هل ذهبتِ إلى هناك من قبل؟»

أهز رأسي نفيًا.

فيقول بابتسامة: «نعم، ربما لا يجوز لك الذهاب إلى هناك».

لست بحاجة إلى إخباره أن والديّ حلما باصطحابنا إلى هناك في زيارة يومًا ما، لكن حين انسحبت الولايات المتحدة من هناك وتركت المجال لعودة طالبان إلى البلد، صار ذلك خارج خططنا تمامًا.

تهمهم مونا: «همممم».

أعرف أنها مستمتعة جدًا بهذا.

فيقول وهو يرفع إبهاميه إلى الأعلى: «حسنًا، مرحبًا بكِ».

فأجيبه: «مرحبًا بك أنت أيضًا»، وأريه أنني أيضًا لدي إبهامان. يبتسم كأننا تصافحنا باليد كاتفاق على حفظ سر، ويعود إلى مكتبه في مقدمة الحجرة.

تميل مونا إلى الأمام، فألكزها قائلة: «أعرف، كأنني لم أُولد هنا. أو أنه ليس عامي الدراسي الرابع في هذه المدرسة، وأول يوم له هو».

فتقول: «بالضبط».

بعد الحصة، أرى نهال في الرواق. آمل ألا تقابله في فصل ما. إنْ كان قد منحني، أنا التي وُلدت هنا، إبهاميه، فقد يؤدي لها هي رقصة حديثة ليسمع قصتها.

بعد اليوم الدراسي، أستقل الباص إلى المطعم لمساعدة أبي لعدة ساعات. المساء مزدحم أكثر من المتوقع ليوم ثلاثاء، وأخشى أن يطلب مني والدي مساعدته مجددًا مساء الجمعة، وقت حفل يوسف في الويرهاوس.

حين يوقف أبي سيارته في الجراج، نكون منهكَين تمامًا. نجد أمي هناك، تلقي بمرطبانات فارغة في القمامة.

تسألنا: «هل أحضرتما العلب يا شباب؟»

كنا ننوي. كنا ننوي ذلك حقًا. ينظر إليّ أبي يطلب مني المساعدة.

تقول أمي: «يالدا؟» وتنظر في خلفية السيارة، ثم تنظر إلينا بإحباط شديد، وتضيف: «أنا لا أصدّق هذا».

كان بإمكاننا أن نوضح لها أننا تلقينا في اللحظات الأخيرة طلبًا لاثني عشر فردًا، وكان على أبي أن يرفضه لأننا كنا سنُغلق خلال ربع ساعة، لكننا لم نكن مشغولين لحد رفاهية رفض الطلبات. وبالطبع، فيما كنت أملأ صواني الألومنيوم بالأرز، وقطع الدجاج والباذنجان المقلي، أدركتُ أننا لا نملك زبادي بما يكفي للصلصة

التي نشتهر بها، لذلك ركضتُ إلى دكان البقالة القريب واشتريتُ عبوة قبل مجيء الزبائن لاستلام طلبهم.

لذلك تأخرنا في الإغلاق، ونسينا نحن الاثنان طلب أمي للعلب. أستعد جيدًا لنوبة التأنيب.

ظلَّت نوباتُ تأنيبها أدواتِ تحفيزٍ فعّالة دائمًا، لكنها اكتسبتْ قوةً تقرب من قوى الطبيعة عندما عادت طالبان لحكم بلد والديّ. كانت نهايةَ صيفٍ هادئ، بلا إجازةٍ أُسرية، إذ لم يكن لدينا مساعدون يمكنهم العمل بدلًا منا، ولو لأيامٍ قليلة حتى. شاهدنا صورًا ومقاطعَ فيديو تطايرتْ من هاتفٍ إلى آخر عبر تطبيقات التواصل، لآلافٍ من الأفغان يناضلون للوصول إلى مطار كابول. كُتَلٌ بشريةٌ عشوائية في طائراتٍ عسكريةٍ ضخمةٍ بلا مقاعد. أشخاصٌ يخوضون مياهَ الصرفِ الصحي، بالوحلِ يصل إلى رُكَبهم، وهم يحملون أطفالًا. رجالٌ مشعَّثون يحملون بنادقَ على أكتافهم، يقودون شاحناتٍ في شوارعَ مهجورة. لم أستطع تخيُّل حالِ من يرحلون من بلدهم بحقيبةِ ظهرٍ واحدة، إلى بلدٍ آخر جديدٍ تمامًا. كنتُ أجد والديّ يحدّقان في هاتفيهما، أحيانًا لا يلاحظان دخولي الغرفة أو خروجي منها. نظرتُ مرةً من أعلى كتفِ أبي إلى ما يشاهده، فرأيتُ امرأةً تمرر رضيعها من أعلى سورٍ عالٍ إلى يدي جنديٍّ أمريكيّ. وذات مرةٍ، لاحظتُ خروجَ أبي من غرفة المعيشة؛ ليشاهد مقطعَ فيديو لجرحى من ضحايا تفجيراتٍ في المطار، لا يريدني أن أشاهده. ولم يعلم أنني شاهدته بالفعل على هاتف أمي. كان الناس يفرّون من الموتِ حقًّا.

بعد أسابيع قليلة، كان بعضُ هؤلاء أنفسِهم على الأرض الأمريكية -مثل نهال.

قالت أمي ذات مرة: «هذه قصّتُنا نفسها، لكننا حين قدِمنا لم يساعدْنا أحد. الوضع مختلفٌ هذه المرة».

بدأت اتصالاتِها لتعرف أين يمكنها تقديمُ المساعدة. ترجمتُ للقليلِ منهم عبر الهاتف. وكانت أحيانًا تُنهي المكالماتِ بعينين حمراوين. وفعل أبي مثلها. عندما أحضروا اللاجئين إلى قواعدَ عسكريةٍ، بعضها على مسافةِ قيادةِ ساعةٍ من منزلنا، جمعتْ ملابسَ وأمتعةً مستخدَمة، وذهبنا بالسيارة لتسليمها إلى القاعدة. حين وصلنا إلى هناك، لم أرَ سوى خزانِ مياهٍ بطلاءٍ أحمرَ وأبيضَ يلوح في السماء. لم ندخل القاعدة، بل قابلنا خارجَها شخصانِ بزيٍّ رسمي، وآخرون بأشرطةٍ شبه رسميةٍ حول أعناقهم. تساءلتُ كيف قد يكون العيشُ في قاعدةٍ عسكرية. أخبرتنا أمي أنهم كانوا منزعجين. توجد شائعاتٌ بأن اللاجئين قد هرّبوا معهم أسلحةً وتسببوا في حدوثِ عجزٍ في الحفاضاتِ في البلدة. فيما بعد، بحثتُ على جوجل عن اسم القاعدة، وقرأتُ أن السكانَ المقيمين بالقرب منها شعروا بأن الحكومة تكذب عليهم بخصوص كل ما يحدث في القاعدة. على الجانب الآخر، بدأت كنائسُ ومعابدُ هندية ويهودية ومجموعاتٌ أهليةٌ أخرى تقديم المساعدة.

بعد ذلك بعدة أشهر، سمعنا أن الأسرَ الأفغانية سيتم تسكينُها في شققٍ في بلدتنا، فبدأت أمي العملَ حقًا. انضمّت إلى مجموعةٍ خيريةٍ محليةٍ بقيادة معلمةٍ متقاعدةٍ اسمها ليندا، فغمرَتْ بيتنا طاقةٌ من نوعٍ جديد. ذهبتُ أنا ويوسفُ معها إلى مبنًى سكنيٍّ

حيث يتم تسكينُ أفغانٍ كثيرين. حملنا قطعَ الأثاثِ إلى المصعد، ثم إلى الطابق الرابع. مررنا في الرواق بأُسَرٍ أخرى انتقلتْ مؤخرًا إلى البناية. حين حيّتْهم أمي، دعانا كلهم تقريبًا للدخول لشرب كوبِ شاي، مع أنهم من المحتمل ألا يكون لديهم أكوابٌ بعد. اعتذرتْ أمي، وشاهدتُ أنا ويوسفُ أشدَّ المجاملاتِ كرمًا على الإطلاق.

داخل الشقة، فرشنا الأسرة، ووضعنا الطاولاتِ الصغيرة والمقاعدَ غير المتطابقة في غرفة المعيشة، وجمّعنا مكتبًا. ملأتْ ليندا البراد من كيسِ البقالة، ورتبتْ مرطباناتِ البهارات في خزينةِ المطبخِ الخالية.

أخبرتني أمي أن الشقةَ سيسكنها أمٌّ عزياء وأطفالُها الثلاثة، واحدةٌ منهم في سني تقريبًا. سوّيتُ لها فراشَها بلحافي الأزرقِ القديم، ذي الحواف المطرَّزة بنجوم. لا يعدُّ أطفالي، لكنني طلبتُ واحدًا جديدًا العامَ الماضي وحظيتُ به بالفعل. علّقتُ عددًا من ستراتي في خزانةِ الملابسِ أيضًا، ووضعتُ فرشاةَ شعرٍ جديدة ومجموعةً من أربطةِ الشعر على التسريحة. وضعنا في الحمّام معجونَ الأسنان، وغسولَ شعر، وغسولَ استحمام، وعبوةَ فوطٍ صحية. لم أعرفْ أن نهال ستقيم في هذه الغرفة، سترتدي هذه السترات، وتتغطّى باللحافِ ذي النجوم. انتابني شعورٌ غريب حين رأيتُها في المدرسة ترتدي كنزتي المرسوم عليها صبّار، كأنني اقتحمتُ عالمَها الخاص.

مرة أخرى، حقيبةُ سيارةِ أمي مليئة بملابس، جديدة ومستخدمة، بما في ذلك ملابس داخلية للرضّع، وحذاء فتاة

برقبة عالية، وسترات حرَمية، ومعطف صوفٍ رجالي. حين تنعطف بالسيارة، تقعقع الأواني والطاساتُ التي كانت ستنزلق في جميع الأنحاء لولا دلاءُ مسحوقِ الغسيلِ الكبيرة.

أقول لأمي: «أنا آسفةٌ يا أمي»، وأستعدُّ للشرح المفصَّل، لكنها توقفني قائلة: «لا بأسَ يا يالدا، لا بدَّ أنك كنتِ مشغولة، سأحضرها بنفسي غدًا حين أذهب. سأُرسل للينـدا لأتأكّد أن الأسرةَ لن تصلَ حتى الأسبوعِ القادم».

ذلك الشعور في معدتي هو ضميري ينكمشُ بخجل.

يقول أبي: «يمكنني العودةُ بالسيارة لإحضارها»، ويقترب من السيارة ليؤكد رغبته.

فتقول أمي: «لا، لا»، وتشير لنا لندخلَ البيت، وتضيف: «الجوُّ بارد. هيا ادخلا كي نُغلق الباب».

بعد أن أفسدنا الأمر بما يكفي، نسرع أنا وأبي في الدخول. يُغلق أبي بابَ الجراج، ونخلع معطفينا. أضع يدي على مقبضِ بابِ غرفتي، أتوق لارتداء منامتي الصوفيةِ الناعمة، فيُطلُّ يوسفُ برأسه من باب غرفته.

يهمس قائلًا: «مرحبًا»، ثم ينظر في الرواق ليتأكد من خُلُوّه، ويضيف: «أريد أن أتحدثَ إليكِ».

فأقول: «هل يجب أن أقلق؟»

فيجيبني: «لا، حقًّا، يجب أن تبقي هادئة».

بقدر ما أحب مذاقَ طعامنا، لا أحب أن تعلقَ رائحةُ الكمون والثوم والبصلِ بملابسي وشعري. أُشير برأسي نحو باب غرفته؛ لأخبره بأن نتحدثَ في غرفته، وأُلقي بحقيبتي على فراشي.

الأفضل أن يُسرع في هذا ليمكنني الاستحمام، لأن رائحتي كأحد أصنافنا.

أُلقي بنفسي على كرسيٍّ مكتبه وأسند ظهري.

في كلٍّ من غرفتينا نافذةٌ تطل على الفناء الأمامي، لكن في غرفته نافذةً إضافية على جانبٍ آخر من المنزل. تأتي ميزةُ دخولِ مزيدٍ من ضوء النهار إلى غرفته بعيبٍ أيضًا -لدى الأسرة المجاورة طفلان صغيران يستخدمان منظارَهما المقرَّب للنظر إلى غرفته.

أسأله : «ما الأمر؟»

فيُجيبني قائلًا: «بخصوص العرض، هل قررتِ؟ هل ستذهبين أم لا؟»

يجلس على حافة فراشه ومرفقاه على ركبتيه.

أُجيبه وأنا أُومئ برأسي: «الحقيقة أننا سنذهب مجموعةً من المدرسة، أنا ومونا وأَسما وكيث».

فيقول: «حقًّا؟»، ويميل برأسه مدهوشًا. أستعدّ للأسئلة عن ذهاب كيث، لكنه يومئ برأسه فحسب. لن أُخبره بأن كيث هو من اقترح ذهابَنا معًا، لأنني لا أريد استفزازَه لي بشأن هذا. لكنه يُضيف: «هذا رائع، لم نَعزفْ لجمهورٍ كبيرٍ كهذا من قبل، لكننا تمرّنا كثيرًا. سنكون جيدين».

أُميّز في صوته يوسفَ الصغير، الذي كان يطلب مني الذهابَ معه إلى الحمّام وهو يغسل أسنانَه قبل النوم، لأنه يرى ستارةَ الدُّش تتحرك وهو وحده.

أسأله: «هل أنت متأكد من أن هذا يسعدك؟ أن يذهب أشخاص كثيرون؟»

فيجيبني بثقة: «نعم بالطبع»

لكنه يتنهد حين أرفع حاجبي. لأننا قضينا أغلب حياتنا يتحدث أحدنا إلى الآخر، يمكننا سماع ما لا يقال بصوت عالٍ.

فيقول: «الأمر أن العزف للغرباء أسهل. إنْ أحبوك فهذا عظيم. وإن لم يحبوك، فلا بأس، لأنك لا تعرفهم، وفي الغالب لن تراهم مجددًا أبدًا، وربما كانوا حمقى. لكن الأمر مختلف مع من تعرفهم، أعني الأصدقاء. فلو قالوا إنك جيد فربما كانوا يجاملون فحسب، ولو قالوا إنك سيئ، فلا بد أنك سيئ حقًا».

يدهشني قوله هذا، لم أتخيل أن توجد ثقوب في درع ثقته بنفسه. فأجيبه قائلة: «أنتم دائمًا جيدون جدًا، وهذا من دون مسرح حقيقي وكل أجهزة الصوت وما شابه»، ثم أضيف: «وبعض الطلبة سيخبرون والديهم أن الحفل في المدرسة وليس في الويرهاوس».

يسألني: «حتى أسما ومونا؟»

فأؤكد قائلة: «نعم، خاصة هما».

تظهر أمي عند باب غرفته وتسأل: «هل كل شيء بخير؟»

يضع يديه خلف رأسه، ويجيبها: «نعم، كنا نتحدث عن ذهابنا معكِ في عطلة هذا الأسبوع لنقل الأشياء للاجئين».

ألاحظ تحوّله إلى وغد لعين حين يود تشتيت انتباه عيني أمي الصقريتين عنه.

أسألها بصدق: «هل يصح دعوتهم بلاجئين؟ لأنها تحمل... ضعفًا ما، أعني، أليس من الأفضل دعوتهم ناجين بدلًا من ضحايا؟»

فيجيبني يوسف: «أنا متأكد أنهم لا يشعرون بأي قوة. وهذا حقيقي، حتى وإن كان ليس جيدًا. إنهم ليسوا أفغانًا أمريكيين» ويرفع إصبعين مثنيتين في كلتا يديه في الهواء ليضع كلمته بين قوسين.

فأضيف: «ليس بعد».

فتقول أمي: «نعم، لا داعي للقلق بشأن المسميات، سواء هذا أو ذاك. الناس يفكرون كثيرًا جدًا. أتعرفان؟ قضت تلك الأسر، قبل قدومها إلى هنا، شهرين في قاعدة عسكرية، وكان الأمريكيون يدعونهم هناك نزلاء».

أقول: «نزلاء! هذا غير منطقي، النزلاء يُفترض بهم العودة إلى بيوتهم».

فتقول أمي وهي ترفع كتفيها: «ربما قصدوا بذلك تذكير الآخرين بمعاملتهم بكرم، لا أعرف المسمى الأفضل أو الأسوأ، وفي جميع الأحوال، هذا ليس المهم. هذه الأسر مثلنا تمامًا، ببساطة. وبعد أربعين سنة من القتال، صارت كلمة أفغاني ولاجئ بمعنى واحد تقريبًا».

تصفعني هذه الحقيقة بقسوة -أن أفغانًا كثيرين جدًّا ظلوا يهاجرون من بلدهم لعقود طويلة جدًّا. يفرّون من العنف، يتركون بيوتهم وأحبّاءهم. أعلم أنه يوجد قاسم مشترك بيني وبين هؤلاء الذين قدموا إلى البلدة. أعرف أنهم يأكلون الطعام نفسه

الذي نقدمه في مطعمنا، وأن بيوتنا جميعًا تتردد فيها الموسيقا والكلمات نفسها.

لكنني، في الوقت نفسه، حياتي مريحة ومستقرة كأمريكية أفغانية... أم أفغانية أمريكية؟ لم أكن لاجئة قط، ولم أر أحدًا من عائلتي في حاجة إلى أن يتبرّع له الآخرون بملابس، لكنني أعرف أن قصة شعبنا كانت دائمًا قصة فقدان. ربما لهذا أبقيت على مسافة بيني وبين نهال -لأنني لا أعرف إن كان القرب منها سيقرّبني من نفسي أم سيبعدني عنها. لا أعرف، هل المزج في هويتي يعني التواصل بين عالمين، أم قد يمحو أحدهما الآخر ويتركني كشيءٍ ما أقلّ من كلٍّ متكامل.

الفصل السادس

أنظر في المرآة وأفكر في تغيير ملابسي مجددًا. ثم أغمغم لنفسي: «أنتِ لست ذاهبة إلى حفل تخرج».

هل لو غيرت ملابسي سيعني هذا أن الليلة مناسبة خاصة؟ وهل تعتبر خاصة لأنني سأذهب إلى الويرهاوس، أم لأنني سأذهب إلى الويرهاوس مع كيث؟ لا أريد أن أرتدي ما أرتديه عادة في أي يوم من الأسبوع، لكنني لا أود أن أبدو مبالغة في التأنق أيضًا.

أنظر في ساعة الهاتف. تحرك يوسف بالفعل. أخذ السيارة ليمكنه نقل بعض معدات الفرقة والاستعداد في الوقت المناسب. أبي وأمي في العمل وقد أخبرتهما أنني ومونا وأسما سنشاهد العرض؛ ما يعتبر حقيقيًا. نحن جميعًا ذاهبون.

لكننا لن نذهب معًا.

ثم هناك الجزء الخاص بمكان الحفل. لم يستفسر والدانا عن أي شيء حين أخبرهما يوسف أنه سيكون في مركز مجتمعي. من المؤسف كيف يستجوبوننا بالتفصيل كصحفي تحقيقات حين لا يوجد شيء مهم حقًا والأسوأ حين لا يسألان عن شيء سوى موعد عودتنا، في الليلة الوحيدة التي نلتف فيها حول القواعد.

في الصف التاسع الدراسي، كان علينا، كفرض في مادة الإنجليزية، تقديم عشرة تعبيرات تلطيفية. تعبيري الحادي عشر الالتفاف حول القواعد.

أقول لنفسي: «لا يجب أن يكون هذا صعبًا جدًا».

أرتدي بنطال جينز فيه قطع، جعل أبي حين رآه يهز رأسه ويتساءل بصوت عالٍ إن كان عليه شراء طاولة قهوة بأرجل غير متوازنة بدلًا من الطاولة السليمة التي لدينا الآن. أختار كنزة وردية فاتحة في الغالب (بل بالتأكيد) انكمشت في المجفف. بعد ربط حذائي ذي الرقبة العالية، أرسم على جفنيّ خطًّا رفيعًا من الكحل السائل وأقف أمام مرآتي الطويلة.

تلفني الكنزة جيدًا مثل عناق أمي. أشدها وأتحرك لأرى نفسي من جانبيّ. إما أنني أبدو سخيفة وإمّا لست سخيفة.

أعود إلى خزانة ملابسي وأبدأ البحث بين الشماعات، أدعو الله أن تكون الكنزة الأفضل مختبئة في مكان ما بين القطع التي أندم حاليًا على شرائها. يرن هاتفي، رسالة من كيث، لم أسجل رقمه بعد في قائمة اتصالاتي لأنني لا أريد أن ينظر أحد إلى هاتفي من أعلى كتفي ويرى اسمه.

[مستعدة خلال خمس دقائق... اتفقنا؟]

في اللحظة التي أرسل فيها الإبهام المرفوع لأعلن أن كل شيء على ما يرام، ينهار حامل الشماعات في الخزانة وتسقط كل ملابسي في كومة ضخمة على الأرض. تبدو كأنقاض زلزال. سيتطلب البحث عن أي قطعة أخرى الزحف على الأرض، لذلك آخذ نفسًا عميقًا وأغلق الخزانة. أقرر أنه بإمكاني دائمًا ارتداء معطفي.

ولإحساسي، في جوف معدتي، بأن شيئًا ما خطأ سيحدث، أتأكد قبل خروجي من أن الموقد مطفأ والنوافذ مغلقة. اِنخفضت درجة الحرارة فأدس يدي في جيبي وأرجو ألا يسيل

أنفي في أثناء سيري في الشارع. تشتري لي أمي أكياس المناديل الصغيرة كثيرًا، لكنني أنسى دائمًا أن أحمل واحدًا، لذلك ينتهي بي الأمر بسرقة مناديل من أقرب حمام، وهذا ما لا ينقصني الليلة بالتأكيد.

يقف كيث أمام بيته في الخارج، مع شقيقه داني وأمه. تعدّل أمه معطف أخيه، كأنه الأصغر من كيث ولا يكبره بعقد تقريبًا. خدم داني في أفغانستان، وعاد إلى الوطن بجرحٍ في ساقه منذ عدة سنوات. انتقل للعيش مع أسرته، وظل يقوم بكل أنواع المهام الغريبة، مثل توصيل الوجبات وطلاء المنازل.

يلوح لي كيث فألوح له وأنا أبتسم كأنني سعيدة بوقوف أسرته كلها معه في الخارج. تخبرني مونا وأسما دائمًا أن وجهي يكشف أفكاري.

يقول حين أقترب بما يكفي: «مرحبًا».

أجيبه وأنا أنظر إلى أمه وأخيه: «أهلًا». ابتسامة أمه بشفتين مزموتين، مثل ابتسامة أمي التي قد تمنحها لشخص ما يقف عند شرفتنا الأمامية ليخبرنا أننا في حاجة إلى سقف جديد.

تقول لي: «يجب أن تكون هذه ليلة مرحة، سيذهب كثير من الطلبة كما سمعت؟»

فأجيبها قائلة: «نعم، أصحابي، ومجموعة كبيرة أخرى».

فتقول: «هذا جيد. أصحاب كثيرون للخروج معهم»، وتبدو سعيدة بشكل غريب.

هل تقول إن علينا الخروج مع آخرين؟ أشعر بإحراج فجأة، كأنني ألاحق كيث وهي تحاول إبعادي عنه.

يعض كيث شفته وينظر إلى داني.

فيقول داني: «لنتحرك»، ويشير برأسه نحو السيارة. يوضح كيث لي قائلًا: «سيأتي أخي معنا، أراد دائمًا أن ينضم إلى فرقة موسيقية في المدرسة العليا، لكن أمي تبرعت بعدة طبوله بعد ثلاثة أشهر من عامه الأول في الكلية.

تقول والدته وهي تعود إلى منزلهم: «كان عليه الاختيار بين الطبول وبيني». فيتبادل كيث وداني نظرة ذات مغزى.

أشعر بالليلة تتبدّل من حولي، وتحولني إلى مشاهدة. ربما كانت فكرة سيئة.

يقول كيث كأنه سمع أفكاري: «هذا أفضل من السير في الطقس البارد».

أوافقه قائلة: «نعم. أقصد، هذا جيد. والبرد شديد الليلة بالفعل».

يدير داني المحرك. أقعد في المقعد الخلفي وأدعو اللّه ألا تتصل بي أمي الآن. سأحذف هذا الجزء فيما بعد، حين ستسألني عن كيف سارت الليلة. حذف حميد. ليس أمامي خيار آخر. سنصل خلال دقائق في جميع الأحوال.

يفتح كيث الباب الخلفي على الجانب الآخر من السيارة. يلتفت أخوه في مقعده وينظر إليه بحدة، ويسأله بضحكة: «وماذا أكون إذن؟ سائق الأوبر؟»

يجيبه كيث وهو يخرج من المقعد الخلفي: «يا أخي، ليتني معي نقود الأوبر».

يجيبه داني ساخرًا وهو يربط حزام الأمان: «ابحث عن عمل».

يجلس كيث في المقعد المجاور لداني، يقعد على جانبه تقريبًا ليمكنه النظر من أعلى مسند الرأس إليَّ. يسألني: «هل أنت بخير؟»

فأجيبه بحماس مبالغ فيه قليلًا: «رائع!»

يعود داني بالسيارة إلى الخلف ليخرج من ممشى السيارات. صوت الراديو منخفض لكنني أميز صوت المغنية الرفيع، وهي تكرر عرضها بأن تفعل أشياء متوحشة طوال الليل. يسعدني أنني في المقعد الخلفي حيث لا يلاحظ أحد احمرار وجهي.

يقول داني وهو يطفئ الراديو بحركة سريعة: «لقد سئمت هذه الموسيقا المعلبة». ثم يستقر في مقعده. «هل تتذكر الحفل الذي ذهبنا إليه على شاطئ فيرجينيا ذاك الصيف يا كيث؟ أقنعت أمي وأبي بالسماح لك بالذهاب معي. ظني أنك كنت أصغر طفل هناك».

«كيف أنسى! لقد أخبرني ثلاثة أشخاص أنه من الرائع أن يصطحبني أبي معه».

«ليس لأنني بدوت كبيرًا في السن، بل لأن وجهك طفوليّ. بدا أن على وضعك في مقعد سلامة في أثناء القيادة».

مع أنني كنت مجرد مستمعة، لكنني أحببت رؤية كيث وأخيه يلعبان اللعبة نفسها التي أرى والديّ يلعبانها مع إخوتهما. نلعبها أنا ويوسف أيضًا. تبدأ باسم شخص، أو أغنية، أو عطلة، ثم نقفز من ذكرى إلى أخرى، حسب المربعات الزمنية. كلما مررنا ببركة ماء، لا بد أن يتذكر والداي حين كنت أنا ويوسف صغيرين وخطفت إوزة البسكويت من أيدينا.

لكن كيث يحاول إشراكي في الحديث، فيقول بتأنيب: «لا داعي لإضجار يالدا بذكرياتك غير الدقيقة».

يبتسم داني وينظر إليّ سريعًا في المرآة.

«إن عائلتك من أفغانستان يا يالدا، صحيح؟»

أجيب: «نعم»، وأنتظر السؤال التالي. في العادة هذا ما يبدأ به الآخرون الحديث ثم يعقبون بأسفهم الشديد لعودة طالبان إلى الحكم. خدم داني في أفغانستان، لذلك أثق بعلمه مدى سوء الأمور هناك. لن ألومه على كرهه الأفغان جميعًا، حتى وإن كنا ليس لنا أي شأن بإرساله إلى هناك. مع ذلك، ربما كان يفكر في اللاجئين الذين قدموا إلى بلدتنا.

لكنه لا يتحدث، وكذلك لا يبطئ السيارة حين يرى إشارة التوقف، فيميل سائق سيارة دفع رباعي رمادية بقوة على بوقه وهو يتفادانا. يضغط داني المكابح فجأة فأندفع بقوة إلى الأمام وأكاد أقفز لولا حزام الأمان.

يتوقف سائق السيارة الرمادية على الجانب الآخر من التقاطع، وينزل زجاج نافذته ويصيح بشيء ما، لكن رأسي لم يعد إلى حالة توازنه بعد. يرتفع كيث قليلًا عن مقعده ليتفقدني.

يسألني: «هل أنت بخير؟»

فأجيبه: «غالبًا».

يغمغم داني وهو يخرج من التقاطع ببطء: «خراء... يبدو أنه كان يسير بسرعة خمسين على الأقل».

نبضي أسرع بثلاثة أضعاف.

أريد أن أقول له إن عليه القيادة بسرعة صفر عند إشارة التوقف، لكنني أرى التوتر في فكيه، ولا أظنه سيرحب بتعليقي.

يسأله كيث: «هل أنت بخير يا داني؟»

يجيبه وهو يتململ في مقعده كأنه يعيد ضبط وضعه: «نعم، الجحيم، نعم». يعاود التركيز في القيادة. أعاود التنفس، ممتنة لأن الأمر لم ينتهِ بحادث كي لا أضطر إلى التوضيح لوالدي سبب وجودي في السيارة أولًا.

يسود الصمت. لا يكسره سوى تنحنح داني من حين إلى آخر ورنين هواتفنا بالرسائل. فيض رسائل مونا لا ينقطع، ترسل بسرعة رسالة إلى كل ثلاثين ثانية.

تكتب قائلة:

[هل تريدين وصفًا للطريق؟]

أجيبها بوجه ينظر بعينيه جانبًا:

وأضيف: [كدت أصل].

مكتبة
t.me/soramnqraa

يعلق داني وهو يصف السيارة في ساحة انتظار سيارة يضيئها ثلاثة أعمدة إنارة طويلة: «هذا ثقب حقيقي في الجدار». بجوارها مباشرة بار اسمه سيدارز. واجهته جدارية باهتة لما أظنه أشجار أرز، لن أتعرف عليها لو وقع فرع منها على رأسي. يقف شخصان خارجه، أحدهما يتحدث في هاتفه والآخر يحمل زجاجة بيرة رفيعة.

يصفّ داني السيارة في موقع قريب من مدخل الويرهاوس ويغلق قفلها. نعبر الساحة، أيدينا في جيوبنا وأكتافنا محنية

في الهواء البارد. نسمع أحدهم يضبط نغمات جيتار. أتوقع أن يرفض أحدهم دخولي عند الباب، لكن لا يبدو أن أي أحد يلاحظ دخولنا من الباب المزدوج. الإضاءة خفيفة في الداخل، بأضواء في السقف موجهة إلى المسرح في الغالب. على الجدران ملصقات لموسيقيين، وطاولات قليلة عالية السطح في مؤخرة القاعة بكراسي طويلة وعدد قليل من الدكك في محيط القاعة.

المكان يشبه اسمه بالفعل، كأنه ورشة خالية قابلة للتحول إلى مسرح عرض لأنهم يبقونها مظلمة كي لا يرى الناس السائل اللزج على الأرض. تلقي ثلاثة كشافات بضوءها على المسرح الخالي سوى من عدة طبول.

يخلع كيث معطفه، ورغم البرودة، أفعل مثله، وأعلقه على مرفقي. لا يبدو أن أحدًا يلاحظ ملابسي، ما يريحني ويحبطني قليلًا أيضًا. تنتابني قشعريرة صغيرة. لا يوجد في القاعة أشخاص كثيرون لتدفئة المكان ويظل الباب ينفتح فيما يدخل الناس ويخرجون.

تناديني مونا من أقصى الغرفة: «يالدا!» تقف وتلوح لي. تقعد أسما على الدكة خلفها، ترتدي معطفها وعلى وجهها ابتسامة غير مرتاحة.

تنصب عيناهما عليّ مثل الليزر الساخن وأنا أقف مع كيث وداني. منذ أن أخبرتهما أنني سآتي مع كيث، تتصرف مونا كأنها في الصف الثالث الدراسي. تغمغم وتغمز، وسألتني مرة عن مدى جديتنا على مقياس من واحد وحتى ياسمين وعلاء الدين. أرجو أن تستعيد بعض صوابها سريعًا. أسما على الجانب الآخر قالت

إن كيث يبدو فتى جيدًا وإنها تتمنى أن نقضي معًا وقتًا ممتعًا. شعرت بأنها تريد قول المزيد لكنها سكتت فلم أضغط عليها -ربما لأنني لم أرغب في سماع تحذيرات.

يسألني كيث، بعد أن لاحظ ذراع مونا يلوح في الهواء كأنها تنظم المرور: «أظنّ أنني رأيت صديقتيكِ، أتريدين الذهاب إليهما؟»

ما زالت ترتدي سترتها القرمزية المنتفخة. لا أعرف إن كان يعني بسؤاله أن نفترق هنا. لا أريد أن أفترض كثيرًا. بل الأفضل ألا أفترض شيئًا إطلاقًا.

أجيبه: «ليس عليّ ذلك، إلا إذا أردت؟»

ينظر إلى داني، الذي يقف خلفنا بخطوات قليلة. يده في جيبه والأخرى يمسك بها هاتفه الذي ينير وجهه وحاجبيه المنعقدين. أقول لكيث: «أظن أنني لست متأكدة إن كنا قد جئنا إلى هنا معًا أم لنشاهد العرض... معًا».

يسألني وهو يميل برأسه فيتدلى شعره بعيدًا عن عينيه: «كموعد؟»

فأجيبه بسرعة أكثر من اللازم ربما: «لا، ليس هذا ما أعنيه».

يطلق تنهيدة طويلة ويقول: «سأخبرك بالأمر»، وأفكر أنني لو كنت صدمت رأسي حين توقفت السيارة فجأة في التقاطع لكان ذلك أفضل لي. أشعر بحرارة وجهي تكفي لإذابة قلم ألوان شمع. أعود بذاكرتي فورًا إلى كل محادثاتنا فيتضح لي كل شيء الآن. البطيخ في الشتاء، نظرة أسما المؤنبة، ورائحة الكمون في بنطالي الجينز الأسود -أنا محط فضول وليس إعجاب.

الفصل السابع

يقول كيث بنظرة تنم عن صراعه الداخلي: «لم أعرف أن أخي سيأتي معي.. ربما يمكننا قضاء وقتٍ معًا في وقت آخر... من دون الجميع. كذلك، بعيدًا عن أخي، أنا قلق بشدة من مونا».

أتتبع نظرته وأكاد أموت وأنا أرى مونا تحدق إلينا.

أقول: «يا إلهي».

ترفع مونا كتفيها وتهز رأسها بحركة تعني «لا يهم». تشدّها أسما، نموذج الرقة، من كم سترتها، لكنها بالكاد تلاحظها.

يقول كيث: «لذلك، فإن وقتًا آخر ربما، ما رأيك؟» في تلك اللحظة الحرجة ودون سابق إنذار، يضغط أحد ما على زر ما فتنطلق أغنية روك من سماعتين كبيرتين في مؤخرة القاعة. أشعر بالاهتزازات في نعلي حذائي.

أوافقه قائلة: «نعم، تبدو فكرة جيدة جدًّا».

يسألني: «ماذا؟» لأنه صار من الصعب أن يسمع أحد أي شيء الآن بعد تشغيل الموسيقا.

أقول وأمنحه الإشارة الحمقاء للإبهام المرفوع: «فكرة جيدة».

أشعر بإحباط وارتياح معًا. ربما كانت هذه الليلة رسالة من الكون. ربما مر كيث بلحظة إعادة تفكير وقرر إعفاءنا نحن الاثنين من أي تشتيت في النصف الثاني من عامنا الدراسي الأخير.

يعض شفته لكنه لا يقول شيئًا آخر. يشير برأسه لأخيه قبل أن نفترق. يعود إلى داني وأعبر أنا القاعة نحو صديقتيّ. حين

أصل إلى الدكة، تنظر إليّ مونا بعينيها المكحلتين. ظلت تجرب كحل أمها السائل مؤخرًا وصارت ماهرة حقًا في رسم عينيها دون تلطيخ.

تقول: «مخاوف!»

تطرف عيناي. هل أنا شفافة إلى هذه الدرجة؟

تكرر وهي تضيف طرقعة بإصبعيها كمؤثر صوتي: «تبدين قوية!»، فترتخي كتفاي ارتياحًا. تتلاعب الكلمات برأسي هذه الأيام. تضيف مونا: «لا التزام بشيء هذه الليلة، كما أرى. ألن يجلس معنا؟ لقد أبعدت خمسة أشخاص على الأقل ليمكنكما الجلوس معنا».

تقول أسما وهي تهز رأسها: «لقد قالت لهذين الشخصين هناك أن صديقتنا في الحمام. سيظن الناس أن لديك حالة تسمم أو شيئًا ما كهذا».

دائمًا ما تهتم أسما بما سيظنه الناس. يشغلها هذا خاصة لأن والديها لم يعنِهما كيف سينطق الناس اسمها. في حين يعني اسمها الفائقة أو الجميلة، يشوهه النطق الخاطئ للبعض، ليعني مرضًا تنفسيًا في حاجة إلى علاج طارئ. أو يضعون كل طاقتهم في أول حرفين ليحولونه إلى مرمى نكات معروف.

أجيبها قائلة: «سيقعد مع أخيه»، وأتساءل إن كان ينظر إليّ. أعود بظهري إلى الخلف وأنقل شعري إلى إحدى كتفيّ لأبدو طبيعية ولا أتميز غيظًا من محادثتنا الأخيرة. وأضيف: «ليس مهمًا».

تهـدأ عينـا مونـا بتعاطـف. تعـرف أن «ليـس مهمًـا» التـي قلتهـا تعنـي أنـه أمـر مهـم جـدًا. ينخفـض صوتهـا لوطـأة الموقـف.

«نعم، أحضر أخاه أيضًا. أي أنه لم يكن...».

أقـول مـرددة كلماتـه: «لا. لـم يكـن الأمـر كذلـك. لـم يتوقـع أن يأتـي أخـوه معنـا، وقـال إن علينـا أنـه فـي وقـت آخـر ربمـا... مـن دون الجميـع».

فتقـول مؤكـدة: «أي إنـه يريـد أن تخرجـا معًـا وحدكمـا». لمـاذا تبـدو نسـختها مختلفـة جدًا؟ لكننـي حيـن أفكـر أجـد أن هـذا مـا قالـه كيـث، فأشـعر فجـأة بفوضـى فـي داخلـي، بـركان.

تقول: «يا إلهي. وماذا قلتِ له؟»

«قلت له بالتأكيد».

فتقـول بمـرح: «بالطبـع، كل مـا عليـك فعلـه الآن هـو المواصلـة دون أن يجـن جنـون والديـك. فـي الواقـع، والـداك رائعـان وفـي الغالـب لـن يحـدث هـذا».

تقـول أسـما ثـم تهـز رأسـها: «والـداك رائعـان... والـداي ليسـا كذلـك، لكـن هـذا فـي الغالـب لأن جدتـي خاطبـة أسـطورية، وجميـع الزيجـات مـن المفتـرض أن تكـون ملعونـة لـو لـم تخترهـا بنفسـها».

أقـول مشـمئزة مـن ذكـر الـزواج والخاطبـة: «نحـن سـنخرج معًـا فحسـب».

كيـف وصـل الأمـر إلـى هـذا الحـد حتـى؟ يسـعدني بشـدة أن كيـث لا يسـمعنا الآن. أردف قائلـة: «الخـروج معًـا ليـس مهمًـا. ليـس شـيئًا جـادًا».

لم يمنعني والداي من المواعدة صراحة من قبل. لأن هذا سيضطرهما إلى وضع كلمة مواعدة وفتيان على مقربة غير مقبولة من اسمي، وظني أنهما يخشيان طرح الأمر.

تجد أمي -التي يبدو أنها المفوضة للتحدث إلينا في الموضوعات الشائكة- طرائق غير مباشرة للتحدث عن المواعدة. بعض محادثاتها يبدو أنها تجريها معي أنا فحسب. كأن تهز رأسها ونحن نشاهد فيلمًا، وتقول إنه من المستحيل على الشباب أن يروا الفتيات كصديقات فحسب. وقد تلقي بتعليق يبدو طبيعيًا ظاهريًا عن تلك الفتاة المهووسة بالصبيان التي أهملت دراستها، وسوف تعمل بائعة حليّ في مركز تسوق وتأكل طعامًا من الشارع لبقية حياتها لأنها لم تسمع كلام والديها. حتى تلك التعليقات البعيدة عن مسألة العلاقات يبدو أنها تسبب لأبي نوبات حموضة حادة. يتظاهر أنه سمع هاتفه يرن في الغرفة المجاورة أو يشعر بحاجة طارئة إلى إحضار مزيد من ورق التواليت من الجراج.

لكن الأمر لا يقتصر على أن المواعدة ستدمر مستقبلي المهني أو ستحرمني من طبق سلطة جيد. أتذكر حين حذرتنا خالتي الكبرى من المواعدة بسبب مجموعة مختلفة من العواقب لا يمكن ذكرها لفظاعتها.

يرى الصبيان الفتيات ويخرجون يومًا مع واحدة ويومًا مع أخرى. كأنهن أشياء رخيصة. لا أحد يقول شيئًا للصبيان. لكن للفتيات، انسين، يقولون عنها القيل والقال. وعمومًا فهذا الوقت للتركيز في الدراسة، وكل شيء آخر سيأتي في حينه.

هذا هو ملخص ما يقال في عائلتنا عن المواعدة والعلاقات، لو كان هذا اختبارًا في مادة الإنجليزية، لأرسبت الآنسة دورشيه أمي وخالتي لنقص التفاصيل، وانعدام الاقتباسات والمصادر، وفرط استخدام المقارنات المبالغ فيها، وضعف المنطق، وفشل في تناول الموضوع.

وسَيُعَد أبي من المتغيبين في هذا الاختبار.

يظهر على المسرح شاب يرتدي بنطال جينز مهترئًا وتيشيرت أسود. يطلق أحد الحضور صياحًا عاليًا فيتبعه آخرون. في الدقائق العشر الأخيرة، زاد الزحام بصورة حالت دون رؤيتي الجانب الآخر من القاعة، ولو بحثت بعيني عن كيث ستلاحظ مونا مدّي عنقي وستغيظني بهذا.

يقول الشاب ضاحكًا: «حسنًا، انظروا من يقف على المسرح الليلة... أنتم هنا يا شباب لمشاهدة العرض أم ماذا؟»

يجيبه الحضور بهتافات. تطلق أسما صياحًا يدهشنا. تصفق مونا بيديها، لأسما أكثر منه للعرض المنتظر.

يقول الشاب: «للمحظوظين منكم الذين لا يعرفونني. أنا جيس، ويسعدني أنكم لم تجدوا الليلة شيئًا أفضل من المجيء إلى هنا». يجيبه الحضور بهتاف. يبتسم لهم، ويستدير ويشير لأحد ما بعيدًا عن المسرح. ثم ينظر إلى ساعة يده، ويقول: «حسنًا، لدينا فقرات رائعة الليلة. ربما سنرى موهبة جديدة ما. من يدري؟ ربما سنسمع الآن فرقة ستصل إلى جدار الشهرة هنا في المستقبل».

يظهر شخص ما على ركن من المسرح ويجثم بجوار السماعة. ينبعث فجأة طنين يثقب الآذان. نغطي آذاننا بأيدينا ونزمجر.

يقول جيس وهو ينظر إليه بتجهم: «يا رجل، تأخر الوقت على اختبار الصوت، أليس كذلك؟» ثم يقول للجمهور: «المعذرة بشأن هذا». يتخذ هيئة أكثر رسمية كمدير، ويضيف: «بجدية إذن رغم ذلك، شكرًا لكم جميعًا على حضوركم الليلة. أنا على استعداد لسماع تلك الفرق وهي تهز المكان هزًّا. ماذا عنكم أنتم؟»

تهليل كبير آخر، وضحك. يقدم جيس الفرقة الأولى. لا أعرفها. المغنية الأولى فيها امرأة لها شعر أشقر كثيف. تنظر إلى الجمهور ثم إلى أعضاء فرقتها، وتقف بجوار قارع الطبول وهي تغني.

كانت آخر مرة وقفت فيها على المسرح في مسرحية حين كنت في الصف الدراسي الرابع. كنت حينها عنكبوتًا. كانت ملابسي بثماني أرجل صنعناها طويلة جدًّا ورخوية. كلما تقدمت خطوة، يضربني في وجهي أحد أطرافي المشعرة؛ ما أسعد المشاهدين بشدة. ربما يحب يوسف المسرح، لكنني أفضل مقعد المشاهد بعيدًا عن الأنظار والأضواء والكاميرات.

تسألني أسما: «هل تعرفين هذه الأغنية؟»فأجيبها وأنا أهز رأسي: «لا».

تومئ مونا برأسها وتقول: «أخي يسمع هذه الموسيقا طوال الوقت، أظن أنها باعثة على الكآبة قليلًا».

تصعد الفرقة الثانية إلى المسرح. يقدم جيس مغنيها الأول، لارسون. أترقب لأحدد إن كنت أعرف الفرقة أم لا، حين تُسلَّط عليهم الأضواء، أجدها أكبر منا بسنوات قليلة.

يقول لارسون: «سنغني الليلة أغاني قديمة». يبدو في أواخر العشرينيات ويرتدي قميصًا خفيفًا بلون الطوب الأحمر على بنطال جينز داكن. يشير برأسه لقارع الطبل ويركز انتباهه على جيتاره الذي يحمله. لا أميز الأغنية حتى يردد الكورس جملته مرارًا بأنه يرفض أن يتحمل هذا . عند هذه النقطة، أجدني أغني معهم حتى. لا أعرف ما المقصود بهذا، لكن لا أحد منا سيتحمله بعد الآن.

أنظر حولي فأرى الآخرين يومئون ويصيحون. رفض عام.

تضحك مونا وتقول: «أعجبتني هذه الأغنية، من يغنيها؟»

تخرج أسما هاتفها وتقول حانقة: «يجب أن أعرف، مرجعيتي الموسيقية ضعيفة جدًّا. تحلم أسما بمجيء اليوم الذي تفوز فيه في جيوباردي[1] لخمسة أيام متتالية على الأقل! لذلك لا تترك سؤالًا يمر من دون إجابة. حتى إنها وضعت موسيقا البرنامج كجرس لهاتفها. ثم تقول: «تويستيد سيستر![2]»، فأقول لها: «ماذا تقولين، من هذه التويستيد سيستر؟»، تبتسم كأنني تحدثت بلغتها.

تقول مونا: «اسم غريب جدًّا، ماذا يعني؟»

تجيبها أسما وهي تنظر في هاتفها: «لو كان على الإنترنت فسأعرف».

في خاتمة الأغنية، يعزف لارسون على جيتاره لثوانٍ قليلة إضافية، ثم يصيح في الجمهور: «يبدو أنكم أنتم أيضًا لن تتحملوا

---

(1) برنامج مسابقات أمريكي منذ عام 1964. (المترجمة)

(2) فرقة ميتال أمريكية من نيو جيرسي تكونت عام 1972. (المترجمة)

هـذا بعـد الآن»، وحيـن يجيبـه الجمهور بصيـاح، يضحـك ويضيـف: «أنـا معكم، لا أريـد مـن يخبرنـي بـأن أحـب الجميـع. لا إهانـة، لكننـي لـن أتحمـل مـن يشـعرون بالإهانـة».

يضحك الجمهور.

فيقول بلهجة آمرة: «لو كنتم معي، قولوا كفى!»

يصيح الجمهور خلفه بضحك قليل: «كفى!».

لا تصيـح أسـما، ولـن تفكـر فـي هـذا حتـى، وأنـا كعادتـي دائمًـا، أتأخـر نصـف ثانيـة عـن أي هتـاف، لكـن مونـا تصيـح بصـوت عـالٍ يكفـي نيابـةً عنـا نحـن الثلاثـة. أرى يوسـف إلـى جانـب المسـرح، خلـف السـتارة. عليهـم الصعـود إلـى المسـرح خـلال خمـس دقائـق، لكـن لارسـون يتشـبث بالأضـواء.

يميـل إلـى مكبـر الصـوت ويقـول: «أظـن أننـي رأيـت واحـدًا مـن هـؤلاء الجميـع فـي محـل البقالـة يحـاول معرفـة كيـف يصنـع قنبلـة مـن رقائـق الـذرة. لـو كنتـم قـد رأيتمـوه قولـوا كفـى!»

يجلجـل صوتـه فـي السـماعات. أجـد صعوبـة فـي تصديـق مـا أسـمعه.

يـردد الجمهـور خلفـه: «كفـى!»، ويلـوح كلٌّ بقبضتـه بحميـة فـي الهـواء. تعـود مونـا بذراعهـا الممـدودة فـي الهـواء إلـى الخلـف وتسـتدير لتنظـر إلـيّ وتصيـح: «مـا هـذا؟» لكـن صوتهـا بمثابـة الهمـس وسـط هتـاف الجمهـور.

أشـعر بخفقـان فـي صـدري وانقبـاض فـي معدتـي. عـرف جسـدي قبلـي أن الليلـة ستسـير بشـكل خاطـئ جـدًا.

الفصل الثامن

تسري في القاعة موجاتُ اعتراضٍ وضحك، وتصفيق واحتجاج، مثل التيارات الدافئة والباردة في المحيط. أعلم أن التوتر يسود البلدة بسبب اللاجئين وإعادة تسكينهم هنا، وقد تسلّلت مشاعر الاستياء تلك إلى مدرستنا أيضًا، لكنني لم أتوقع سماع تلك المرارة على المسرح في الويرهاوس.

أنظر حولي في القاعة، وأشعر فجأة بأنني على كوكبٍ آخر.

مونا وأَسما مذهولتان مثلي. يصيح أحد الواقفين أمام المسرح بشيءٍ ما ويغادر. لا أعرف ماذا قال تحديدًا، لكنه يملك البشرة الزيتونية والشعر الكثيف نفسيهما، لذلك أعرف أننا من مكونات متشابهة.

تغادر الفرقة المسرح، ويعود جيس، ويبدو أكثر ارتباكًا حين يصدر عن مكبر الصوت صريرٌ آخر.

يقول: «نعم، نعم، هل يمكننا الهدوء قليلًا؟ تذكّروا، نحن هنا لسماع الموسيقا. لنترك كل الأمور الأخرى بعيدًا عن هنا. أظنّ أنه حان الوقت لصعود الفرقة التالية»، ويومئ برأسه ليوسف.

أقول: «هذا هو كل شيء، هل هو جاد؟»

وتقول أسما وهي تهز رأسها: «كيف يجرؤ؟ لا يمكنه قول هذا».

فتقول مونا: «من الواضح أنه يمكنه، والجميع سعداء بتجاهل الأمر، هذا الشاب مجرد قطعة من الـ...».

فأقول: «قمامة، مجرد قمامة».

أشعل تعليقه بخصوص البقالة غضبي. رأيت أسرة أفغانية في محل بقالة منذ أيام؛ حمل الأب وطفلاه المراهقان، كلٌّ منهم، كيسَيْ بقالة، وغادروا سيرًا على الأقدام إلى المباني السكنية في نهاية الشارع، ربما. راقبتهم يسيرون مبتعدين، وتساءلت إن كان والدَاي يشبهان هذين الطفلين حين وصلا إلى هنا لأول مرة. فأضيف قائلة: «كان يجب طرده من المسرح».

خطر لي، ما إن قلت هذا، أنني لم أقف لأعترض على ما يقوله وأطالب بطرده من المسرح. لم أعترض وأنا جالسة على الدكة حتى. أين ذهب صوتي؟

قال جيس: دون مزيد من المقدمات، أقدّم لكم الهيبر كامبوس»، ثم غادر خشبة المسرح مسرعًا كأنها تحرق قدميه.

تحرك يوسف وفرقته إلى مواقعهم على المسرح. اتخذ ليام مقعده أمام عدة الطبول، ونقر أحد الصنوج برفق، ثم أمسكه بأصبعيه لإسكاته. أمسك كريستوفر بالمايكروفون، ويوسف بآخر. أوصلا جيتاريهما بنظام الصوت، ونظر يوسف إلى ليام الذي أومأ له برأسه. مال يوسف إلى المايكروفون، وقال: « لنتحدث الآن عن رد فعل صارم. دعوني أخبركم أن العلاج النفسي يأتي بنتائج، وربما على بعضهم تجربته»، فيجيبه الجمهور بضجّة لا يمكنني تفسيرها. يوجد فيها ضحك، بالتأكيد. يواصل يوسف: « في جميع الأحوال، من الرائع العزف لجمهور متحمّس ومستتير مثلكم. لكننا في مزاج آخر. فهل أنتم جاهزون؟»

يصفق الجمهور. يبتسم يوسف ويبدأ النقر على أوتار جيتاره، الذي اشتراه من كريشيندو مقابل راتب عمل لعدة أشهر، وبخصم

خاص للعاملين. يدعهم بيتو، مدير الاستديو، يتمرّنون هناك لأن يوسف وكريس يدربان الأطفال.

يقول يوسف: «هذه الأغنية أصلية»، ثم ينظر إلى عضوي فرقته. أقف وسط الزحام، يساورني القلق بخصوص قرار يوسف عزف أغنية غير مألوفة للجمهور.

يضيف يوسف: «ها هي ذي».

يبدأ اللحن بنغماتٍ متصاعدة، ثم تنزلق هابطة. باهرة، خاصة في القاعة المظلمة. ثم يضيف يوسف صوته. يقف كريستوفر أمام المايكروفون ليضيف نغماتٍ منسجمة.

تقول أسما، بنبرة لجنة تحكيم موسيقية: «طبقة صوته ذهبية. سيكونون الأفضل الليلة، بلا شك».

وتقول مونا: «ولا أصدق أنه من كتب هذه الأغنية»، ويبدو أنها تود قول المزيد، لكنها لا تريد أن يفوتها شيء من الأغنية.

حرق كيماوي لن تعرفه أبدًا

لا تَبُح بالكثير بسرعة

ينصت إليه كلّ من في القاعة. صوته ليس مكبوحًا ولا مضجرًا، بل هادئٌ أحيانًا، وحماسي أحيانًا، وعذب طوال الوقت. لا أقول هذا لأحد، بالطبع، لأنني لا أريد التفاخر بأخي، ولا أقوله له، لأن غروره لا يحتاج إلى تضخيم.

تحرّك كيث وأخوه إلى مقدّمة الغرفة. وقفا على مسافة أقدام قليلة من المسرح، وتسهُل رؤيتهما لأن حجم داني أكبر من أغلب الموجودين. يميل كيث إليه ليقول له شيئًا، يكوّر يده حول فمه

كقمعٍ حول الصوت، فيومئ له داني برأسه وعيناه على المسرح. ربما شعر كيث بنظرتي، لأنه نظر إليّ وابتسم، وهو يشير إلى المسرح ويرفع لي إبهامه. أومئ برأسي، وأبتسم له، وأعود بانتباهي إلى المسرح.

تقول مونا لتغيظني: «أراه ينظر إليكِ!»

أقول، بصوتٍ محمّل بالتحذير: «مونا!»

فتجيبني: «ماذا؟ إنها مجرد ملحوظة».

أقترح عليها قائلة: «لاحظي شيئًا آخر، من فضلك».

تقول عاجزة عن السكوت: «يبدو أنه يحب أسرتك كلها».

هل هذا صحيح؟ لا أعرف ماذا قصد أخوه حين سألني من أين أسرتي؟

لا أعرف ما رأي أسرته في الساكنين الجدد في البلدة، خاصة مع اعتبار ما مرّ به داني.

تقول أسما بلهجة آمرة: «مونا، انسي هذا».

تنفجر الغرفة بالتصفيق، ونصفّق نحن أيضًا.

تضيف أسما: «هل يمكننا سماع الموسيقا فحسب؟ إنهم في الأغنية الثانية بالفعل».

يرشف يوسف بعض الماء ثم يعود إلى المايكروفون.

يصيح في الجمهور: «هل يمكنكم يا شباب إظهار بعض الحب لصاحبي كريس؟» يغمض كريس عينيه ويداعب أوتار جيتاره الكهربائي. فيضيف يوسف: «وقليل من التقدير لليام!»

يعدل ليام نظارته ذات الإطار الأسود ويقرع طبوله بإيقاع معين ثم يبدأ إيقاع الأغنية التالية.

كنت في غرفتي، على الجانب الآخر من الجدار، أسمع تمرين يوسف على هذه الأغنية التي كتبها العام الماضي. الآن، يسير على المسرح وهو يغنّيها.

أخبرته من قبل أنها جيدة حقًا، لكن الحقيقة أن الكلمات رائعة، وأنهم يتقنونها. يبطئون في الكلمات الأخيرة ليدعوها تملأ المكان. يردد يوسف بصوتٍ يبدو في أفضل حالاته:

سواء بقينا أم لا فقد خضنا كل المعارك

لا يمكنهم سرقة هذا

شتتونا، لكننا عمل فني.

ولن يمكنهم إنكاره.

جئت في سلام

تنفّس معي وإلا

سأذهب ممزقًا

ينظر كريس خلفه إلى ليام، الذي يرفع عصاتيه كجزءٍ من الختام. يلوح يوسف للجمهور، يدعوه إلى الغناء معه. تعلو الأصوات بالكلمات لتندمج معًا وترجّ القاعة:

وإلا سأذهب ممزقًا.

أغني أنا أيضًا.

يصيح يوسف في الجمهور، الذي ما زال بعضه يردّد العبارة الأخيرة:

«نعم، نبدو جيدين جدًا معًا! لنغيّرها قليلًا.

ويبدأ الطرب، لا لا لا... موجهًا المايكروفون الذي يمسك به نحو الجمهور.

فيرددون: «لا لا لا ...».

أتنهد. لا بدّ أنه يظن نفسه نجمًا ما الآن. سيكون من المستحيل العيش معه لو فازت ذا هيبر كامبوس الليلة.

يردّد، متمايلًا مع النغمات:

«لا لا لا ، هيا، لا لا لا»، ويشبّ على أطراف أصابعه وهو يهتف «هيا!» بصوتٍ عالٍ. يمسك ليام بعصاتيه ويراقب يوسف بتعبيرٍ شبيه بتعبيري تقريبًا. يرتبك كريستوفر قليلًا، لكنه يعزف عدة نغمات، محاولًا منح الهتاف الجماعي لحنًا.

يكرّر الجمهور خلفه. لم أره يدندن بهذا اللحن من قبل. لا يبدو من الأغنية حتى. يردّده للمرة الثالثة، بطبقة صوتٍ أعلى، ثم يختتم بهدوء. عند هذه النقطة، يبدو أن الجمهور كلّه يغنّي معه.

يقول للجمهور، الذي أسره تمامًا الآن:

«الآن، يا شباب، ما رأيكم لو أخبرتكم أنكم رددتم لتوّكم بداية الشهادة؟ إنْ قلتموها كاملة ثلاث مرات، فسيتمّ تحوّلكم رسميًا. لذلك، فالسلام عليكم جميعًا، والسلام ورقائق الذرة على الأصدقاء».

تشهق أسما قائلة: «يا إلهي».

أشهق أنا أيضًا، وأتجمّد مكاني. لا أصدّق أنه قال هذا حقًا.

تسود ضجّة في القاعة. أرى، في الإضاءة الخافتة، أفواهًا مشدوهة، وأعينًا تضيق، والظلال تزداد عمقًا.

يقف الجميع على أقدامهم. تصرّ الكراسي على الأرضية الزلقة. ثم تنطلق من الضجّة صيحاتُ غضب.

ألمح وسط هذا داني يهزّ رأسه وهو يشير إلى المسرح، بوجهٍ محمرّ. يقول شيئًا ما لكيث، الذي يومئ برأسه ويمرّر أصابعه في شعره. ينظر نحوي، وحين تلتقي أعيننا، أحاول قراءة ما يفكّر فيه لكنني لا أستطيع. لا توجد رسالة في تعبير وجهه، شيء ما يغلي تحت السطح فقط.

أنادي أخي: «يا يوسف!» أريده أن يغادر المسرح ويبتعد عن الزحام. أثار غناؤهم موجة من الحب، لكنني أشعر الآن بسحب تيار مضاد أيضًا.

ينظر ليام وكريستوفر أحدُهما إلى الآخر، ثم إلى يوسف. ليام يغلي غضبًا، ولن يدهشني لو ضرب بعصاتيه رأس يوسف. يصل جيس إلى صدر المسرح بثلاث خطوات طويلة.

يقول، محاولاً تهدئة الجمهور بالتلويح بيديه: «حسنًا، حسنًا»، لكنهم ليسوا أوركسترا يمكنه قيادتها. كل من كان قاعدًا وقف الآن، ومن كان واقفًا بالفعل بدأ يتقدّم دفعًا. ويواصل: «هذه ليلة مثيرة، وسوف...».

حين يحاول جيس أخذ المايك من يوسف، يرفع أخي إصبعه ليطلب دقيقة. يهزّ جيس رأسه ويميل إلى الأمام لأخذ المايك منه، لكن يوسف يتراجع خطوتين إلى الخلف ويهزّ رأسه.

تتحبس أنفاسي، أخشى مما سيقوله.

يقول: «لم تكن هذه الشهادة حقًا. صدقًا، لم يتحول أحد». أرى توتره في ابتسامته الخجلى. لم يتوقّع ردّ الفعل هذا.

يندفع شاب بتيشيرت أسود من خلف المسرح إلى جيس ليقول له شيئًا ما في أذنه. يستمع إليه جيس وعيناه على الجمهور.

يشير إلى شخصٍ ما في خلفية الغرفة، شابّ ضخم البنية، بسترة من الدنيم، ولحية خفيفة، يقف وقفة حارس أمن، موسعًا بين قدميه.

يسأل يوسف: «أين كان هذا الغضب من عنصرية ورجعية لارسون؟» ثم يقلّد أداء لارسون بطريقة البهلوانات: «حسنًا، خمنوا ماذا؟ أنا لن أتحمل هذا!»

يشدّ جيس المايكروفون منه دون مقاومة من يوسف هذه المرة. يرفع أخي يديه إلى الأعلى كأنه يقول: لقد قلتُ ما عندي. يستمتع الجمهور بردّ فعله، لكنني أشعر من صميم قلبي أن هذا لأن الجميع يحبّ التصفيق الجيد. يقرّب جيس المايك من فمه عدّة مرات، لكنه ينتظر أن تهدأ ضجّة الجمهور ليخبر الجميع أن يهدؤوا.

يصيح أحدهم: «احذفوا فرقتهم!» يصعب فهم ما يصيح به الجمهور. والأصعب منه تحديد أي فرقة يطالبون بحذفها – يوسف أم لارسون.

يصيح آخر: «أخرجوا القمامة!»

فيصيح جيس، بوجه محمرّ: «اهدؤوا!» ثم يواصل مثل أبٍ فاض به الكيل من شجار أطفاله: «والآن، أريد من الفرقتين أن تغادرا، اخرجوا من الباب الذي دخلتم منه».

يقف لارسون إلى جانب المسرح. يشير إلى يوسف ويقول شيئًا ما لا أسمعه. يشير يوسف إليه يدعوه إلى المواجهة. يدفع كريس يوسف في الاتجاه المعاكس، محاولًا أن يبعده عن المسرح. ليام اختفى بالفعل.

أنظـر إلـى حـارس الأمـن الـذي يشـقّ طريقـه بيـن الجمهـور نحـو المسـرح. أندفـع نحـو المسـرح أنـا الأخـرى دون تفكيـر، لكننـي فـي منتصـف المسـافة أتعثّـر فـي شـيء مـا أو شـخص مـا وأسـقط علـى الأرض، فـي باطـن الوحـش الغاضـب.

ترفعني أسما وتسألني: «هل أنتِ بخير؟»

مونـا بجانبهـا، ترفـع مرفقيهـا لتمنـع النـاس مـن دفعنـا. أنظـر إلـى المسـرح، لأجـد أن الجميـع قـد غـادروه، بمـن فيهـم جيـس.

تقـول أسـما: «لنذهـب لنـرى يوسـف»، وأوافقهـا. نشـق طريقنـا وسـط الزحـام نحـو البـاب. أتنفس الصعـداء. كنـت بحاجـة ماسـة إلـى الهـواء، لـم أشـعر بارتيـاحٍ لمغادرتـي أي مـكان مثـل الآن. لكـن لا وقـت للارتيـاح، لأننـي أرى يوسـف وكريـس بجـوار السـيارة. يـركل يوسـف السـيارة، ويهـزّ كريـس رأسـه.

أقول، لاهثة: «ما هذا؟»

يتمتم كريس: «بالضبط».

ينظـر يوسـف إلـيّ، ثـم إلـى صديقتـي، ثـم يهـزّ رأسـه. يقتـرب ليـام بسـيارته الهاتشـباك. يشـير برأسـه لكريـس، الـذي يسـير نحـو بـاب الراكـب، ويلقـي بحقيبـة جيتـاره فـي المقعـد الخلفـي، ويقعـد فـي السـيارة دون أن يقـول وداعًـا. يتنهـد يوسـف مـن بيـن شـفتين مزمومتيـن. يبـدو مطفـأً، علـى النقيض مـن الشـخصية الواثقـة التـي كانهـا علـى المسـرح منـذ دقائـق قليلـة.

يقول: «لنذهب من هنا».

أوافقـه قائلـة: «نعـم». تومـئ مونـا برأسـها وتعلـن أنهـا سـوف تقـلّ أسـما إلـى بيتهـا. اسـتعارت سـيارة أمّهـا، وقـد صفّتهـا كعادتهـا فـي أبعـد موقـعٍ ممكـن عـن السـيارات الأخـرى لتجنّـب خدشـها.

أقـول: «انتظـروا لحظـة». رغـم دوران رأســي، لكننـي لـم أنـسَ أننـي جئـت إلـى هنـا مـع كيـث. مـا زالـت سـيارة دانـي فـي مكانهـا. أبحـث عنهمـا بيـن الواقفيـن عنـد المدخل، لكننـي لا أراهمـا. لا أريـد العـودة إلـى الداخل، لذلـك أُخـرج هاتفـي لأرسـل رسـالة لكيـث بأننـي سـأغادر مـع يوسـف. أكاد أضغـط علـى زر الإرسـال، حيـن يخيـل لـي أننـي أسـمع صـوت كيـث.

«لنذهـب يـا دانـي». إنـه كيـث بالتأكيـد، يبـدو كأخٍ صغيـر لا يمكنـه الانتظـار. أسـير نحـو المبنـى، أقتـرب مـن حاويـات القمامـة، وتهـوي معدتـي.

أرى كيـث ودانــي يقفـان بظهريهمـا نحـوي. ليسـا وحدهمـا، ولا شـك فـي الشـخص ذي الشـعر المنفـوش الـذي يتحدّثـان إليـه. بعـد هـذه الليلـة، لـن أسـتطيع نسـيان وجـه لارسـون.

الفصل التاسع

«ترين إذن أنه كان عليّ تركه يقول الهراء الذي قاله؟ إنه خطاب كراهية صريح، يا يالدا».

نقعد أنا ويوسف في السيارة أمام بيتنا. لم يقل أحدنا شيئًا طوال المسافة إلى البيت، لكننا توقفنا الآن أمام منزلنا، وهي فرصتنا الأخيرة للتحدث دون أن يسمع والدانا شيئًا عمّا حدث الليلة.

أقول له: «ألم يكن بإمكانك التفكير في أي شيء آخر لقوله؟ أكان عليك أن تخبر الجمهور أنك حولتهم؟ توجد طرائق أخرى للتعامل مع المشكلة».

يسألني: «ماذا حدث بعد أن رسموا تلك القمامة في غرفة تغيير الملابس؟ طبقتا طلاء وكلمات قليلة عن المواطنة الصالحة من الناظر. أتدعين هذا تعاملًا مع المشكلة؟»

فأجيبه: «بالطبع لا، لكنهم الآن يعتبرونك أنت المشكلة، وليس لارسون».

يقول: «أردت أن أوضح شيئًا. أردتهم أن يسمعوني. أنا لن أحتفظ بكل ما أفكر فيه في درج».

أقول بحنق: «كان مشهدًا رخيصًا»، وأفرك كاحلي الذي تورّم من التوائه حين سقطت وأنا في طريقي إلى خشبة المسرح.

يترك عجلة القيادة التي ظلّ ممسكًا بها حتى بعد أن أوقف السيارة، يهزّ رأسه ويقول بهدوء: «يالدا، لم أقصد أن...»، يشخص

ببصره من النافذة ويبدو ممزقًا وهو يضيف: «أنا آسف، حقيقي. ربما عليّ أن أسكت حقًا».

أعلم أنه لم يتخيل أن تنتهي الليلة بهذا الشكل. أقول له: «حسنًا، كان على أحدٍ ما قول شيء ما. لأن جيس كان عديم الفائدة».

يقول بحنق: «إنه بهلوان. يطردنا كأن ما قلته مثل ما قاله لارسون».

يحدّق إلى باب جراجنا، ينظر إلى شيءٍ لا أراه، ثم يقول بهدوء: «ربما كان عليّ ألا أفعل شيئًا».

أقول: «يوسف، أنت...».

فيقاطعني قائلًا: «لقد أفسدت الأمر على الجميع الليلة... كل من جاء ليرانا؛ أسما ومونا وكيث وأخوه...».

أقول: «كنتم رائعين حقًا»، وأتذكر وقوف كيث وداني مع لارسون. بدوا مجرد ثلاثة شبّان يقفون يتحدثون، كأن لا شيء خطأ حدث في العالم. لكنني لن أخبر يوسف بهذا الآن. أقول له: «وأسما ومونا تظنان هذا أيضًا، وهما سعيدتان لأنهما جاءتا».

يلقي برأسه على عجلة القيادة ويتنهّد. يقشعرّ وجهي لرؤية جبينه يلمس الجلد البارد. أكاد أقترح أن ندخل حين أرى ضوء الشرفة يشتعل.

يعتدل في جلسته بسرعة. نفكّ حزامي الأمان، وأمي تفتح الباب وتشير لنا بالدخول. ترمقنا بنظرة توقّع، وتشدّني لتحضنني ونحن نمرّ بها. أحاول منحها حضنًا سريعًا والانزلاق من قبضتها، لأنها توظّف حواسها الخمس في حفظ نظافة منزلنا، وأنا على يقين أن معطفي علقت به رائحة البطاطا المقلية وخداع.

تؤنبنا قائلة: «هل تريدان أن تصابا بالبرد؟! تقعدان في السيارة الباردة بدلًا من الدخول وإخباري ببعض الأخبار الجيدة»، ترفع هاتفها لترينا الشاشة، المضاءة بصورة لوجه أختها. «كيف سار الأمر؟ خالتكما تريد أن تسلّم عليكما، سلّما عليها».

اعتاد أقاربنا اعتبار موسيقا يوسف مجرد هواية بلا جدوى، أو إلهاء عن دراسته. حتى أبناء خالتنا يرون ذوقه في الموسيقا غريبًا. لكن العام الماضي، حين بدأ يوسف إيجاد كليات بمنح غامضة للموسيقيين، تغير موقف الجميع: بدؤوا جميعًا يندمون على عدم إيجاد سبل جديدة لإطعام وحش رسوم الجامعة.

يقول يوسف بصوت عالٍ للشاشة: «سلام يا خالة»، وأفعل مثله. يتداخل صوتانا في فوضى واحدة. تحب أمنا وضعنا هذا، إقحامنا في محادثاتها الهاتفية دون سابق إنذار أو فرصة للهروب. تحيينا خالتي ببهجة، ثم تبدأ هي وأمي عملية توديع إحداهما الأخرى.

يخرج أبي من المطبخ ممسكًا بكوب خزفي. تبدو عيناه ثقيلتين جدًا على أن نحكي له ما حدث الليلة.

يسأل يوسف: «هل فزتم؟»

فيجيبه: «لا، لم نفز».

تقول أمي باستنكار: «هل اختاروا فرقة أخرى؟»

يجيبها يوسف: «ليس تمامًا، لم يختاروا أحدًا».

فتقول: «نعم، فاز الجميع إذن».

يقول أبي: «فاز الجميع في مسابقة؟!» ويرفع حاجبيه بدهشة مثلما فعل حين شرحت له أمي معنى حفل تحديد جنس المولود.

أقول -لأن على أحدٍ ما إنهاء هذه المحادثة-: «لم تكن مسابقة، وعمومًا لقد تأخر الوقت، وكان عليّ النوم منذ ساعة مضت».

يغمغم يوسف بشيء ما، ونتوجه إلى غرفتينا. ستتطلب أي إطالة في الحديث مع والدينا التفوّه بمزيد من أنصاف الحقائق، وأنا أحمل ما يكفيني من الشعور بالذنب بالفعل.

أغسل أسناني، وأفتح باب الحمام، فأجد يوسف واقفًا في الرواق.

يقول: «شكرًا على...» ويشير برأسه نحو غرفة المعيشة.

فأجيبه: «لا داعي للشكر. أنت محق. لقد فسدت الليلة تمامًا، كان لارسون كومة فضلات حمار يعاني الإسهال». يضحك على إحدى الشتائم التي اعتدت إطلاقها وأنا طفلة. فأضيف: «ليس أن قول ما يعنّ له...».

يقول: «بالضبط، لقد كان خطأ... وخطِرًا».

خطرًا. تتردّد كلمته الأخيرة في ذهني وأنا أشدّ لحافي فوق كتفي وأغمض جفني.

يخبرني شيء ما أننا لم نتخطَّ مرحلة الخطر بعد.

الفصل العاشر

أبذلُ قصارى جهدي لأنام في الصباح التالي، ولأتجاهل صرير ألواح الأرضية تحت قدمي أمي. أعرف أنها ستحاول -ما إن أخرج من غرفتي- توريطي في خللٍ ما مميتٍ اكتشفته في بيتنا، ولستُ في مزاجٍ للبحث تحت أثاث غرفة المعيشة اليوم.

أتفقَّد هاتفي بعينين ناعستين. رسائل كثيرة جدًّا من أسما ومونا وكيث. يسألوني جميعًا: هل سمعتِ ما يقول الناس عن الليلة الماضية؟ أزمجر وأفتح تطبيق البيك أب لأرى ما يحدث.

الويرهاوس هو كل ما يتحدث عنه الجميع. أتصفح كل المنشورات وأرى صورًا ليوسف وهو يمسك المايكروفون. لم يُفكِّر أغلب الناس في تسجيل الصوت حتى ظهر جيس على المسرح. توجد مقاطع عدة لأداء لارسون وفرقته، ومقاطع أقل ليوسف وفرقته، وبعض ردود الفعل في ساحة انتظار السيارات. لكن المقطع الأشهر هو مزيج من كل شيء معًا. يبدأ بثوانٍ قليلة ليوسف يدندن الشهادة، ثم يقول: «إنْ قلتموها ثلاث مرات، فسيتم تحولكم رسميًّا، لذلك، فالسلام عليكم جميعًا، والسلام ورقائق الذرة على الأصدقاء».

هاشتاج #رقائق -الذرة.

تظهر التعليقات الجديدة حتى وأنا أشاهد المقطع، تتراوح من الدفاع عن حرية الرأي وحتى السؤال عن البقالات التي يجب تجنبها. عرض أحدهم قذف بيت لارسون بالبيض، لكنه

أكّد سحب كلامه هذا بعد أن نبّهه آخرون إلى أنه سيكون أول المشتبه فيهم لو حدث شيء للارسون، وأن المنشور سيكون دليل إدانة له في المحكمة.

يقول البعض إن على يوسف ترك المدرسة، ويقترح أحدهم أن على يوسف ولارسون تسوية خلافهما كرجال حقيقيين، أيًا كان ما يعنيه هذا. يقول شخصان إنهما سمعا أن الوافدين الجدد إلى بلدتنا لم يتم التحقق من خلفياتهم حتى. ثم أرى منشورًا آخر بعدد من الهاشتاجات يجعل أحدها معدتي تنقبض: #يوسف-إرهابي.

لا. لا. لا. لا. لا!

تظهر رسالة جديدة من كيث وسط صراخي الداخلي.

[هل أخوكِ بخير؟ لأنه لا يجيب رسائلي].

أبدأ بإجابته لأنني أريد أن أعرف لماذا بدا على سجيّته وهو يقف مع لارسون بعد طرد يوسف والشباب، لكنني أفكّر في يوسف حين يرى كل هذا.

أصيح: «يوسف!»، وأقفز من فراشي في اللحظة التي تفتح فيها أمي باب غرفتي. لا بد أنها كانت في الرواق.

تسألني: «ما الأمر؟»

أضع هاتفي مقلوبًا على الطاولة بجوار فراشي وأجيبها: «لا شيء، أردت أن أعرف إن كان قد استيقظ أم لا».

تشير إلى الجدار الذي يفصل بين غرفتينا وتسألني: «هل...؟»

أجيبها: «نعم، ولم يجبني»، وأتخطاها لأذهب إلى غرفته أولًا، وأضيف: «أريد أن أسأله عن شيء ما في فرض الرياضيات».

تذهب إلى المطبخ، الذي تنبعث منه رائحة قهوتها.

كعادتنا المتفق عليها ضمنيًا، أطرق الباب وأنتظر عشر ثوانٍ قبل دخول الغرفة. يقعد بظهره لي ويحدق إلى شاشة حاسوبه، والسماعات في أذنيه.

يستغرق وقتًا أطول من المعتاد ليلاحظ وجودي في مجاله المقدس. حين يراني، يُغلق المتصفح ثم يُغلق شاشة حاسوبه.

يخلع السماعة من إحدى أذنيه؛ ما يعني السماح لي بمقاطعته، لكن دون إطالة.

أسأله: «هل رأيته؟»

يجيبني: «نعم». كتفاه المتخشبتان تفضحان الهدوء الزائف في صوته. أدرك فورًا أنني لا يمكنني الجزع الآن، فأقول: «سينتهي كل هذا سريعًا، حين يظهر شيء جديد ليتحدثوا عنه».

يجيبني: «أعرف».

أقول: «كيث يقول إنه أرسل لك رسالة».

فيجيبني: «سأجيبه فيما بعد». ثم يسود صمت طويل فيما أفكر: هل أبقى معه أم أتركه وشأنه؟ لا يسأل لماذا أرسل له كيث حتى.

أسأله: «هل تحدثت إلى كريس أو ليام؟» يبدو مهمًا أن أواصل التحدث إليه، أن أسمع نبرة صوته.

تطرف عيناه ويمسحهما براحتيه. أريد أن أصفع نفسي لهذا السؤال الغبي. يقول: «لدي أشياء قليلة أريد إنهاءها، يا يال»، ويُعيد السماعة إلى أذنه كإشارة على انتهاء المحادثة.

أعـود إلـى غرفتـي لتسـوية فراشـي، لكننـي أُجيـب كيث بـدلًا مـن ذلـك:

[إنه في الحمام].

هـذه محاولتـي لحمايـة خصوصيـة يوسـف. تظهـر ثـلاث نقـاط. أنتظـر رد كيث.

[سيهدأ الأمـر قبل بدايـة الأسـبوع. اضبطـي هاتفـك علـى وضـع الطيـران لمـدة].

[فكرة جيدة]

[بـل ليسـت كذلـك، فـي الحقيقـة لا أريـدك أن تتجاهلـي رسـائلي أيضًـا].

أجيبه: [لن أفعل]

فيرسل وجهًا مبتسمًا

أريـد أن أرسـل ابتسـامة. توجـد ابتسـامة فـي مـكانٍ مـا بداخلـي. يعجبنـي كيث، ويعجبنـي أن أيًـا كان مـا بيننـا يخصنـي وحـدي. إنـه أكثـر شـيء عـاديّ منـذ بدايـة الزمـان - أن يهتـم شـخصان أحدهمـا بالآخـر. لكنـه أيضًـا ليس عاديًـا إطلاقًـا، والغريـب أن أكـون أنـا أحـد هذيـن الشـخصين. ليتنـي أشـعر بحريـة للاسـتمتاع بـه دون التسـاؤل عـن الحكـم علـيّ والعواقـب والشـكوك. كذلـك أريـد أن أسـأله عـن شـيء واحـد فقـط مـن الليلـة الماضيـة.

لكـن، لمـاذا أفكـر فـي كيث الآن؟ آخـذ نفسًـا عميقًـا، وأُذكِّـر نفسـي أن أخـي يعانـي علـى الجانـب الآخـر مـن الجـدار. يتحـدث النـاس عنـه فـي التعليقـات علـى المنشـورات كأنـه لـن يقرأهـا. ليت بإمكانـي فعـل شـيء لأهـون عليـه قليـلًا. لكننـي أعرفـه جيـدًا، وأعـرف أنـه يريـد البقـاء وحـده.

في العادة، كنتُ سأقابل مونا وأسما للخروج أو للدراسة معًا، لكنني لا أعرف إن كان بإمكاني تحمّل أسئلة مونا الآن، وأسما تعمل جليسة أطفال لصغيرين شقيّين من أقارب لها يقيمون إلى جوارنا. ساعدتها مرّات كثيرة، لكنني أدركت أنني أفضّل القيام بخمسين شيئًا آخر على مفاوضات السلام بين صغيرين يحبّان النزاع على خذرة [دوّارة التخلّص من التوتّر]. لا أفكّر في المرور بها حتى. شخصيّتي الانطوائيّة في حاجة إلى إعادة الشحن، ومن النادر أن أحظى بساعات قليلة وحدي.

ضجّة المدرسة، والشارع، والأخبار السيئة التي تتدفّق من الراديو تجعلني أحيانًا أودّ ضغط زرّ كتم صوت العالم. أُخرج دفتر الرسم من درج الطاولة وأقعد إلى مكتبي. تقف أقلامي الحبر على أهبة الاستعداد في كوب خزفي صنعته في مادة الفنون في المدرسة المتوسطة. أُشخص ببصري من النافذة إلى الشارع في الخارج، فأرى جارنا يجرّ حاوية قمامته إلى الطوار.

أمسك بأحد الأقلام. أخطّط لرسوماتي أحيانًا. أبدأ بقلم الرصاص ثم أستخدم الحبر حين يتّضح الرسم. ليس لديّ مخطّط الآن. أرسم الظلّ الواهن الذي أراه في خيالي، قامة في الظل بظهرها لي. أُغمض عينيّ لأركّز، وحين أعتاد الظلام، أميّز مزيدًا من التفاصيل. أبدأ التخطيط الخارجي. أحدّد الكتفين والساقين بخطوط تبدو كوابل المطر. يرتدي سترة أكبر منه بدرجتين، يبدو هذا من انحناء الكتفين، وثقيلة جدًا. ثم أحدّد الخطوط فتكتسب سترته حركة وبُعدًا. تتحوّل من مظهر الورق المقوّى إلى مظهر الجلد. أستخدم قلمًا أثقل. شعره فوضى من

النغمات الموسيقية تنضمّ معًا في كورس، كتلة فوضويّة. في يده مايكروفون مغلّف بألسنة نار. أُغيّر القلم مجددًا. يُحدّق إلى مرآة. أُمنح المرآة إطارًا، بزخرفة مبالغ فيها مثل أثاث بيت خالتي. ثمّ صدع، خطّ مسنّن من أعلى يمينًا إلى الأسفل يسارًا، المركز مبهم بالقامة.

أضع القلم وأنظر إلى ما رسمت. هل كنت أرسم يوسف؟ لم أقصد ذلك، لكن ها هو ذا، يتجسّد أمامي مهزومًا تمامًا. أنظر سريعًا إلى الجدار الفاصل بين غرفتينا، ثمّ إلى الرسم مجدّدًا. ماذا يرى هذا الشاب في المرآة؟ لا يمكنني تحريكه في خيالي لأرى انعكاسه أو تعبير وجهه.

هذا حقيقي إلى حدٍّ مأساوي.

عند الساعة الحادية عشرة، أرتدي بنطالي الجينز الأسود وقميصي الأسود ذا الأزرار، الزيّ غير الرسمي للعمل في المطعم. أتوجّه إلى المطبخ قبل أن يمكن لأمي بدء الشكوى من أنني أؤخّرها. يقعد يوسف إلى مائدة المطبخ، يعمل على فرض الرياضيات. مرفقه على المائدة، ويده على حاجبيه، فلا أرى عينيه. قرب كتابه شطيرة لم يلمسها في طبق صغير.

أسأله: «هل أنت بخير؟»

فيجيبني: «بخير.. أمي تنتظرك في السيارة».

لا بدّ أنه غنّى ورقص لأمي، وإلّا لكانت الآن تعزّز حالته النفسية بدلًا من استعجالي ببوق السيارة.

أسأله: «هل ستذهب إلى أي مكان؟»

يهزّ رأسه ويجيبني: «لا رغبة لديّ في الخروج، والجوّ بارد في الخارج».

«ماذا عن ليام وكريستوفر؟»

يبعد يديه عن لوحة مفاتيح حاسوبه المحمول ويتمطّى، ثمّ يسند ظهره إلى كرسيّه، ويقول: «إن أردتِ أن تعرفي حقًّا، فإنّ كريستوفر قد اختفى. لم يردّ عليّ. وتحدّثت إلى ليام، لكنّ الأمر لم يسر جيدًا».

أقول له: «إنّهما بحاجة إلى بعض الوقت، سينسيان الأمر».

يتنهّد ويقول: «نعم»، لكنه لا يبدو مقتنعًا. يمنعني شيءٌ ما من تركه. لا تعجبني فكرة بقائه وحده، في فراغ منزلٍ خالٍ.

أقترح عليه لرفع معنويّاته قليلًا: «إنْ أردت المجيء إلى المطعم اليوم، يمكنك تولّي كلّ الموائد المهمّة».

نسمع بوق السيارة مجدّدًا، فيقول: «لديّ مهامّ متأخّرة أريد إنجازها»، ثم يضيف كأنّه أعاد التفكير: «لكن لا تنسي إضافة مزيد من الخبز يا يال».

فأجيبه: «بالتأكيد».

منذ عامين أراني فيديو لتجربة اجتماعيّة تُثبت أن مزيدًا من الخبز يؤدّي إلى مزيد من الإكراميّات للنادلين والنادلات. ظلّ يزعم استحقاقه نسبة من إكراميّاتي لتعريفي بهذا. أتوجّه نحو باب الجراج، لكنّني أتوقّف حين يناديني.

أقول: «نعم».

فينظر إلى الأرض، لكنّني أرى عبوسه، ويقول: «شكرًا لتماسككِ في هذا. أرجو ألا أكون قد... لا أعرف. أرجو ألا أكون قد أحرجتكِ أو شيئًا ما كهذا. لم أرد هذا بكلّ تأكيد».

لم أتوقّع هذا، فأجيبه: «حسنًا، أنا في العادة من أُحرج نفسي، فربما من الأفضل التغيير قليلًا».

يبتسم وينظر بعيدًا قبل أن أحدّد إن كانت عيناه قد دمعتا أيضًا أم لا. ربّما أثّر فيه ردّ الفعل الانعكاسي أكثر ممّا يسمح لنفسه. فأضيف معترفة: «في الحقيقة، لم أشعر بالحرج، بل بالقلق. لم تكن الذبذبات هناك جيّدة». لا أريد الاعتراف بأنني كنت خائفة، لكنّني بالتأكيد لم أشعر بأمان البيت في الويرهاوس.

يوافقني قائلًا: «نعم، كان سامًّا تمامًا... عمومًا، أردتُ قول هذا فحسب، أراكِ الليلة».

أقضي الوقت في السيارة أحدّق من النافذة، وأفكّر أنني ويوسف لم نُجرِ محادثة ثقيلة هكذا منذ أن تحدّثنا عن رحيم آخر مرّة.

تسألني أمي: «لماذا أنتِ هادئة هكذا؟ هل يضايقكِ شيء؟»

أجيبها: «لا، أنا فقط... أظنّ أنّ لديّ صداعًا».

تقول: «أنتِ لا تنامين جيدًا»، ثم تمسك زجاجة الماء التي تضعها بين مقعدينا، وتناولها لي مضيفة: «اشربي بعض الماء، ربّما تعانين الجفاف أيضًا».

لو سمع أحدهم عدد المرّات التي أخبرتني فيها بأنني أعاني الجفاف، لظنّ أنني أقضي أيامي في عبور الصحراء. أفتح غطاء الزجاجة وآخذ رشفة، كي لا تقول إنني لا أسمع كلامها. لا تحاول جعلي أتحدّث بعد ذلك، لصالحها هي. تُطلق تنهيدة ثقيلة فقط وتنظر إليّ من زاوية عينها، في انتظار أن يشفيني الماء.

في المطعم، ألقي بحقيبتي على الطاولة الأقرب إلى باب المطبخ. صرت ماهرة في استغلال الوقت -الذي لا زبائن فيه- في إنجاز بعض فروضي المدرسية. يمنحني والدي -الذي سبقنا إلى هنا منذ ساعتين- حضنًا، ويعود إلى المطبخ قبل ازدحام المطعم ساعة الغداء.

أخدم امرأتين تبدوان كأنهما جاءتا من درس اليوجا. بعد ذلك بساعة، أخدم زوجين يتشاركان طبقي مقبلات وطبقًا رئيسًا واحدًا.

يخبرني الرجل وأنا أقدّم لهما الحساب: «كان الطعام شهيًا».

أقول له: «يسعدني أنه أعجبكما».

تقول زوجته، وهي تشير برأسها نحو خريطة أفغانستان المغزولة بالخيط على الجدار وتمسح يدها بمنديل مبلل: «ما حدث هناك كان فظيعًا جدًا، لا بد أن أسرتك سعيدة جدًا بقدومها إلى هنا».

أقول ببهجة، وأنا أرفع أطباقهما عن المائدة: «نحن كذلك بالطبع».

يخرج أبي من المطبخ ويجول بعينيه. أشعر به يعد الطاولات الخالية، وينعقد حاجباه بغمّ. أنظر إلى الساعة. اللافتة في الخارج، التي تعلن عن طبق مقبلات مجانًا مع كل صنفين، لا تجذب زبائن حقًا. أتساءل إن كان الكوبون المنشور على الإنترنت قد رآه أحد أساسًا، وأتمنى لو كانت لديّ معرفة أفضل باللوغاريتمات. لا بد من وجود طريقة لتزويد نسبة انتشاره.

أقعد إلى الطاولة الأقرب إلى المطبخ، أخرج هاتفي من حقيبتي، وأفتح تطبيق الحيّ. يجفّ ريقي وأنا أرى المنشورات. أكثرها انتشارًا عن «الحادث» في الويرهاوس، مع أنه لا يذكر اسم المكان.

شاب من الشرق الأوسط يقف على المسرح في حفل موسيقي في شارع كلوفر ويحوّل الجمهور إلى الإسلام. أعرف على وجه اليقين أنه كان يوجد بعض القاصرين في الجمهور. هل يعرف أحد إن كان هناك قانون ضد تحويل الناس رغم إرادتهم؟ أظنّ أنه انتهاك جسيم لحقوقنا. مكتبة سُر مَن قرأ

التعليقات في كل مكان.

كان الويرهاوس يستضيف فرقًا موسيقية رائعة، لكنني ذهبت العام الماضي وكانت كل الفرق سيئة جدًّا..

الإعلام! هو الطريقة الوحيدة للفت الانتباه. ابن عمي مذيع نشرة الطقس في محطة دبليو كيو في بي، وسأرسل له هذا الخبر فورًا.

أرجو أن يكون لديك إثبات ما لهذا الاتهام، لأنني مللت بشدة ممن يلقون اللوم في كل شيء على المهاجرين.

أتساءل إن كان من قرروا السماح بدخول كل هؤلاء إلى بلدنا سيراقبون المساجد جيدًا أم لا؟ لأنها مصدر الرجعية.

نعم، ألا يعلم أنه لا يمكن تحويل الناس إلا صباح أيام السبت وعلى شرفات منازلهم؟

إنه على هذا التطبيق بالفعل، وانظروا ماذا نشر. خمنوا من يريد تحويلنا إلى مطعمه.

أسفل التعليق صورة من حساب يوسف الخالي على التطبيق -لم أعرف أنه مشترك فيه- لكوبون المقبلات المجانية. جعلت هذه الصورة ثلاثة أشخاص يدعون إلى مقاطعة مطعمنا، وإجراء تحقيق شامل أيضًا. يبدو أنهم يظنون يوسف رجلًا بالغًا ومالك هذا المطعم.

لو تحققوا بالفعل لعلموا إلى أي حد هم مخطئون.

«ما الأمر يا يالدا؟»

يسقط هاتفي من المفاجأة. استغرقت تمامًا في قراءة التعليقات فلم أرَ أبي يقترب.

أجيبه: «ما الأمر في ماذا؟» أكره ادّعاء الغباء.

يسألني، مشيرًا برأسه إلى هاتفي: «إلامَ تنظرين؟»

أجيبه: «لا شيء، مجرد تفاصيل من المدرسة». يقعد على الكرسي المقابل لي، ويحرك صينية الأدوات جانبًا كي لا يقف شيء بيننا. ينظر إليّ مباشرة؛ ما يُعتبر المعادل الأبوي لآلاف كشافات أضواء الشرطة في وجهي. لا يضيع أبي الوقت في محادثات صغيرة، ليس في البيت وبالتأكيد ليس في المطعم. لذلك أعلم أنه يريد ردًا حقيقيًا الآن.

يقول: «أخبريني».

يصعقني الظلم في تلك اللحظة. لماذا يوسف ليس هنا الآن ليجيب بنفسه؟

أبي من حقه إجابة. والأهم من هذا، من حقه معرفة الحقيقة. لكنني أتردد مع ذلك. على خلفية المطعم الخالي، والأغنية الحزينة المنبعثة، يبدو والدي هشًا بشكل غريب، ولا أريد أن أكسره.

الفصل الحادي عشر

يسأل أبي، بذهول شديد لدرجة لا يمكنه معها صياغة السؤال: «فيم كنتما تفكران؟ لماذا... كيف أمكنكما...؟».

يقعد يوسف على الكرسي، متهدل الكتفين، وعاقدًا ذراعيه على صدره.

يسأل أخي: «هل عليّ السكوت حين يردد أحد شيئًا كهذا؟»

تقول أمي، بعينين ورديتين: «يوسف، الناس يقولون أشياء غبية كثيرة جدًّا. لا تسمح لكل شيء صغير بأن يزعجك».

يكرر يوسف، كأنه يتأكد منها أنه سمعها جيدًا: «شيء صغير؟»، ثم يضيف: «أمي، أنتِ لستِ جادة؟»

لا ينظر إليّ. أتمنى أن يعرف أن والدينا كانا سيكتشفان ما حدث ليلة أمس في الحفل، حتى لو لم أخبرهما بنفسي. جعلني أبي أكرر القصة كلها لأمي، التي قعدت بعد أن كانت واقفة، ثم وقفت مرة أخرى. بدت في صراع مع نفسها، لا تعرف هل تغضب لأننا كذبنا عليها، أم لرد يوسف علىٰ سخرية لارسون. شعرت، ونحن الأربعة قاعدون معًا في بيتنا، أن الأمر ليس خطِرًا أو سيئًا كما ظننت، لكن حينها بدأ هاتف أمي يرن بالإشعارات. وجد المهتمون بالمحاكمة الرقمية طريقهم إلى صفحة مطعمنا على التطبيق. كانت التعليقات على منشور كوبون المقبلات المجانية تزداد، وظنت أمي في البدء أنه خبر جيد، وتوقعت أن يشغل كل هؤلاء طاولات المطعم قريبًا. لكنها قرأت دعاوى المقاطعة

والتحقيق. كانت توجد بعض التعليقات الداعمة أيضًا، لكن التعليقات القاسية تميزت بينها كأنها مكتوبة بأضواء النيون.

يقول أبي: «أنا لا أفهم»، ويمسح عينيه بيديه. يبدو مرهقًا أكثر مما كان أمس، ما لم أكن أظنه ممكنًا.

يستطرد: «في رمضان الفائت، لم تصم إلا في العطلات الأسبوعية، وتتصرف الآن في المدرسة كأنك مُلّا؟»

يسأل يوسف بنبرة غضب خفيفة: «لا يجوز لي التصدي لخطاب الكراهية إذن لأنني لست مسلمًا كاملًا؟»

تقول أمي: «لا أحد يُعد مسلمًا كاملًا، لذلك نسميه اجتهادًا»، ثم تتنهد بأسى، وتسأل أبي: «ماذا نفعل الآن؟ هل علينا الرد على كل هؤلاء؟ أم نضع لافتة خارج مطعمنا؟»

يرفض أبي الفكرة، بهز رأسه وزمّ شفتيه، ثم يقول: «الجميع الآن يريدون لفت الانتباه. الكلام كثير جدًا عمّن يكره مَن، بدلًا من العمل وترك الآخرين لشأنهم. هذا بلد جيد. لا أحد يزعجنا، ونحن نعيش سعداء. أتعرفون لماذا؟ لأنهم حين يأتون إلى مطعمنا يتناولون طعامًا جيدًا، وليس لافتات أو هتافات».

أتذكر الاستمارات التي جعلني أبي أملؤها لرعاية فريق كرة قدم للصغار، والغداء السنوي الذي يقيمه لرجال الإطفاء وقسم الشرطة. حين نشرتْ عنه جريدة محلية، وضع أبي الخبر في إطار وعلّقه خلف الكاشير، بجوار ثلاث شهادات من الولاية تفيد بالإذن لنا بإدارة المطعم، ورسالة شكر من زوجين استمتعا بطبق التحلية المجاني الذي قدّمه لهما أبي حين علم أن اليوم ذكرى زواجهما السنوية.

ذاك الجدار الصغير من الإطارات هو إثبات قبوله وكفاءته في العمل. هل كان سيحتاج تلك الإطارات لو لم يكن مطعمنا أفغانيًا؟

يقول يوسف: «أنا آسف، أردت فقط... لم يقل أحد أي شيء. كان عليّ الرد عليهم».

فيقول أبي: «عليك التفكير أيضًا. عملنا على هذا المطعم لسبع سنوات، هكذا ندفع مقابل منزلنا وملابسكما وسيارتكما. وأنت تريدنا أن نفقد كل هذا لأن فتى غبيًا قال شيئًا ما؟»

ترمقه أمي بنظرة تحذير، وتقول بالدّارية: «كفى الله الشر»، ثم تعود إلى الإنجليزية: «لن نفقد كل شيء. سنكون بخير».

يغادر أبي المطبخ دون الإعلان عن خطة أو إنزال أي عقوبة بيوسف. تتبعه أمي، ربما لتذكره بمدى رقتنا، أنا ويوسف، ولتحذيره من القسوة علينا.

ينتهي اجتماع الأسرة، ولا يبدو يوسف مرتاحًا مع أنه لم يُحرم من أي شيء.

أقول له: «أنا آسفة، لم أرغب في أن أكون أنا من أخبرهما».

يغمغم وهو يبتعد عن الطاولة: «ليس خطأك»، ويتركني وحدي في المطبخ، بحوض مليء بالأطباق القذرة. أشطفها وأرصها في غسالة الأطباق، كي أخفف عن أمي واحدة من مهامها. أتفقد هاتفي وأرى رسالة من أسما، تريد أن تعرف كيف تصرّف والداي بعد أن عرفا. من الواضح أنها رأت المنشورات على تطبيق الحي، لأنها تقول إن أشخاصًا كثيرين متفهّمين سيظهرون لدعم مطعمنا. أرسل لها: «شكرًا»، وأخبرها بأن يوسف أغلق على نفسه غرفته ولم يقل لي أي شيء. أحدق في الهاتف منتظِرة ردّها.

تجيبني: [اللعنة. هذا فظيع حقًا]. أشعر بثقل الإحباط، كنت آمل في كلمات تطمئنني، لا تأكيدًا على ما أنا فيه.

هاتف أمي على الطاولة. أفتح تطبيق الحي وأرى أحد عشر تعليقًا جديدًا تحت صورة مطعمنا. ينقبض صدري وأنا أقرؤها:

أحن إلى الأيام التي كانت المطاعم فيها تقدم طعامًا فحسب.

أين هذا المكان؟ أنا أبحث عن فلافل جيدة.

لذلك لا نحظى بأشياء جميلة. هاشتاج أغلقوا الحدود.

تناولت الطعام هناك، أنا وأختي، الشهر الماضي، وكان أصحاب المطعم رائعين. دعونا لا نحكم قبل معرفة كل شيء.

هل الطعام مجانًا لو تحوّل الزبائن؟

هل مرّ أحد بالمسجد مؤخرًا؟ رأيت خمسة رجال يحملون صناديق كبيرة إلى بابه الخلفي الأسبوع الماضي. قليل من الشك لن يقتل أحدًا.

إنه أنت إذن، تسأل أولًا، ثم تكتب ما شئت. بالطبع لم يقتل أحدًا. هاشتاج ترايفون مارتن[1] وبريونا تايلور[2].

تفرعت المحادثة إلى خطوط جانبية متنوعة. دارت التعليقات في رأسي بأسرع من خلاط أمي. أقرّر، نيابة عنها، أنها ليست بحاجة إلى إضافة هذا إلى حياتها، وأمسح التطبيق من هاتفها، كي لا ألقي به وأحطّمه على المنضدة.

---

(1) فتى أفرو-أمريكي، كان في السابعة عشرة من عمره حين قتله شاب أمريكي من أصول أسبانية عام 2012.
(2) سيدة أفرو-أمريكية، قُتلت برصاص ثلاثة ضباط شرطة أمريكيين عام 2020.

يـوم الأحـد، يتصـل أبـي ويخبـر أمـي أنـه بإمكانـه تدبّـر أمـوره وحـده فـي المطعـم. يمنحنـا اليـوم عطلـة.

تسـأله: «هل أنت متأكد؟» وتنظر إليّ من زاوية عينها.

أسـمع أبـي يجيبهـا: «نعـم. أخبـري يالـدا أن بإمكانهـا إنجـاز فروضهـا أو أيًـا كان مـا تريـد فعلـه».

أشـك فـي قدرتـي علـى التركيـز بمـا يكفـي لصياغـة جملتيـن معًـا فـي هـذه اللحظـة. أتخيّـل أبـي يمسـح طـاولات خاليـة، وينظّـم عليهـا قوائـم الطعـام. أتمنـى أن أمسـح كل التعليقـات فـي تلـك المناقشـة علـى تطبيـق الحـي، وأكـره فكـرة أن هـذه الضجـة الغاضبـة موجّهـة إلـى يوسـف.

تعتمـد أمـي طريقتيـن لطـرد الطاقـة العصبيـة: إمـا تنظيـف الشـقة مـن كل ذرّة غبـار، وإمـا ارتـداء ملابسـها الرياضيـة والذهـاب للركض. جرّبـت الطريقتيـن ولـم أشـعر بالراحـة التـي تشـعر بهـا. ينتهـي بـي الأمـر بالقلـق مـن تسـبّب المنظفـات متعـددة الاسـتخدام بالإصابـة بالسـرطان، أو تسـبّب الركـض علـى الإسـفلت بالإصابـة بالتهـاب المفاصـل المبكـر. أعـود إلـى غرفتـي لأرى إن كان الكتـاب الـذي اسـتعرته مـن المكتبـة سيسـاعد فـي طـرد أفـكاري.

فـي الظهيـرة، يئـزّ هاتفـي برسـالة مـن كيـث. كلـب بأذنيـن منتصبتيـن وعينيـن مليئتيـن بالحبـر يحـدّق إلـيّ مباشـرة.

يكتب: [مرحبًا، أنا اسمي فيشر].

فأكتـب: [مرحبًـا فيشـر. ربمـا سـتخبرني أنـت مـاذا كان يفعـل كيـث مـع لارسـون تلـك الليلـة؟] لكننـي أمسـح الجملـة دون أن أرسـلها.

يرسـل إلـيّ صـورة حـذاءي حريمـي ممضوغيـن ويكتـب: [بدايـة جديـدة قويـة].

فأتمتم لنفسي: «بمَ أجيبه على هذا؟»

في تلك اللحظة، يبرز رأس أمي من باب غرفتي. أعرف أن منزلنا ليس كبيرًا، لكنها تبدو دائمًا على مقربة خطوة من بابي، الذي عليّ تركه مفتوحًا كي لا تجزع وتقتحم الغرفة.

تسألني بعينين متسعتين: «ماذا تفعلين؟». ازداد قلقها بشكل واضح، وأنا متأكدة من أنني لست الوحيدة التي تشعر بهذا.

«نعم، كان على مونا أن ترسل لي فرض مادة التعيين المتقدم، لكنني...»، تنفد كلماتي، أهز رأسي، «لا أظن أنه هو».

تنظر إلى هاتفي من أعلى، وأشعر بالجهد الذي تبذله لمنع نفسها من انتزاعه من يدي وتفقّده بنفسها. لكنها تومئ برأسها فحسب، وتخبرني بأن أتصل بها لو احتجت إلى أي شيء، وتنقر على إطار الباب عدة مرات قبل أن تنسحب.

تصلني رسالة أخرى من كيث.

[مرحبًا]

أضع هاتفي بشاشته على الطاولة بإحباط. اشتريت ذات مرة سترة نيلية مُطرَّز عليها لاما بعينين كبيرتين بخيوط باللونين الكريمي والفوشيا. ورغم ثمنها الباهظ، ظل كل شيء صغير يعلق بها: شعيرات فرشاة شعري، شماعة ملابس، أبزيم حزام -فتتفكك خيوطها كل مرة. هكذا أشعر مؤخرًا، كأن حتى أفضل أيامي تشبك بها أشياء كبيرة وصغيرة لا أتوقعها. أريد أن أتحدث مع كيث، لكنني لم أنسَ رؤيته يتحدث إلى لارسون، وبالتأكيد لا يمكنني ملاعبة كلبه الجديد دون الانتباه للفيل الواقف في ساحة الانتظار.

[لماذا كنت تتحدث إلى لارسون؟]

كتبت السؤال وأرسلته قبل أن أمسحه. تمر دقيقة قبل ظهور النقاط الثلاث.

يسأل: [هل يمكنني الاتصال بكِ؟]

لكنني أخبره أنني لا يمكنني التحدث الآن. أريد إجابة، وليس محادثة.

عمل داني معه في أثناء الصيف في جزّ العشب وأشياء من هذا القبيل. وكان يحاول مناقشته بالمنطق.

لا أعرف ماذا كنت أتوقّع، لكنني لم أتوقّع هذا بالتأكيد. أشعر بالذنب قليلًا لافتراضي الأسوأ. كرهت تفكيري أنه ربما وجد ما قاله لارسون مضحكًا أو مبرّرًا.

أجيبه: [شكرًا له على هذا].

فيضيف: [لكنه لم يفلح].

بالطبع لم يفلح. أشكّ في أن لارسون كان سيسمع أي شيء ممّا قيل له، وليس فقط لأن آذاننا جميعًا كانت تطنّ من الصوت العالي للموسيقا. لو تحدثنا بالعلم، فقد كان لارسون على الجانب الآخر من غشاء غير قابل للنفاذ.

أجيبه: [جهد مشكور]، ثم أخبره أن عليّ الذهاب. أنظر إلى دفتر رسمي، وأشعر بإرهاق شديد لأمسك بقلم حتى. أضع الهاتف في الدرج لأنني أريد إسكات العالم، ليتركني أسمع نفسي وسط الضجة.

صباح الاثنين. أتساءل إن كنت قد بالغت في طلب الهدوء، لأن البيت يسوده صمت ثقيل. لا سباق إلى الحمّام، ولا يمكنني

قـول كلمـة مقلـب، ناهيـك بالتخطيـط لواحـد. نمـارس أنـا ويوسـف طقوسـنا الصباحية وننضـمّ إلـى أمـي فـي المطبـخ. أعـدّت، بتفاؤلهـا الفائـق، عصائـر فراولـة ومـوز وكرنـب، بمـا وجدتـه مـن جديـد فـي التغذيـة: فطـر مـن نـوعٍ مـا معـزّز للمناعـة، لـه مـذاق الجمبـري بشـكل بائـس.

تقـول وهـي تتـذوّق العصيـر بملعقـة مـن الخـلاط لتثبـت أننـا مخطئـان: «بحقّكمـا يـا شـباب، لا يجـب أن يكـون لـكل شـيء مـذاق عصيـر التفـاح». تسـتدير، لكـن ليـس فـي الوقـت المناسـب لتخفـي وجههـا المشـمئز.

أرى الشـموع علـى المنضـدة وأتذكّـر أن اليـوم يالـدا، وأراهـن أنهـا ترجُـو أن احتفـال الليلـة بالاعتـدال الشـتوي سيسـوّي كل شـيء.

نغلـق معطفينـا، ونغـادر أنـا وأخـي البيـت، بالـكاد لمسـنا العصيـر. نسـير علـى الرصيـف بخطـوات منتظمـة. يسـعدني أنـي اسـتوضحت الأمـر مـن كيـث قبـل هـذا الصبـاح. خرجنـا أنـا ويوسـف بتلـك الغيمـة الرماديـة مـن بيتنـا معنـا، وأتمنـى أن يغيّـر كيـث المـزاج قليـلاً.

ينفتـح البـاب ويخـرج كيـث. حتـى مـن الرصيـف، نسـمع أمـه تناديـه مـن داخـل البيـت. تقـول لـه وهـو يغـادر: «هـل سـمعتني؟ هـذا ليـس الوقـت المناسـب».

يتـرك البـاب السـلكي يصطفـق خلفـه، ويسـير علـى العشـب ويـداه فـي جيبيـه. أتسـاءل عـلامَ تُلـح والدتـه. أعـرف مـن ثقـل تنهيدتـه أنـه ليـس مبتهجًـا.

يسـأله يوسـف وهـو يحييـه برأسـه: «كيـف الحـال؟»

نسـمع نباحًـا مـن بيـت كيـث، ونلمـح وجـه كلـب مـن نافـذة جانبيـة. يغمـض كيـث عينيـه بسـرعة، ثـم يهـز رأسـه ويبتسـم.

يسأله يوسف: «ماذا، حظيتَ بكلب؟»

فيجيبه كيث: «نعم». ثم يضيف: «ألم تُخبرك يالدا؟ هذا فيشر. أخذته من المأوى في العطلة الأسبوعية».

يقول له يوسف، وهو ينظر إليّ، وأرى في عينيه دهشته من معرفتي بالأمر: «هذا جيد. لم أعرف أنك تريد كلبًا». أنظر بعيدًا لأداري الحمرة التي تتسلل إلى عنقي.

ينظر كيث إلى النافذة، التي غطاها فيشر جزئيًّا بالضباب من لهاثه.

يقول: «إنه في الحقيقة كلب أخي، لكن أظنّ أنه يحبني أنا أكثر»، فينبح فيشر من الداخل كأنه يؤيد كلامه. يزداد نباحه حين يرى كيث معنا، غرباء لم يشمّهم. يردف كيث: «أمي ليست سعيدة بالنباح، لكنها تقول إنه سيجعل الناس يفكرون مرتين قبل أن يقتحموا منزلنا»».

يسألني يوسف: «هل تظنين أن هذا سيقنع أبي؟»

أضحك فقط. توسلنا لنحظى بكلب ونحن في المدرسة الإعدادية، لكن أبي قال إنه سيفكر في الأمر فقط لو قمنا بجميع أعمال الفناء طوال صيف كامل. بعد اثنتي عشرة دقيقة من نزع العشب في الفناء الأمامي، قررنا أننا ربما نعاني حساسية، ولسنا في حاجة إلى كلب عمومًا.

نتخذ مواقعنا المعتادة على الرصيف. يخفت نباح فيشر فيما نبتعد عن منزل كيث. أبقي قدمي قريبة من العشب لأفسح لكيث مساحة أكبر. يبدو كأنه يريد الاقتراب من يوسف أكثر، وأشعر أنه يحاول إفساح مساحة لي.

ربما أبالغ في تحليل كل شيء.

لا نتحدث عن ليلة الويرهاوس، أو التعليقات الفظيعة التي كُتبت عن يوسف منذ تلك الليلة. لا نتحدث عنها، لكننا كلنا نفكر فيها. يملأ كيث الفراغ بمزيد من التفاصيل عن زيارتهم لمأوى الحيوانات، وليلة فيشر الأولى مع أسرته. تصير الأمور عادية تقريبًا حين نصل إلى مدخل المدرسة، حيث نفترق، كلٌّ في طريقه. أجد أسما ومونا في انتظاري عند خزانتي. يبدو على مونا الارتياح لظهوري أخيرًا، فيما تبدو أسما قلقة.

أسألهما: «ما الأمر؟»

تجيبني مونا: «خبر سيئ».

الفصل الثاني عشر

تقول مونا: «رسم أحدهم أشياء كريهة، وكتب 'إرهابي' على خزانة يوسف».

أقول: «لا، ماذا؟ أرجوكما، لا». كأن توسلي سيبعد الخبر. تشبك أسما ذراعها بذراعي.

تقول مونا: «آسفة جدًا يا يالدا، لكنه حقيقي. بإمكان الناس أن يكونوا بهذه القذارة».

تقول أسما: «هذا فظيع، كان يحاول فعل الصواب فقط. كيف كان رد فعل والديكما يا يالدا؟»

أجيبها: «لا أعرف كيف أصفه حقًا. إنهما منزعجان، لكن ليس واضحًا ممن. لم يعاقبا يوسف، لا بالحبس ولا بالحرمان من أيٍّ من امتيازاته. ومع ذلك، فإن نظرة الحزن في وجه أبي وارتباك أمي عقوبة كافية».

يرن جرس المدرسة ويدفعني إلى تيار الروتين اليومي. في الفصل، أكافح لأُبقي تركيزي مع المعلمين. يظل ذهني يعود إلى حقل ألغام التعليقات على منشور المقبلات، وكل ما حدث في الويرهاوس. أتساءل: ماذا سيحدث ليوسف؟ كيف سيؤثر هذا في والديّ؟ كلما نظر نحوي أحدٌ من المعلمين أو الطلبة أو أي أحد، أتساءل: ماذا سمعوا؟ وما رأيهم في أسرتي. هل تتفقد الآنسة مارتن الوقت في ساعة يدها حقًا، أم تتجنب النظر إليّ؟ هل تضحك ليونا لأنها قرأت تعليقًا سخيفًا عن يوسف؟ في الفترات

الفاصلة بين الحصص، أبحث عن يوسف في الأروقة، لكنني لا أراه. ربما يتجنب الجميع.

أمرّ في طريقي إلى حصة التاريخ بخزانة يوسف، وأرى بنفسي ما كانت مونا وأسما تتحدثان عنه. يوجد فرخ كبير من الورق الأبيض ملصق على الخزانة لتغطية الجرافيتي، لكنني أرى ما خلفه. أسوأ حتى مما أخبرتني به صديقتاي. رسم أحدهم وجه خنزير أيضًا، أعلى حرفين بخط أسود سميك: F وU. تأتي أسما من الاتجاه المعاكس في الرواق، وتراني أقف في منتصفه أنظر إلى الخزانة.

تقول لي: «لا تنظري». لكنني لم أستطع رفع عينيّ عن وجه الخنزير. يشبه الرسوم المتحركة، ويكاد يكون ظريفًا؛ ما يشعل غضبي، لأن لا شيء في هذا بريء أو ساحر. تشدني أسما من مرفقي إلى حصة التعيين المتقدم في الحكومة.

جرافيتي.

أسألها: «هل هو وايت مجددًا؟ إلى أي حد يصل غباؤه؟»

فتجيبني: «لا أعرف، لكن هذا ما سمعته أيضًا»، ثم تهمس في أذني قائلة: «ليذهب إلى الجحيم»، ما ليس من عادتها، لكنه يناسب مزاجي.

أقعد في الفصل وأشعر بانقلاب اليوم رأسًا على عقب. يقف الأستاذ ديمبسي في مقدمة الفصل، يراقبنا ونحن ندخل ونفتح كتبنا. يرتدي كنزة بيج عليها رقع جلدية عند المرفقين، وتبرز ياقة قميصه المنقوش من الرقبة. يمكنه، حين يملّ من الحديث عن قوانين التصويت والفصل بين السلطات، أن يعلّم الطلبة كيف يرتدون مثل مدرّس التاريخ.

يقول حين تهدأ الضجة: «أهلا بكم مجددًا»، ثم يُفتَح آخر كتاب على آخر مقعد.

ألمح أسما تنظر إلى مقلمتها المفتوحة. ممنوع دخول الفصل بهواتفنا، وهذا يعني أن علينا إخفاءها عن الأنظار فحسب. ألمس حقيبتي، وأدرك أنني نسيت هاتفي في الخزانة. تأخذ أسما قلمًا من المقلمة قبل أن تغلق سحابها وتنظر إليّ. تمنحني ابتسامة تعاطف.

يقول الأستاذ ديمبسي: «بليسي ضد فيرجسون. لنبدأ من حيث توقفنا من قبل. أسما، هل يمكنك إخبارنا بما حدث باختصار؟»

أتنهد بارتياح لأنه لم يخترني. لا يمكنني طرد كلمة «إرهابي» من رأسي. ألتفت حولي فجأة لأرى إن كان مَن رسم الخنزير يجلس قريبًا مني في الفصل. أنظر إلى يديّ اللتين تفضحانني دائمًا حين أرسم. ليس عليهما أدنى أثر لحبر. هل يدا من رسم الجرافيتي ملطختان؟ هل يدها هي ملطخة؟ خط اليد ليس مميزًا جدًّا. قد يكون خط أيّ شخص.

تقول أسما: «... لكن حين رفض هومر بليسي الجلوس في عربة مخصصة للسود، قُبض عليه».

يقول: «جيد. الآن، سأفتح التعديل الرابع عشر لنستخدمه مرجعًا، فيما تلخصين لنا معنى قاعدة السبعة إلى واحد في هذه القضية».

قرأتُ مسبقًا بالفعل للتحضير لدرس اليوم، لكن يبدو أنني لم أُحصّل شيئًا. أفتح كتابي على صورة بالحبر لرجلٍ أسود يرتدي بدلة، وقبعته على مقعدٍ مُبطَّن في قطار. يبدو بليسي

كأنه في طريقه إلى حفل زفاف. تتدلّى سلسلة ساعة جيبه من أزرار صدريه. يداه على حقائبه، ويبدو غير مكترثٍ بالرجل الأبيض الذي يقف أمامه، تجسيدًا للشخص الذي حاول طرد هومر بليسي من عربة القطار. استخدمَ الرسام خطوطًا قصيرة، وأغلبها أفقي. توجد بعض الانحناءات -عيني بليسي، والرأس المستدير لرضيعٍ تحمله امرأة بيضاء تنظر إلى بليسي باهتمام، لترى إن كان سيخضع للأمر أم لا. أُمرّر قلمي على الرسم من أعلى، دون أن أدعه يلمس الصفحة، أُعيد اختراعه بخطوطي أنا. أتساءل إن كان بإمكاني رسم شيءٍ ما مثل هذا، لكن بمزيدٍ من الانحناءات. تسحرني ساعة الجيب الخفية عن الأنظار، تحسب الزمن الذي يظل فيه بليسي ثابتًا في مكانه. تومض صورة في ذهني: عشرات الساعات تطفو في السماء كبالونات ضوءٍ مليئة بالهيليوم.

لكنني لن أُجرّب المزج بين أسلوب بليسي والساعات الطافية، لذلك أكتب تاريخ اليوم أعلى الصفحة في دفتري، وأحاول استعادة تركيزي. يلفت نظري شيءٌ ما في الرواق، أنظر لأجد يوسف يمرّ بباب فصلنا المفتوح. أين يتجه الآن، بعد خمس دقائق من بداية الحصة؟ أريد أن أنهض من مقعدي لأسأله، لكن الأستاذ ديمبسي يتنحنح بشكلٍ يُقنعني بالبقاء في مكاني، والنظر أمامي في الفصل.

حين يرنّ الجرس، أكون قد كتبت فقرة واحدة فقط عن التعديل الرابع عشر، ومذهب الحكم المنفصل القائم على المساواة مع ذلك. لا بدّ أن أسما لاحظت، لأنها ترمقني بنظرة اهتمام، ونحن

نغلق دفترينا وننهض عن مقعدينا. تسألني: «هل أنتِ بخير يا فتاة؟ في العادة ينفد حبر أقلامك في مثل هذه الدروس».

فأُجيبها: «لا أرغب في كتابة شيء»، وأبحث بعينيّ في الرواق في جميع الاتجاهات، بأمل إيجاد يوسف والاطمئنان عليه، لكنني لا أجده.

أسألها: «هل يمكنني استخدام هاتفك؟ أريد الاتصال بيوسف».

تجيبني عابسة: «للأسف، تركته في الخزانة». أكاد أُقسم أنها اختلست النظر إلى هاتفها في أثناء الدرس. هل كانت تحدّق إلى مقلمتها فحسب؟ ربما كنتُ مخطئة. تردف: «سأذهب معك إلى خزانتك إن شئتِ. أمامنا وقت إنْ أسرعنا».

فأُجيبها: «سنتأخر نحن الاثنتان هكذا. هل يمكنك إخبار الآنسة كوبفير أنني اضطررتُ إلى الذهاب إلى الحمّام؟»

فتقول: «نعم، بالطبع». تبدو سعيدة لأن بإمكانها فعل شيءٍ ما لي، ويسعدني وجودها معي في أغلب المواد. لا أعرف موقف أغلب زملائي مما حدث في الويرهاوس تلك الليلة، ولا أعرف: هل أَتخيّل أن الجوّ مشحون من حولي، أم إنه كذلك بالفعل؟

أُسرع خُطاي. خزانتي في نهاية الجانب الآخر من المدرسة؛ ما يعني أن عليّ المرور بالمدخل الرئيس. يوجد حمّام على مسافة عدة أبواب من فصل الآنسة كوبفير، لذلك لن تتسامح معي لو تأخرتُ على الحصة.

أُوسِّع خُطاي، وأوجّه كتفيّ لأتحرك سريعًا وسط زحام الطلبة في الرواق. أَمرُّ بمكتب إدارة المدرسة، وأُؤكّد لنفسي أن لا أحد سيلاحظ غيابي عن المكان الذي يجب أن أكون فيه الآن، كأن

الإداريين يحفظون جدول حصصي ويُميزونني وسط حشود الطلبة. لو حدث ذات مرة وارتكبتُ جريمة بالفعل، فالأغلب أنني سأُسلِّم نفسي لأتجنب الرعب من القبض عليّ.

أَختلس النظر سريعًا إلى مكتب الإدارة. لحسن الحظ، ينشغل الناظر بالتحدث إلى مجموعة من الطلبة. أتوقف فجأة وأنا أَمرّ بالمكتب. هل هذا وايت الذي في الداخل؟ أتمنى ذلك.

يدفعني أحدهم من الخلف، فأتعثر. تقول فتاة: «آسفة جدًّا!»، وتنحني لتحمل الكتاب الذي سقط منها.

أقول لها: «إنه خطئي»، وأبتعد عن مسار المرور نحو الحائط. تهز رأسها وتُواصل سيرها في الرواق.

أتراجع خطوتين، وأنظر من زجاج النافذة. يميل الناظر توردوف إلى حافة مكتبه وذراعاه معقودتان. يوسف وكريس وليام يجلسون على ثلاثة كراسي أمامه، ظهورهم للباب. ترتيب جلوسهم كأنهم على المسرح. ليام في المنتصف، على مسافة بوصات قليلة خلف الاثنين الآخرين. كريس إلى اليمين، الأقرب إلى الباب.

أقضي الدقيقتين التاليتين أُحاول ألّا يبدو عليّ أنني أسترق السمع. تمسح عيناي الرواق، وأنا أقف بكتفيّ إلى الجدار، أُحاول التقاط أيّ جزء من المحادثة. لكن ثرثرة المارّة تملأ الرواق. حين يُعلن الجرس عن بدء الحصة، أعرف أن عليّ الذهاب. سيؤدي دخولي الفصل متأخرة إلى تحوُّل كل الأعين إليّ. لكن يمكنني التفكير في كلمات قليلة، وكذلك يمنعني فضولي من الذهاب.

«غير مسؤولين... الموسيقا لا ... خاب أملي...».

أقترب أكثر، وأُحاول السمع بتركيز.

«ماذا عن خزانتي؟ هل تحدثت إلى وايت حتى؟» صوت يوسف واضح. نبرة صوته تعلو رغمًا عنه لانزعاجه حقًّا.

«.... هذه مسألة أخرى... افتراضات... المدرسة المتوسطة... تأثير سلبي».

«هذا ليس عدلًا!»

أعرف مدى حب يوسف لتعليم الأطفال. أريد أن أدخل وأخبر الأستاذ توردوف أن كل هذا فوضى كبيرة، لكن يوسف ليس من بدأها.

وأنا أُفكّر: هل أدخل أم لا؟ ينفتح الباب. فأُدير ظهري للمكتب، وأُحاول ألّا يبدو عليّ أنني كنت أسترق السمع.

يخرج كريس أولًا. ينظر إليّ بوجهٍ بلا تعبير واضح.

أسمع صوت الناظر في الرواق مع خروج يوسف من مكتبه: «يؤسفني أن يُؤثِّر هذا في سنة تخرُّجك يا يوسف. يمكننا التحدث مجددًا غدًا». ثم يخرج ليام مندفعًا كالعاصفة، فكه مضغوط، وشفتاه مزمومتان في خط رفيع بتجهُّم.

يناديه يوسف: «يا ليام!»، لكنه لا يلتفت إليه. يبتعد في الرواق وينعطف دون كلمة. يستدير يوسف إلى كريس الذي يُعلّق حقيبته على كتفه.

يقول كريس ليوسف قبل أن يقول الأخير شيئًا: «ليس الآن... ليس الآن فحسب».

حين ينعطف كريس أيضًا، يلتفت يوسف إليّ. يبدو مهزومًا.

أسأله بصوت خافت: «ماذا حدث؟ ماذا قال الناظر؟»

يَزُمّ شفتيه، ثم يُجيبني: «قال إن للأفعال عواقب، وإنني يجب أن أعتذر في صحيفة المدرسة».

«وماذا عن دروس المدرسة المتوسطة؟»

«كان تحذيرًا. لا يريد معلم الموسيقا في المدرسة المتوسطة أن يتصل به آباء منزعجون».

«هذا سخف. إنهم يحبونك كمدرس. وما حدث في الويرهاوس كان بسبب لارسون هذا. هل سمع الناظر ما قاله؟»

يُومئ برأسه.

فأسأله: «وماذا قال؟»

فيُجيبني: «قال إنه ليس من المواطنة الصالحة أن تلوم الآخرين على أفعالك. وقال أيضًا إن رقائق الذرة أحيانًا ليست سوى رقائق ذرة... أو شيئًا ما كهذا».

أقول: «يا لها من أفكارٍ عميقة»، ثم أسأله: «وماذا عن ليام وكريس؟»

«حانقان لتورطهما في هذا، لكنهما على الجانب الآمن. لم يُمسكا المايكروفون تلك الليلة».

أقول له في محاولة لطمأنته: «حسنًا. إنْ لم يقعا في مشكلات، فسيتخطيان هذا الأمر خلال أيام قليلة. ليست نهاية العالم».

«نعم. لا أعرف. اتصل مدير الويرهاوس بليام، وأخبره بأنه ليس مُرحَّبًا بعودتنا إلى هناك».

اتضح الآن سبب غضب ليام. لم يكن العزف في الويرهاوس هو هدفهم النهائي، بل توقّعوا أن يساعدهم على إقامة حفلات أخرى حقيقية ومدفوعة الأجر، هناك وفي أماكن أخرى أيضًا، ما يُعدّ مستحيلًا تقريبًا لطلبة في المدرسة العليا.

«وماذا عن خزانتك؟»

يتنهد قائلًا: «خزانتي؟ سيُعطونني خزانة جديدة، وسيُطلون القديمة. ما حدث قد يكون في أي وقت خلال العطلة الأسبوعية، لذلك فليس لديهم أدنى فكرة. أنكر وايت الأمر، وقال إنه كان في بيت جده طوال العطلة الأسبوعية، على بُعد ثلاث ساعات من هنا».

«ستلقي أمي على توردوف محاضرة ملحمية».

«لا داعي لإخبارها، يا يالدا».

أُحدّق إليه بتركيز، وأسأله: «لكن ألا ينبغي...».

يُقاطعني قائلًا: «إنهما مستاءان بما يكفي. لا ينقصهما معرفة أن أحدهم أثار الأمر في المدرسة أيضًا. كل هذا كثير بما يكفي».

أسمع في صوته ألمًا شديدًا. ربما بدأ يندم على ما فعله. أريد أن أحتضنه، لكنني أخشى أن يزداد الأمر سوءًا.

فأقول: «لا بأس يا يوسف. لقد سمعتها بنفسك، قالت إن كل شيء سيكون بخير. وهما لم يجزعا. وقد أخرجت كل تلك الشموع من أجل الليلة، لذلك فقد تخطّت الأمر بالفعل».

يركل الأرض بطرف حذائه الرياضي. انفك رباط حذائه الأيسر. أريد أن أُخبره بأن يربطه كي لا يتعثر فيه ويَسقط، لكن يبدو أن هذا آخر ما يقلقه الآن.

يقول: «لا أعرف إن كنتُ سأتحمّل كل هذا الآن».

أقول: «لكنه...».

فيُقاطعني قائلًا: «لقد تأخرتِ على حصة الإنجليزية، وعليكِ أنتِ أيضًا الذهاب إلى فصلك»، ثم يدير لي ظهره ويسير مبتعدًا.

أفكّر، حين أقعد في فصلي وأُحاول التركيز مع معلمتي، أنه سار في اتجاهٍ آخر غير فصله.

الفصل الثالث عشر

«يالدا!»

التفتُّ مدهوشةً من سماعي صوت كيث يناديني. باستثناء صديقتَيّ، شعرتُ أن الجميع في المدرسة يحاول تجنُّبي، وقد غادر يوسف قبلي هذه الظهيرة ليذهب إلى كريشندو. من عادته التأخر على مواعيده، لكنه لا يحب التأخر على الأطفال الذين يُعلّمهم هناك. أظنّ أنه يحب نظرتهم له بوصفه أكبر منهم بما يكفي ليبدو رائعًا، لكن ليس بما يكفي ليعتبروه عجوزًا.

أقول: «مرحبًا»، وأنتظر وصوله إلى حيث أقف على الرصيف. لم أبتعد كثيرًا.

نمتُ قرابة ساعتين فقط ليلة أمس. في الثالثة صباحًا تقريبًا، يئستُ تمامًا من النوم لدرجة أنني شاهدتُ مقاطع حيَل على الإنترنت، وعددتُ تنازليًا جدول ضرب سبعة، وكررتُ كلمة «استرخي» لنفسي حتى لم تعد تبدو كلمة حقيقية، ثم تخيلتُ أن أطرافي بلا وزن. لذلك أشعر بثقل ذراعيّ وساقَيّ مضاعفًا اليوم، كأنني أسير في الماء.

يسألني: «هل أنتِ بخير؟»

أجيبه كاذبة: «نعم.. ظننتك غادرت بالفعل».

يومئ برأسه دون أن يقول شيئًا؛ ما اعتبره ذوقًا. ثم يقول: «لقد رأيت خزانة يوسف».

أومئ برأسي.

فيضيف: «يؤسفني هذا، يقول الجميع إنه وايت».

فأقول: «يبدو أنه ليس هو مع هذا. كان ذلك آخر شيء يحتاج إليه يوسف الآن».

سمعنا اليوم إعلانًا في ميكروفون المدرسة قبل جرس انتهاء الحصة الأخيرة بدقائق، لكنه كان تذكيرًا للجميع بأن تشويه ممتلكات المدرسة سيؤدي إلى عقوبات قاسية، وأنه لا تسامح مع خطاب الكراهية في مجتمعنا المدرسي.

يقول كيث: «نعم، سمعتُ أن وايت قال إنه لم يكن هنا في أثناء العطلة الأسبوعية. لا أفهم لماذا قد يرتكب شخصٌ ما هذا الفعل الشائن. على الناس أن يهدؤوا قليلًا. الجميع يعرف أن يوسف ليس هكذا».

أسأله: «ليس ماذا؟»

فيُجيبني قائلًا: «ليس رجعيًا أو شيئًا كهذا»، كأن هذا مفهومٌ بالتأكيد. ثم يُردف: «لا يبدو عليكما أنكما... متديّنان».

فأسأله: «هكذا، وماذا يبدو علينا إذن؟»

يضحك مُرتبكًا، ثم يعضّ شفته، كأنه يحسب كلماته جيدًا قبل أن يُجيبني قائلًا: «تبدوان طبيعيَّين، عاديَّين. أقصد ...».

ينفتح الباب الأمامي لمنزله، وتخرج أمه إلى الشرفة من دون سترة. تمسك بطوق فيشر، الذي يشدّها إلى الخارج بقوة، يريد أن يقفز إلى رجلينا. تبتسم وتلوّح لي، فألوّح لها. لستُ متأكدة ممّا يجب أن أفعله. أحيانًا تبدو ودودة، لكنني أشعر أحيانًا أخرى أنها لا تحب رؤيتي. أريد أن أسأل كيث عن شعورها نحوي، لكنني لا أريد أن أبدو مُفرطة الحساسية أيضًا.

فيشر، من جانبه، لا تَصعب قراءته. تغمره السعادة لرؤية كيث.

أقول: «العاديّون لا يرتدون الملابس الرسمية. عمومًا، يبدو أن أحدهم في انتظارك».

يقول: «هذا حقيقي». ولا أعرف هل يقصد كلامي عن العاديين، أم عن فيشر. يُودّعني قائلًا: «أراك لاحقًا إذن؟» فأُجيبه: «نعم، لاحقًا». أفرد ظهري وأسير بسرعة قليلًا حتى أبتعد مسافة.

هل حدث شيء ما؟ أعيد المشهد في ذهني لأرى وجهه. ربما قسوت عليه. لا أتذكر أنني شعرت بمثل هذا الارتياح من قبل لعودتي إلى البيت. تستقبلني في الداخل رائحة الرمان.

أسمع أمي تقول: «يالدا، هل هذا أنتِ؟»

أجيبها: «نعم يا أمي».

تبدو أقرب إلى حالتها الطبيعية، التي عليها القيام بأشياء كثيرة جدًّا خلال العطلة، بالطبع. في صغري، كنتُ أظن أن هذه الليلة سُمّيت على اسمي، وليس العكس. كنتُ أتخيل الأسر الأخرى المشابهة لأسرتي تتحلق حول الشموع، وتزين الموائد احتفالًا بي أنا. حتى الآن، وأنا أعلم أنني في هذه الليلة شخصية مجهولة تمامًا مثل أي شخص آخر، ما زلتُ أشعر ببعض التميّز.

تقف عند باب المطبخ، مرتديةً بنطالها الجينز وسترة قرمزية، تجمع شعرها إلى الخلف في عقدة، وتؤطّر خصلاته السائبة المموجة جبينها. تسألني: «كيف كانت المدرسة؟»، وعيناها تنظران إلى يساري، فأنظر إلى ما تنظر إليه، وأجد ما أعدّته. غطّت طاولة غرفة المعيشة بمفرش أحمر مُطرّز بخيوط ذهبية، ورصّت عليها نصف دزينة شموع مدببة وبأطوال مختلفة، في

دائـرة حـول حامـل كُتـب خشـبي، عليـه كتـاب قصائـد الشـاعر الصـوفي الراحـل منـذ زمـن طويـل، حافـظ. تُؤطّـر الأشـعار فـي كل صفحـة رسـومٌ متقنـة لكرمـات وبراعـم نصـف متفتحـة لزهـور التيوليـب. أسـتخدم بعـض هـذه الأنمـاط فـي رسـوماتي أحيانًـا. رسـمتُ ذات مـرة فتـاة تقـف علـى جـذع شـجرة، والكـرم المُزهـر ملتـف فـي راحـة يدهـا كإعصـار صغيـر. وضعتْ أمـي أيضًـا صحـن رمّـان، تلمـع حباتـه الياقوتيـة الصغيـرة فـي الضـوء المائـل لشـمس الظهيـرة المُنثال مـن النافـذة.

أُجيبهـا قائلـة: «كانـت جيّـدة». أعـرف مـن التحضيـرات أنهـا ظلـت مشـغولة، ويسـعدني أنهـا كانـت تقـوم بـكل هـذا، ولا تقـرأ التعليقـات علـى وسـائل التواصـل الاجتماعـي أو تتحـدث مـع الناظـر تـوردوف عـن الجرافيتـي المُثيـر للكراهيـة علـى الخزانـات.

«جيّـدة؟» تُكـرّر مـا قلتـه. تُريـد المزيـد دائمًـا، لكنهـا اليـوم لديهـا دافـع لفضولهـا الزائـد.

فأُجيبهـا: «نعـم». ثـم أُردف لإبقـاء المحادثـة فـي الجانـب الآمـن: «يبـدو هـذا رائعًـا حقًـا يـا أمـي. مـن أيـن أتيـتِ بهـذه الشـمعدانات؟»

فتُجيبنـي، وهـي تطبـع قبلـة علـى جبينـي: «أليسـت جميلـة؟ مـن محـلّ التحـف القديمـة بجـوار المطعـم... يصعـب تصديـق أنكمـا سـتذهبان إلـى الجامعـة العـام المقبـل. أتمنـى أن تظـلّا تأتيـان إلـى البيـت فـي كل يـوم يالـدا».

قدّمنـا، أنـا ويوسـف، فـي جامعـة الولايـة، وقدمنـا أيضًـا، كلٌّ علـى حـدة، فـي خمـس كليـات خاصـة مختلفـة. أبعـد جامعـة قـدّم فيهـا يوسـف كانـت فـي كاليفورنيـا، وأبعـد جامعـة قدّمـتُ فيهـا أنـا كانـت فـي

رود آيلاند. وعلى الرغم من كل ذلك، فإنني لا أعرف أين أريد أن أكون. لم أبتعد عن أسرتي لأشهر قط، لكنني لم تُتح لي الفرصة أيضًا لتحويل فني إلى شيءٍ ما حقيقي. قدّمتُ في الكليات التي لديها برامج فنون قوية فقط، ومع ذلك أخبرتُ والديَّ أنني أريد دراسة علم النفس. المزج بينهما منطقيٌّ من وجهة نظري، لكنني أعرف أنه قد لا يكون كذلك من وجهة نظرِهما؛ لذلك أذكر دائمًا أن تكلفة العلاج النفسي تصل إلى مئتي دولار في الساعة؛ ما يجعل أبي يسعل وهو يتناول حبات الزبيب والمكسّرات.

لسماع مشكلات الآخرين؟ يمكن لأمك أن تصبح مليونيرة من خالتك، قال، قبل أن يقترح للمرة المئة أنني سأكون طبيبة عظيمة، وبدأ محاضرته القصيرة عن الرهون العقارية، والتأمين الصحي، والضرائب. قدّم يوسف، على الجانب الآخر، في الجامعات التي لديها برامج موسيقية قوية فقط. ويتمنى والدانا، بعد تعاملهما مع محامي الهجرة والعقارات، أن يدرس يوسف القانون. ظللنا نذكرهما أن قضاء أربعة أعوام في دراسة مواد لا نحبها سيكون خطأً فادحًا، لكنه مؤقت فحسب.

أُجيبها، «سنعود في العطلات الشتوية، أو ربما سيبقى أحدنا هنا»، وأحاول ألا تظهر لهفتي على مغادرة هذه البلدة. الحق أنني تقدّمتُ لجامعات خارج الولاية، ليس لأنني أريد مغادرة والديَّ أو البلدة حتى، بل لأنني أريد الذهاب إلى أيِّ مكانٍ آخر.

تقول بحزن، «أعرف، أعرف. ما دمتما ستعودان، هذا هو كل ما يهم». تبدو عليها الكآبة، وبعد كل ما حدث اليوم، يصيبني

بعضٌ منها أيضًا. بدا يوسف بائسًا في المدرسة. لم أره هكذا منذ... في الحقيقة، لا أظن أنني رأيتُه هكذا أبدًا.

أتساءل متى سيعود إلى طبيعته.

تسألني: «يالدا هل أنتِ...».

فأُجيبها قبل أن تُكمل: «سأتناول شيئًا ما لاحقًا يا أمي. لستُ جائعة الآن».

في غرفتي، أترك حقيبتي على الأرض وأُلقي بنفسي على الفراش. أتساءل إن كان كيث قد انتهى من تمشية فيشر الآن. ربما عاد إلى منزله، واستقبلته أمه بأسئلة عن يومه، وربما عني حتى. سيكون سؤالها منطقيًا، وينتابني الفضول لمعرفة إجابته، والقلق أيضًا.

وماذا كان يقصد حين قال إننا لا نبدو متديّنين؟ هل سيظل على رأيه هذا لو رآني بالحجاب في المسجد؟

تبدأ معدتي بالفوران والانقباض لمجرد الفكرة. لا أعرف لماذا أفعل هذا لنفسي. كيث ليس سوى فتى يسكن في شارعنا. نسير معًا من المدرسة وإليها فقط لأنه صديق يوسف، ولأننا نسكن في الشارع نفسه. سننهي المدرسة العليا في شهر يونيو، وفي الخريف سنبدأ دراستنا الجامعية في أماكن مختلفة، وربما لن أراه بعد ذلك أبدًا.

أقول لنفسي: «ليست مشكلة كبيرة». ثم أدفن وجهي في وسادتي لكتم الزمجرة.

الفصل الرابع عشر

أضع قلمي على الدفتر حين يُضيء غرفتي كشافُ سيارة، وأسمع صوت باب الجراج ينفتح. عاد يوسف. أخيرًا. أنظر من النافذة لأجد أنني مخطئة. يدخل أبي بسيارته إلى الجراج، وأنا أنظر في ساعتي. لا بد أنه ترك شخصًا آخر يغلق المطعم بدلًا منه الليلة، ما لا يُعد إشارة جيدة.

كان على يوسف أن يعرف هذا. صنعُ مقالبه في البيت شيءٌ مختلف تمامًا عن صنع مشكلات خارجه تصل إلى مستوى المقاطعة. هل فعل ما فعله كموقف حقًّا، أم كان يحاول جعل نفسه مركز الانتباه؟ طالما كان الطفل المضحك على مائدة الغداء. يجعلني أبدو صامتة كفزّاعة بالمقارنة به. مع ذلك، يقول كيث إن لديّ حسَّ فكاهة جافًا، يبدو أكثر إتقانًا ونضجًا.

كيث مرة أخرى. يجب أن أكفَّ عن التفكير فيه.

لم يكن يوسف مخطئًا. ما قيل تلك الليلة كان عدائيًا وخبيثًا، ولم يأتِ من فراغ. ظهرت عدة لافتات أفنية عدائية في الأنحاء من قبل. في الغالب، لا ترحب بعبور المهاجرين للحدود من مكسيكو، وبدا أنها تزداد مع قدوم اللاجئين من أفغانستان. والأمر لا يقتصر على اللافتات فحسب. في الأسبوع الماضي، ذهبتُ أنا وأمي إلى متجر «تارجت» لشراء شموع لليلة، وكنتُ أُحضِر مبيّض القهوة الذي يحبّه أبي، حين وصل إلى سمعي شكوى امرأة لأحدٍ ما على الهاتف من ندرة لبن الرضع في

المتجر. قالت: جعلونا نبدو كبلد في العالم الثالث أيضًا. فتحوا الأبواب وانظر ماذا حدث.

أشعر ببرودة في قدميّ، فأرتدي جوربين ثقيلين وأذهب إلى غرفة المعيشة. أجد أبي يُبدي إعجابه بما أعدّته أمي. أطفأتُ الأنوار، فتوهّج في الغرفة ضوء شموع من كلّ حجم وشكل. ما رأيته منذ قليل لم يكن سوى البداية. توجد الآن أضواء شاي، وشموع طويلة مدببة، وشموع سميكة بسِلال البامبو، والصغيرة في الصفائح المستديرة التي اخترتُها. متناثرة في غرفة المعيشة كالنجوم في سماء الليل.

أقول لأبي: «سلام»، فينظر إليّ ويفتح ذراعيه ليحتضنني. أحتضنه سريعًا، فأشم رائحة الكمون والبصل المشوَّح، ودخان الشواء ليوم طويل في المطبخ.

يقول لي: «نور إي شاشم»، نور عيني.

فأقول له: «ظننتك يوسف».

ينظر إلى ذراعيه وصدره، ويلمس وجهه ويقول مازحًا: «هل أبدو صغيرًا اليوم؟» كأن يوسف لم يُسبب أدنى مشكلة. لكنني أراه يتذكّر، وتخبو ابتسامته سريعًا، مثل موجة صغيرة تمحو قلبًا مرسومًا على الرمل.

يقول: «أعدّت أمك مائدة رائعة». على المائدة، إلى جانب الرمان وكتاب قصائد حافظ، يوجد طبق من شرائح البطيخ الرفيعة وصحن فستق صغير.

يفتح أبي الكتاب عشوائيًا ويقرأ أبياتًا قليلة. اللغة حيوية جدًا، ومنمقة بدرجة لا أفهمها.

أقول له: «الترجمة من فضلك»، فيبتسم قائلًا: «ستُدمّر الترجمة المعنى».

أقول: «أرجوك».

يطيعني كعادته.

يترجم قائلًا: «لا تُحدّثني عن الحلوى والسكر، وما زال مذاق شفتيكِ الحلو على شفتي...».

يسكت فجأة، ويُغلق الكتاب. ثم يقول: «أظنّ أن هذا كافٍ»، فتضحك أمي. تقف عند باب غرفة المعيشة وفي يدها كوب ماء. تقول: «حافظ شاعر رومانسي».

أسألهما: «ظننت أن المحبوب يجب أن يكون الله».

ظني أنني أفضل هذا، لأنني أخجل عند سماع أبي يتحدث عن الشفاه الحمراء كالياقوت.

تقول بمرح: «غالبًا، لكن أحيانًا، يكون أحد مخلوقات الله الجميلة... قد لا يوجد فارق، الأمر يعتمد على القارئ».

الكلمات في الدارية ليست مذكرًا أو مؤنثًا كما في اللغات الأخرى. لا تمييز حتى بين الضميرين «هو» و«هي»، لذلك يتّسع المجال للتفسير. أجد هذا تقدميًا جدًّا.

في طبق تقديم صغير له قاعدة، كعك اللوز المرشوش بالسكر البودرة والقرفة، وعلى كلا جانبي الطبق آنية زهور صغيرة بورود حمراء، كغلافي كتاب.

على خلفية كنبنا ومساندنا التي بلون قشر البيض، والجدران البيضاء بياضًا خالصًا، تبدو مائدة «يالدا» كقطرة دم على جليد جديد. تسري في عمودي الفقري قشعريرة، وأنظر إلى الخارج. بداية الشتاء باردة، لكنها جافة.

يسأل أبي: «ألم يعد يوسف بعد؟»

تجيبه أمي، وهي تخرج من المطبخ وتجفف يديها بمنشفة المطبخ: «سأرسل له رسالة. سيعود سريعًا، إن شاء الله». كعادتها، تختم كلامها بـ«إن شاء الله»، لأن خططه قد تختلف، والغرور يُعدّ خطِرًا.

ينظر أبي إلى ساعة الحائط، يتفقد هاتفه، يتنهد ويقول: «سأستحم وأغير ملابسي». يتمتم وهو يتركنا قائلًا: «لو كنت فعلت هذا مع أبي، رحمة الله عليك يا أبي...». على يوسف أن يدخل من الباب الآن، وإلا سيُلقي أبي بمحاضرة ملحمية غير مسبوقة في حياتنا. كلما ازداد غضبه، عاد فيّ الزمن إلى الوراء لإثبات وجهة نظره. حين سهرتُ ذات ليلة لوقت متأخر لمشاهدة موسم كامل من مسلسل «عقول إجرامية»، عاد فيّ الزمن إلى كم الألعاب التي اشتراها لي وأنا طفلة كي لا يصل إلى عقلي عفن التلفاز. وعاد فيّ الزمن إلى أجيال حين غلب النوم يوسف وتركه وحده في المطعم وكانت ليلة مزدحمة، إلى حكاية جدنا الأكبر الذي عمل مساعد نجار وهو في الثامنة من عمره ليعيل أسرته. سيأتي الليلة بحكايات أجداد الأجداد لإثبات وجهة نظره.

تصفر الغلاية فندخل أنا وأمي المطبخ كأننا مستدعتان. أخرج الأكواب من الخزانة، فيما تضع أوراق الشاي الجافة في ترموس ثم تصب الماء مغليًا. لا أشرب الشاي عادةً، لكنني قد أشربه الليلة لأبقى ساهرة.

تقول وهي تهز رأسها: «كان أفضل حالًا حين كان معنا في المطعم». نسيت كم كره يوسف المطعم. كاد يطير من السعادة يوم أخبراه أنه بإمكانه البحث عن عمل مؤقت آخر.

أُخرِج هاتفي من جيبي الخلفي، وأرسل إليه رسالة. أفهم أنه ليس في مزاج مناسب لتناول الرمان، لكن التأخر في العودة الليلة سيضايقهما بالتأكيد.

[الأفضل لك أن تكون في طريق العودة].

بدأت أنزعج أنا أيضًا. من المنطقي أنه حين يخطئ يوسف، يتحمل مسؤولية أخطائه وحده، لأنه هو من وضع نفسه في المأزق، لكن هذا لا يحدث. كأننا توأمان ملتصقان معنويًا، أجدني أقف معه في المأزق نفسه، بل ويقسو عليّ والدانا كي لا أرتكب الخطأ نفسه.

عمله في «كريشندو» أحد الأمثلة. لأن كلًا منا، أنا وهو، يريد عملاً مؤقتًا آخر بعيدًا عن المطعم. بدا استديو الموسيقا رائعًا حتى بدأ يأخذ موسيقاه بجدية حقيقية ويتحدث عن دراسة الموسيقا كتخصص رئيس في الجامعة حتى. في حين تصرفا كأنني بعت كليتي اليسرى في السوق السوداء حين أخبرتهما أنني سجلت في تطبيق ما لعمل في تمشية الكلاب.

أحدق إلى شاشة هاتفي. ما زال لم يجب.

تسألني أمي وهي تغلق الترموس: «هل أنهيت فروضك المدرسية يا يالدا؟ ظللتِ طوال الأسبوع تسهرين حتى وقت متأخر، أنت في حاجة إلى النوم، أتعرفين؟»

هل كانت تتجسس عليّ.

قلت: «ظننتك تريديننا أن نسهر ونسكر بالأشعار».

تزجرني قائلة: «لا تقولي نسكر».

أقول لأغيظها: «لكن هذا ما يقوله حافظ».

فتقول بإصرار: «يالدا، أنت تعرفين أنها في الشعر تعني سعيدًا وجريئًا، لا تجعلينه يبدو فظيعًا جدًّا هكذا». حقًّا، كلمة السُّكْر في الإنجليزية لها وقع حوادث السيارات، واصطدام الصفيح وتهشم الزجاج.

تميل إلى المنضدة وتقول: «الليلة مختلفة». خلفها الأطباق النظيفة على الصفاية. إحدى مميزات أننا نمتلك مطعمًا هي وجود طعام في البيت دون أن يمتلئ الحوض بأواني الطهي والأطباق. لدى أبي في المطعم شخصان يساعدانه في الطبخ. وحين تعد طعامًا لأربعين شخصًا، ليس من المنطقي أن تعد وجبة أخرى لأربعة في البيت.

تتحدث أمي بالدارية وهي تدهن يديها بكريم مرطب. «كانت تلك أفضل ليالي حياتي حين كنت فتاة. كان خالي يشتري لي ألعابًا صغيرة، ونجلس كلنا أنا وأولاد خالاتي مع جدتي لتحكي لنا الحكايات، ورائحة النار الهادئة. كانت ليالي خيالية، لو كنا نعرف...».

ثم تهز رأسها لتدع نهاية الجملة تفلت منها.

يضيء هاتفي فأتفقده لأرى كم اقتربت عودة يوسف، لكن الرسالة ليست منه، بل من مونا، لي ولأسما في محادثتنا الجماعية.

[النجدة، إنْ اشتعلت تلقائيًّا في أثناء
اختبار الكيمياء، فسأنجح تلقائيًّا؟
إن «نعم»، فكيف يمكن تهيئة الظروف
المناسبة للاشتعال التلقائي؟
ليس لدي أدنى فكرة بالتأكيد].

ربما كان أقل تقدير نالته مونا في حياتها هو جيد جدًا. ومع ذلك، تظل تقرع أجراس الإنذار قبل أي امتحان؛ ما كان سيبدو مستفزًا لو لم تكن مستمتعة ولو لم نعلم أن توترها هذا سمة أصلية فيها. تبدو الدراسة معها مثل معسكر تدريبي. نشعر أنا وأسما بواجبنا في أن نخلق لها توازنًا ما، لذلك نحرص على أخذ استراحات كافية لتناول وجبة خفيفة، وفواصل للاستماع إلى الموسيقا. كأننا نحن الهلام وهي زبدة الفول السوداني.

أكتب لها:

[جلسة دراسة نهاية هذا الأسبوع؟]

فتكتب فورًا:

[متى وأين؟ لا تقولي المكتبة. قضيت هناك وقتًا كافيًا، عرضوا عليّ تسمية كرسي باسمي. كأنني أحد الرعاة أو المؤسسين].

أقترح:

[ماذا عن رووم؟]

تجيبني بوجه أصفر يبتسم بارتياح وإبهام بني مرفوع. لا أحدد أيهما يمثلني أفضل، لأنني حتى الآن بلون صفار البيض. ثم تسأل:

[السبت، الرابعة مساء؟]

تنضم أسما حينها. تدهشني حين تكتب:

[ظني أن البيت سيكون أفضل].

منذ متى والبيت أفضل من الخروج والجلوس في مقهى؟ كانت أول من ذهب إلى رووم فينا.

تكتب مونا:

[بإمكاني هناك طلب ليمون مثلج].

تكتب أسما:

[التشتت أقل في البيت].

تقول أمي: «اتصلي بأخيكِ من فضلك يا يالدا، كان يجب أن يكون في البيت الآن».

فأجيبها: «أرسلت إليه رسالة منذ قليل».

فتقول بصوت مرهق: «اتصلي به يا يالدا».

الرسائل بالنسبة إليها أقل وسيلة تواصل فاعلية، وتنكرها كثيرًا كوسيلة تواصل أساسًا.

أتصل بأخي واسمع الجرس، مستعدة لسماعه يقول أنه تلقى رسالتي وأنه في طريقه -لكنه لا يجيب. تأخر الوقت وهذا ليس من عادته. أقول لنفسي لا تتخيلي حادث سيارة. إنه بخير. فقط لا يستعجل العودة إلى البيت لتلقي أي سؤال عن الويرهاوس أو المدرسة.

أقول لأمي: «في الغالب يقود السيارة»، فتومئ برأسها لكنها ليست متأكدة.

نذهب إلى غرفة المعيشة وأتكور على أريكة، وقدماي مضمومتان أسفلي. تجلس أمي إلى جانبي وديوان أشعار حافظ على حجرها. تفتحه وتبدأ القراءة. يعود أبي إلينا، مرتديًا كنزة رياضية وبنطالًا رياضيًّا يجعلانه يبدو مدربَ فريق كرة قدم للأشبال.

يقول: «لم يأت بعد؟». ويذهب إلى خزانة الملابس ليأتي بهاتفه من جيب سترته. ينقر على الشاشة وأسمع صوت تحويل اتصاله إلى البريد الصوتي.

يقول: «مع أصدقائه مجددًا؟ الله وحده يعلم ماذا يفعل هؤلاء الفتية في هذا الوقت من الليل. هذا كثير جدًا. يالدا، ألا تعرفين أين هو حقًا؟»

أجيبه: «لا»، وتشعرني نظرته بفشلي في واجبي كأخت. فأضيف: «لا يجيب اتصالاتي ولا رسائلي أيضًا».

يصب لنفسه كوب شاي ويسير إلى النافذة. يده الأخرى في خصره. أكاد أسمع المحاضرة التي تعصف في رأسه. تمرر أمي أصابعها على بيت شعر وتقرؤه بهمس. لا أعرف إن كان الشعر أم يوسف أم ضوء الشموع ما يجعل عينيها تدمعان.

أسألها: «أتريدين قراءة شيء لي ونحن ننتظره؟». علينا التنفيس عن بعض هذا التوتر.

تنظر إلى ساعة يدها وتهز رأسها.

تقول: «أخوكِ ليس هنا». فأقول: «لكن أنا هنا». أحيانًا يبدو أن بيتنا يدور حول يوسف. ربما هذا هو نظام كل الأسر، مثل الكون، كواكب تدور حول شموس.

تجيبني وهي تمسك بهاتفها: «سأتصل به مرة أخرى».

أعود إلى غرفتي، أشعر بقلق. كل من في البيت قلق ومنزعج ولا يمكنني فعل شيء. ويوسف بدلًا من العودة، يقدم لنا فقرة رعب.

أرقد في فراشي وأحدق إلى الرسالة الأخيرة التي أرسلتها له، ما زال لم يجبني.

الفصل الخامس عشر

أستغرق دقيقة لأدرك أنني سقطت في النوم على بطانيتي. الظلام في الخارج مثل القبو، لكن الرواق مضاء، وأسمع أصواتًا. أدخل غرفة المعيشة مترنحة لأرى ماذا يحدث.

يسير أبي في الغرفة روحة وجيئة بيد تمسك الهاتف إلى أذنه والأخرى تفرك قفاه. تقف أمي قرب المدفأة، وذراعاها معقودتان وجبينها متغضن بقلق. ما زالت الشموع الأطول مشتعلة، تبقى منها جزء ضئيل مع ذلك. أطباق الفاكهة والمكسرات لم تُمس.

يقول أبي: «أريد التبليغ عن طفل مفقود. وقد حولوني مرتين، نعم أنا الأب».

لم يعد يوسف إلى البيت. أبي يتصل بالشرطة. تهوي معدتي. تنظر أمي إليّ، وتطرف عيناها. أسألها: «ماذا يحدث؟». وأنظر إليها ثم إلى أبي.

تجيبني: «لم يعد يوسف»، وينهار صوتها.

يسرع ذهني. أندفع إلى غرفتي لأتفقد هاتفي. ما زال لم يجب رسالتي، تسقط معدتي مجددًا. أتصل برقمه وأعود إلى غرفة المعيشة. يتحول الاتصال إلى البريد الصوتي مباشرة. لماذا لا يرد؟

يقول أبي: «نعم، يمكنني الانتظار ويضرب فخذه بيده بضعف. يشغّل مكبر الصوت وينظر إليّ.

أقول له وأنا ألمس ذراعه: «لنذهب إلى الاستديو يا أبي».

لماذا نبقى هنا، علينا الخروج والبحث عنه.

يقول وهو يهز رأسه: «مهلًا، مهلًا».

فأقول لأمي: «لنذهب إلى هناك فحسب، سنعرف من سيارته».

تطلق نفسا متقطعًا. زال تفاؤلها المعهود تمامًا. وتقول: «ذهب والدك بالفعل، سيارته في ساحة الانتظار. يالدا، اتصلي به مرة أخرى، ربما يرد عليكِ».

يقشعر جلدي. لو كانت سيارته في ساحة الانتظار، فأين هو؟

يقول أبي: «اسمي أم اسم ابني؟»، ثم يبدأ تهجي اسمه ويخبر مَن على الطرف الآخر أنه سيبدأ مجددًا. يكرر كل ما يقوله بلكنه أثقل من المعتاد في ساعة متأخرة من الليل.

لا أتخيل يوسف ينطلق مع أصحابه دون أن يقول لنا شيئًا. ربما لديه حفل في مكان ما الليلة مع فرقته؟ لا. كان سيخبرني.

يقول أبي: «سبعة عشر. لا. ليس سبعة. سبعة عشر عامًا».

يقول الصوت على الطرف الآخر: «حسنًا سيدي». ويمد في سيدي كأنها قرقرة معوية صغيرة.

يصر أبي قائلًا: «إنه طفل، ليس من ذلك النوع من المراهقين».

أقول لنفسي، يوسف بخير. أو على الأقل سيظل كذلك حتى يصل إليه والدانا. لكنني لا يمكنني طمأنة نفسي، خاصة وأنا أراهما. أبي يمسك بعنقه وأمي بذراعيها حول صدرها. كأنهما يحاولان التماسك حرفيًا.

أبحث في قائمة الاتصالات في هاتفي عن أي من أصدقاء يوسف. ليس لدي رقم أحد منهم، ولا حتى ليام وكريس. لم أضطر من قبل إلى الاتصال بهم. أنقر أيقونة تطبيق بيكاب، ثم

صفحة أخي. آخر منشوراته كانت قبل نصف ساعة من انتهاء عمله. وقت عودة أبي إلى البيت تقريبًا.

صورة لمطوية. حفل لعازف أكلال مساء السبت.

سأبتعد الليلة بهذا. الحياة ليست حياة بلا موسيقا.

أقول لنفسي إن هذا جيد. لا بد أنه بخير طالما صوَّر ونشر.

يقول أبي: «لا لم نتشاجر، لا شيء من هذا»، قلقه يربك لغته.

يقول صوت امرأة على الطرف الآخر: «سيدي، هل معك أحد يمكنه الترجمة لك؟»

يجيب أبي بصوت عال: «ترجمة، ألا تفهمينني؟»

«سيدي ربما يمكن لأحد من الأسرة مساعدتك».

يكاد أبي يعترض لكنه يهز رأسه ويناولني الهاتف. أجدني، فجأة، أتحدث مع الشرطة. أتخيل شخصًا ما بشارة الشرطة ومسدس، فأشعر بالحيرة لسبب لا أعرفه. هل يريدني يوسف أن أتحدث مع الشرطة عنه؟ ظني أنه لا داعي لوضعه في نطاق اهتمامهم.

أقول: «مرحبًا».

يقول الصوت: «مرحبًا، ما اسمك؟»

«يالدا. أنا ابنته. أقصد أن أبي من كنت تتحدثين معه عن أخي».

«فهمت. شكرًا لمساعدتك يا حبيبتي. كم عمرك؟»

«سبعة عشر».

«ظننت أن عمر أخيك سبعة عشر؟»

«نحن توأمان».

«فهمت. الآن، أريد أن أتأكد أنني فهمت ما قاله أبوك بشكل صحيح...».

تُعيد بإيجاز ما أخبرها به أبي. حتى اسم استديو الموسيقا الذي عمل فيه يوسف الليلة. أقرر ألا أُهنّئها على الإلمام بكل شيء رغم الحاجز اللغوي غير الموجود لأن المجاملات لن تفيد بشيء الآن.

«هل يعاني أخوك أيَّ مشكلات صحية؟»

«لا. لا شيء».

«أي مشكلات نفسية؟ اكتئاب؟»

«لا، لا شيء. كان مستاء قليلا اليوم، لكنه ليس من... ليس مكتئبًا أو شيئًا كهذا».

«فهمت. وهل يتناول أدوية؟»

«لا. لا يتناول أي شيء».

تقول: «حسنًا، فهمت»، وتسكت. أفكر ماذا فهمتْ؟ أريد أن أعيد محادثتنا في حال قلت شيئًا خطأ. تضيف قائلة: «سنرسل ضابطًا لتفقد المركز التجاري. هل تعرفين ماذا يرتدي أخوكِ اليوم؟»

أجيب: «جينز و... كنزة رمادية ربما. في الحقيقة لا أتذكر».

«لا بأس. إليك نصائح بما يجب القيام به في أثناء الانتظار. اتصلوا بكل أصدقائه، واستخدموا وسائل التواصل الاجتماعي لإبلاغ الناس بأنكم تبحثون عنه. يمكنكم مواصلة محاولة الاتصال به أيضًا، مع أنه من المحتمل أن يكون شحن هاتفه قد نفد لو كانت اتصالاتكم تتحول إلى البريد الصوتي».

تخبرنا أن نتوقع مجيء أحد ما إلى المنزل في وقت ما الليلة. أتخيل دخول يوسف غرفة المعيشة ليجد ضابط شرطة يقف فيها. أخي، ملك المغامرات، سيضحك بشدة، وسوف ألكمه في ذقنه لظنه أن هذا مضحك.

أقول: «نعم، بالطبع سنفعل هذا».

تخبرني أنني أحسنت عملًا، أمنع نفسي بقوة من التصحيح لها. لا تعرف أنني كنت نائمة فيما يبحث والدي عن أخي المفقود. أغلق الخط وأنظر إلى والدي. ينظران إليّ كأنني سأخبرهما بمكان يوسف.

أقول: «سأحاول الاتصال بأصدقائه»، فيومئان برأسيهما.

أمسك هاتفي لكتابة منشور عن يوسف. أكتب سطرين أطلب فيهما ممن رآه أو سمع عنه أن يخبرني. أذكر في المنشور ليام وكريس ليريانه، لأنني لا أملك رقمي هاتفيهما، هذا أفضل ما يمكنني فعله. أنظر إلى قائمة الأصدقاء. عدد من زملاء الدراسة على اتصال الآن، من بينهم كيث. تعلق ابنة خالتي في الساحل الغربي، حيث الوقت التاسعة مساء، وتدعو الله ليعود سالمًا بصورة لراحتين مرفوعتين إلى الأعلى. أغلب عائلتنا ليست بهذا التدين حقًّا، لكنها مختلفة. ارتدت الحجاب وهي في الرابعة عشرة من عمرها على الرغم من قلق والديها من أن تلفت انتباه الأشخاص الخطأ، نفس ما قاله لي والداي، على غرابة هذا، حين ارتديت فستانًا قصيرًا، يصل إلى ما فوق الركبة ببوصات قليلة. لا أعرف هل يوجد انتباه من النوع «الصحيح»، وإن وجد، أراهن أنه من المستحيل ارتداء شيء مناسب له.

تسود شاشة هاتفي لتتركني أحدق إلى انعكاسي فيها. ماذا أيضا يمكنني فعله؟

بدأت أمي رفع الأطباق عن المائدة التي أعدتها بمناسبة يالدا. وضعت بذور الرمان في البراد مباشرة، بلا غطاء ولا غلاف بلاستيكي. وكذلك البطيخ، تحركت بيأس أثار قلقي. أتمنى أن يقعدا فحسب. لا يمكنني التفكير جيدًا وهما يتحركان حولي. ربما سيمكنني المساعدة لو استطعت طرد الضجة من رأسي. نشر يوسف آخر تحديث منذ أكثر من ثلاث ساعات ونصف. أتذكر حين زجرتني أمي لقولي كلمة «نسكر» في الشعر، حين بدت غرفة معيشتنا كمشهد في رواية عاطفية سمجة. لماذا أشعر أنه كان منذ عام مضى؟

أمسك دفتر الرسم وأحدق في صفحاته. أظل أتفقد الهاتف لأرى أي رسائل لكنني لا أجد شيئًا. تتصل أمي بيوسف مجددًا. تترك رسالة أخرى، يتهدج صوتها وهي تخبره أن يتصل بها. تخبره أن أبي يحبه وأنه قلق عليه، تقصد أنه ليس غاضبًا منه.

«نحن في انتظارك. اتصل بي فورًا، حسنًا؟» تكرر للفضاء الخالي.

تمر ساعة أخرى -بألم. يخبرانني أن أذهب للنوم لكنهما لا يقولان شيئًا حين لا أتحرك. يكاد شحن هاتفي ينفد. ظننت أنني تركت شاحنه في المطبخ لكنه ليس هناك. أعود إلى غرفة المعيشة لأرى إن كنت قد تركته على الكنبة مجددًا. دائمًا ما أفقد هذا الشاحن الغبي.

أتذكـر حينهـا تطبيـق تتبـع الهاتـف. نحـن الأربعـة علـى نظـام عائلـي ظنـي أن بـه خاصيـة تحديـد موقـع الهاتـف. أحضـر حاسـوبي المحمـول مـن غرفتـي.

أقول لأبي: «أريد أن أدخل إلى الحساب على هاتفك».

ينظـر إلـيّ ثـم يأخـذ خطوتيـن سـريعتين لينظـر معـي فـي شاشـة الحاسـوب. أكتـب رقـم هاتفـه لدخـول الحسـاب. أسـأله: «مـا كلمـة المـرور؟». فينظـر إلـى أمـي.

تقـول: «كابـول 1999»، بالطبـع. العـام الـذي رحلـت فيـه أسـرته مـن أفغانسـتان.

أدخـل الحسـاب وأضغـط كل زر فـي محاولـة لمعرفـة كيـف أتتبـع هاتـف يوسـف. ينظـر والـداي إلـى الحاسـوب مـن فوقـي.

تظهـر الخريطـة. عليهـا نقطـة ضـوء زرقـاء. تبـدأ أسـماء الشـوارع فـي التحميـل ويتضـح محيـط المركـز التجـاري حيـث يوجـد اسـتديو كريشـندو ومقهـى رووم.

يسـأل أبـي بصـوت عـال: «أتريـان، هاتفـه هنـاك. ربمـا فـي السـيارة. لمـاذا سـيترك هاتفـه فـي السـيارة؟»

لكـن النقطـة الزرقـاء محاطـة بدائـرة زرقـاء كبيـرة. لا يمدنـا التطبيـق بإحداثيـات دقيقـة، مجـرد نظـرة عامـة.

أقـول: «ربمـا ليـس فـي السـيارة». كنـت سـأهدأ كثيـرا لـو كانـت نقطـة الضـوء فـي بيـت أحـد أصدقائـه.

يرتـدي أبـي سـترته بالفعـل. يأخـذ مفاتيحـه المعلقـة علـى الجـدار بجـوار البـاب. أرتـدي حذائـي ذا الرقبـة العاليـة ثـم أول سـترة تسـقط يـدي عليهـا فـي الخزانـة. يديـر السـيارة ويلاحـظ قبـل أن يخـرج بهـا

من الجراج أمي تخرج مندفعة من البيت. تصيح قائلة: «سآتي معكما».

لا يبدو أبي سعيدًا بذهابنا كلنا معه لكنه لا يعترض أيضًا. يستغرق الطريق إلى المركز التجاري خمسين دقيقة، لكننا نصل في غضون عشر دقائق. يوقف أبي السيارة في ساحة الانتظار بجوار سيارتنا أنا ويوسف. تبدو السيارة كما تبدو دائمًا. سيدان زرقاء كسماء منتصف الليل بمصدّات مخدوشة وملصق لجيتار على الزجاج الخلفي.

أحضر أبي المفتاح الاحتياطي هذه المرة. يفتح باب السائق، وأنا أفتح باب الجانب الآخر. لا وجود لا ليوسف ولا لهاتفه. في المقعد الخلفي كيس ورقي لشطيرة بوريتو، وفيما عدا هذا السيارة خالية. ننظر تحت المقاعد ثم أحدنا إلى الآخر، بسرعة شديدة.

تغلق أمي الحقيبة الخلفية بهدوء وتأخذ خطوة إلى الخلف. تسري قشعريرة ما في عمودي الفقري. يرفرف شيء ما في الأشجار المتشابكة المحيطة بالمركز التجاري. تعبر السماء ظلال مثل حبر مسكوب. طيور أم خفافيش؟ لا أعرف. لم أعش في حياتي ليلة أشد سوادًا من هذه.

أبحث في الظلام عن مفتاح اللغز، عن إجابة. تطرف عيناي كثيرًا، كأنني أحاول الاستيقاظ من هذا الكابوس. أشعر بثقل الهواء وهو يدخل رئتي ويخرج منها.

أكره الصمت.

أقول بصوت مرتعش: «أين أنت؟»

يسير كل منا في اتجاه مختلف. فريق بحث صغير. تكسر أمي الصمت بمناداتها يوسف. تحرك ريح باردة الأجراس خارج باب المقهى، فتنبعث النغمات الصغيرة في الليل. أدس يدي في جيبي لأحفظ أصابعي من التجمد.

يجب أن أعرف أين هو. لماذا لا أعرف أين هو؟

أصيح: «يوسف؟». صوتي جبان في البدء، لكنني أتذكر نظرته الواجمة حين رأيته هذه الظهيرة. تصعد أمي السلم الإسمنتي إلى المحلات في الطابق الثاني، تسند يدها إلى الدرابزين الحديدي كأنها تخشى فقدان توازنها. تنظر في واجهة كل المحلات في طريقها إلى الاستديو عند المنعطف. توجد ثلاث سيارات فقط في ساحة الانتظار الآن. أسير إليها لأنظر داخل كل منها، مع أنني لا يمكنني القول إنني توقعت رؤية يوسف في واحدة منها.

يسير أبي إلى زاوية المبنى. أسفل الاستديو مباشرة، لا يوجد سلم إلى المحلات في هذا الجانب. لماذا سيذهب يوسف هناك؟

أرى ضوء هاتف أبي يتأرجح يمينًا ويسارًا. يهوي شيء ما بداخلي. أسير نحو أبي، تتحرك قدماي بإرادتهما الخاصة.

يصرخ أبي: «يوسف!» ويتوقف تنفسي في حلقي لأنني لا أفهم ماذا يعني اسم أخي هنا، هل هو استفهام أم بيان.

يصيح أبي مجددًا: «يوسف!»، وأركض نحوه فيما يسقط ضوء هاتفه على الأرض في أطول وأظلم ليلة في العام.

أنا على الهاتف مع عاملة النجدة،911 [ناين وان وان]، أحاول التركيز في ما يقوله وما قلته له بالفعل ونقل كل هذا لوالديّ. وطوال الوقت أريد أن أهز يوسف من كتفيه لأجعله يفتح عينيه.

وجهه ملطخ بالطين ويداه مثلّجتان. أحد جفنيه داكن ومتورم. لا يتأوه حتى. لم أره بهذا الصمت قط.

يضع أبي ذراعه خلف عنق يوسف، والأخرى أسفل ركبتيه ويحاول رفعه لكن يوسف لا يتحرك -كأنه لا يريد رفعه عن الإسفلت. تقبل أمي جبينه وتردد اسمه. حين تلتقي عينا أبي عينيها، تشير إلى قدم يوسف. تند عن أبي شهقة ترعبني. أسأله: «ما الأمر؟»

تقول أمي: «قدمه. أخبري النجدة أن يسرعوا».

ألاحظ الزاوية الغريبة لالتوائها. أنظر إلى الأعلى مجددًا وأرى الارتفاع الذي سقط منه.

أقول لعاملة النجدة: «أرجوكم أسرعوا. إن إصابته خطِرة، ولا يمكننا حمله». تجيبني بصوت هادئ جدًّا بأن سيارة الإسعاف في طريقها إلينا، حتى لأتساءل إن كانت تفهم أن يوسف لا يتحدث ولا يتحرك ولا يفعل شيئًا مما يجب أن يفعله الآن.

تقول: «أرجوكم لاتحاولوا نقله، في حال وجود أصابة بالعمود الفقري، الأفضل عدم تحريكه، خاصة عنقه. سينقله فنّيو الطوارئ الطبية».

أصيح في والدي: «لا تحركانه». يكف أبي عن محاولة وضع رأس يوسف في حجره، لكنه يبقي يده على ذراعيه. فأضيف: «لا تلمس عنقه. قد تؤذي عموده الفقري».

تبعد أمي يديها عنه فأرى ارتعاشهما. تقول: «آسفة، آسفة».

تضع يديها على جانبي وجهه، رغمًا عنها، لأنها تريد أن تلمسه. تميل إليه مثل وضع الركوع، وتضغط خدها بخده. ربما تحاول تدفئته. تحدثه، لكنني لا أسمع ما تقول لأن العاملة تسألني عن التفاصيل. تصلني ثلاثة أصوات وأنا أحاول التركيز لسماع صوت يوسف، وأشعر بخلل في رأسي.

أنظر إلى الأعلى، نحن أسفل استديو الصوت. انفصلت قطعة من الدرابزين الحديدي عند منعطف الرواق، وسقطت في الهواء. كانت أمي متجهة نحوها لكنها لم تصل إلى المنعطف. أعادها صوت أبي لتهبط السلم إليه.

يبدو الطابق الثاني مرتفعًا جدًّا، كأنه سقط من السماء.

يضع أبي أذنه على صدره مجددًا. يظل يستمع ثم يبحث بعينيه في الطريق عن مساعدة. تمر سيارة تشغّل موسيقا بصوت عالٍ، ثم تمر أخرى ويغرق قلبي.

لا أعرف لماذا تأخرت سيارة الإسعاف جدًّا هكذا.

تبقى عاملة النجدة معي على الهاتف. تعدني بأن فنّيي الطوارئ الطبية على وشك الوصول إلينا. تخبرني بأنني أفعل الصواب، لكنني لا أفعل شيئًا سوى الإمساك بيد أخي، ما لم أفعله منذ كنا في روضة الأطفال ربما.

تصل إلى ساحة الانتظار الأضواء الدوارة الحمراء والزرقاء. أركض لأشير لهم إلى موقعنا. يجري كل شيء بسرعة لكن ليس بالسرعة الكافية. نفسح المجال حول أخي لفنّيي الطوارئ ليسمعا صدره ثم يرفعانه إلى نقالة. تصعد أمي معه في خلفية السيارة. حين تقعد في الضوء أرى خط الدم الجاف على خدها، كأنها أصيبت هي أيضًا.

نسرع أنا وأبي إلى سيارتنا للحاق بهما إلى المستشفى. لا توجد سيارات كثيرة في الطريق، فيظل أبي قريبًا من خلفية سيارة الإسعاف، يتجاوز الإشارات الحمراء. صفير سيارة الإسعاف الحاد هو الشيء الوحيد المنطقي الآن.

نتوقف في ساحة انتظار السيارات بالمستشفى، في أقرب موقع من مدخل قسم الطوارئ. عبرتُ تلك الأبواب المنزلقة مع جدتي من قبل. عانت في البدء جلطة صغيرة، ثم أخرى أكبر قليلًا. بعد ذلك كانت تحظى بتشخيص جديد كل شهر. كسر في الحوض، التهاب رئوي، عدوى مسالك بولية. كرهت أن أرى وجهها يتلوى ألمًا عند حقنها بإبرة في جلدها الهش. كانت أمي تبقى معها دائمًا وتمسك بيدها الأخرى، تساءلت إن كانت تفعل هذا لتهدئة جدتي أم لتهدئة نفسها.

نندفع إلى الاستقبال، يشاهد أشخاص التلفاز في ركن، يرفعون أبصارهم نحونا. أسير إلى موظف تسجيل الدخول وأردد اسم أخي. أخبره أنه وصل بسيارة إسعاف. يومئ برأسه ويركز بصره على شاشة الحاسوب.

أخي في قسم الحوادث. يسعفه طاقم العمل، فيما تتحدث

معنا الطبيبة خارج الحجرة. نعيد ما نعرفه عن يوسف الليلة، ما يعتبر لا شيء تقريبًا. تهز أمي رأسها حين تسألها الطبيبة إن كان يعاني أي مشكلات صحية أو يتناول أدوية معينة.

«لا، لا، لا. إنه بصحة جيدة جدًا»، تقول بتأكيد رغم رقوده فاقدًا الوعي تمامًا على مقربة أقدام قليلة منها.

تسأل الطبيبة: «هل يدخن أو يشرب الخمر أو يتعاطى المخدرات؟ على حد عِلمكم؟»

يهز أبي رأسه قائلًا: «لا، لا. إنه فتى جيد».

تومئ وتبتسم بأدب. ألا تصدقنا؟

يقودنا أحدهم إلى حجرة الانتظار. يعملون على استعادة استقرار حالة يوسف. يأخذونه لإجراء الأشعة. قد يحتاج إلى جراحة. يحبس والداي دموعهما وهما يوقّعان على الأوراق المطلوبة.

يسمحون لأمي بالعودة للبقاء بجوار يوسف لكنهم يحذرونها من أنهم يريدون مساحة للعمل وأنها ستشهد كثيرًا جدًا من الأحداث.

تقول كأنها تخشى إبعادها عنه مجددًا: «حسنًا، أعدكم، نعم، أعدكم».

ننتظر أنا وأبي في حجرة الانتظار، حيث يرمقنا الآخرون من زاوية أعينهم. فضول؟ اهتمام. حين أنظر نحوهم، تهرب نظرتهم بعيدًا.

نتكوم في مقعدين، تغمض أعيننا ثم تنفتح. بعد دقائق تعود أمي وخلفها جرّاح بوجه متجهم يخبرنا أنه سيجري ليوسف جراحة لإزالة تخثر دموي يضغط على مخه. يشحب وجه أمي. تتمتم بشيء لا أفهمه. يعض أبي شفته. نومئ ونظل واقفين وقتًا طويلًا بعد مغادرة الطبيب. عند نقطة ما يعود ويخبرنا بأن العملية سارت جيدًا لكننا سنعرف بعد وقت طويل إن كان يوسف بخير أم تسبب التخثر في ضرر ما.

أريد أن أسأله لماذا لن يكون يوسف بخير فيما سارت العملية جيدًا، لكنه يصف لأبي مكان وحدة الرعاية المركزة. لا يخبره أبي أننا نعرف مكانها بالفعل. يومئ برأسه له فقط ويشكره.

يصل ضابطا شرطة ويقفان معنا جانبًا. يتناوبان طرح أسئلة وتدوين ملحوظات. نخبرهما بأن كل شيء كان طبيعيًا اليوم. ذهبت أنا ويوسف إلى المدرسة. عاد إلى البيت ليأخذ سيارته للذهاب إلى استديو الموسيقا.

يردد الضابط السؤال مع كل تفصيلة: «ومتى كان هذا تقريبا؟». يسألان عن أصدقائه وإن كان على خلاف مع أحد منهم. يسألان عن حالته النفسية وإن كان يذهب إلى معالج نفسي. يسألاننا مجددًا إن كان يتعاطى المخدرات أو يشرب الخمر أو يبقى خارج البيت حتى وقت متأخر.

يسأل أبي وهو يحيط كتفي أمي بذراعه: «متأخر؟». بالطبع، كان في بعض الليالي يعزف موسيقا مع فرقته. أو يتمرن معهم. «إنه يدرس ويعمل. تقديراته كلها ممتازة. ويفكر في دراسة القانون».

لا يهم الآن إن كان يوسف يريد أن يكون محاميًا أم لا.

أسأل ضابط الشرطة: «ماذا تريد أن تعرف؟». لم أعرف حقًا إلى أين ستودي بنا هذه المحادثة.

يعتدل الضابط الأصغر في وقفته فيما يوجه الضابط الأكبر إجابته لأبي.

«نحن نحاول معرفة توقيت وقوع هذا الحادث. هذا الجانب من المبنى لا تسهل رؤيته، لذلك ربما لم يشهد أحد سقوط ابنك».

تغمغم أمي: «توبة خودة»، تتوب إلى الله من كل ما قد تكون اقترفته لرفع هذا البلاء عنها.

يسأل الضابط الأصغر: «من أين أنتم؟»

يجيب أبي: «أفغانستان».

يقول الضابط: «حقًا، هذا مثير للاهتمام»، كأن هذه المعلومة تلقي بضوء جديد على الموقف. يدون ملحوظة أخيرة قبل أن يضع قلمه في جيبه. يقولان إنهما سيعاودان الاتصال بنا. يشير أحدهما برأسه نحو الأبواب خلفنا ويخبرنا بأن يوسف سيكون بين أيد أمينة.

تقول أمي بثقة: «هذا ليس حادثًا، أحدهم سبب الأذى لابني».

«سيدتي، نحن نحاول التفتيش جيدًا للوصول إلى شيء، كان الدرابزين صدئًا جدًا في هذا الموقع».

«لكن كيف...».

«سنلقي نظرة جيدة ونرى إلى ماذا سنصل. مع الفتية، توجد دائمًا مفاجآت. وإنْ سمعتم أي شيء، أخبرونا به. سنترككم الآن للتركيز مع ابنكما ورعايته الطبية».

تطـرف أمـي بعينيهـا سـريعًا ثـم تنظـر نحـو الأبـواب والأروقـة المؤديـة

إلـى مكان يوسـف. يمـرر أبـي يديـه في شـعره ويحدق إلـى الأرض. يغـادر الضابطـان وأشـعر بأعيـن الفضول علينا.

ريقـي جـاف وثقيـل. أجد دولارًا فـي حقيبـة أمـي وأشـتري زجاجـة ميـاه مـن الماكينـة. يهـدئ المـاء حـرارة حلقـي. تدخـل امـرأة مـن البـاب متجهـة نحـو موظـف الاسـتقبال، تحمـل رضيعًـا بذراعهـا، فيمـا يمسـك صغيـر آخـر يسـعل بيدهـا الأخـرى. ظللنـا نراقـب الآخريـن يدخلـون ويخرجـون دون أن نـدرك طلـوع الصبـح. أحـاول كتـم التثـاؤب حيـن أشـعر بهاتفـي يهتـز فـي جيبـي.

رسـالة من أسـما:

[مرحبًا، أين أنت؟]

آخذ نفسًـا عميقًا. وأجيبها:

[في المستشفى، أجرى يوسـف جراحة لتوه].

كتابة هذا تجعله واقعًا أكثر وضوحًا فجأة.

تظهـر ثـلاث نقـاط علـى شـاشـتي، ثـم تختفـي. لا يمكنهـا قـول شـيء ردًا علـى هـذا، أنـا متأكـدة. إنهـا مـن النـوع الـذي يـردد كلمـات مثـل السـرطان أو عنصـري، بهمـس. لـن ألومهـا لـو لـم تجـد شـيئا لقولـه الآن.

[هل هو بخير؟ جراحة لماذا؟]

أجبـت عـن أسـئلة كثيـرة بالفعـل الليلـة، لكـن مـن تسـألني الآن صديقتـي المقربـة، شـخص أريـد التحـدث إليـه.

[تخثر دموي في مخه. خرج لتوه من العمليات].

[يا إلهي. هل هو بخير؟ ماذا حدث؟]

[لم يعد إلى البيت ليلة أمس، وجدناه خارج كريشندو. سقط من الطابق الثاني].

أنظر إلى ما كتبته. تكوّن الحروف الكلمات لكن النص كله خطأ. يبدو كقصة مختلقة. ومع ذلك أضغط زر الإرسال.

هل سقط؟ هل دفعه أحد؟ المبنى حالته بائسة بالفعل. هل اختل الدرابزين؟ لماذا قد يتكئ يوسف عليه في هذا الركن في جميع الأحوال؟ كان عليه السير في الاتجاه المعاكس للوصول إلى سيارته.

[لكن هل سيكون بخير؟]

لا أعرف بمَ أجيبها. ماذا قال الجراح؟

[سارت العملية جيدًا].

أرفع بصري إلى والديّ. تريح أمي رأسها على كتف أبي. عيناها مغمضتان لكنني أعرف أنها ليست نائمة. ظهرها للتلفاز. ربما ملّت مثلي من مشاهدة إعلانات عن خراطيم حدائق أو التحديق في كرات الغبار في أركان الغرفة. ربما لن تفتح عينيها مجددًا حتى تخبرها ممرضة أن بإمكاننا رؤية يوسف.

أتفقد هاتفي. تظهر ثلاث نقاط وتختفي. بالطبع، من الذي يعرف ماذا يقال في موقف كهذا. أجد مقعدًا خاليًا وأحدق في الشاشة. مللت هذه الغرفة أيضًا.

تمر دقيقتان قبل أن ترد أسما. وجه أصفر حزين يتبعه راحتان مرفوعتان.

أضغط زرًا فينطفئ هاتفي تمامًا. أميل إلى الخلف في مقعدي فألاحظ أبي يحدث أمي بهدوء. يعصر يدها ويلمس بشفتيه صدغها. تميل إليه.

ربما أمي محقة. ربما الرسائل ليست وسيلة تواصل بالفعل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع عشر

يسألني ممرض: «أنتِ أخته، صحيح؟». يرتدي بدلة عمليات زرقاء، وحذاءً أبيض. يبتسم ابتسامة رقيقة، تبدو في عينيه أكثر من شفتيه. أومئ برأسي، فيقول: «أنا ويليام، ما اسمك؟»

أجيبه: «يالدا»، ثم أتذكر آداب الحديث، فأضيف: «تسعدني مقابلتك يا ويليام».

فيقول: «وأنا أيضًا، رغم الظرف الحالي. يالدا اسم جميل. أراهن أن معناه جميل أيضًا. أليس كذلك؟»

«معناه الانقلاب الشتوي»، يبدو صوتي آليًّا. لا أذكر ما كنت أحب سماعه وأنا طفلة -أن الانقلاب الشتوي موعد ميلاد آلهة الشمس، مزرا، في ديانة تُعد مصدرًا لبعض تقاليدنا. حكت لنا أمي عن ليالٍ ملأتها الحلوى والحكايات، إحداها عن فتاة صغيرة اسمها يالدا، أقنعت بلدة كاملة بأن الساحرة التي يخافونها ليست سوى امرأة وحيدة طيبة.

يقول: «حقًّا، أحب هذا». لم يربط بين الانقلاب الشتوي وموعد دخول يوسف غرفة العمليات.

«ويوسف اسم جميل أيضًا. أسطوري جدًّا».

أقول: «نعم، إنه كذلك إلى حدٍّ ما»، وأشعر فجأة بامتنان لهذا الود من شخص غريب. أخي بين أيدٍ أمينة بالفعل، أنا متأكدة من هذا.

يقول، وهو يُدخل معلوماتٍ في حاسوبٍ على عجلات: «أخبريني بشيء عن يوسف».

ماذا أقول؟ أنظر إلى يوسف، كأنني أتوقع منه أن يجيب بنفسه.

أقول: «أسمته أمي باسم النبيّ يوسف. جوزيف ويوسف هما الشخص نفسه. حين كنا صغارًا، كانت تخبره أنه بوسامته».

بحث أخي عن مزيد من المعلومات حول من يحمل اسمه. صاح يناديني من غرفته ذات مرة، حيث كان يقعد أمام الحاسوب ويبتسم كأنه تلقى دعوة لحضور الحفل القادم لفرقة كولدبلاي. نقر على الشاشة وانتظر حتى أقرأ ما اكتشفه. وقفت خلفه أقرأ من فوق كتفه عن النبي يوسف الذي كان جميلًا إلى حدٍّ فائق، لدرجة أن زوجة سيده لم يمكنها منع نفسها عن حبه، وكيف دعت صديقاتها وقدّمت لهن تفاحًا قبل أن يرينه، وحين دخل عليهن يوسف الغرفة، فقدت النسوة المنبهرات عقولهن وقطعن أيديهن بالسكاكين. جعلتني القصة أتساءل عن الحكايات الثرية الأخرى في هذه القصص المقدسة، ولماذا لا نتحدث عنها أكثر.

ظل يوسف أسبوعًا كاملًا يتعامل كأنه مُحيّر قلوب النساء. كان أسبوعًا طويلًا وصعبًا، ومليئًا بتدوير عينيّ له. كنا صغيرين، وكان أيُّ ذِكرٍ لهذه المشاعر يثير الاشمئزاز الصريح، حتى وإن تساءلتُ سرًّا عن شعوري لو كنتُ محطَّ إعجاب الآخرين.

يسأل ويليام: «هل تعرّف على مَن يحمل اسمه من النصوص المقدسة؟»

فأجيبه: «بل من الويكيبيديا، في الحقيقة». أبتسم رغمًا عني، وتؤلمني الابتسامة تقريبًا.

يقول: «نعم، نصوص مقدسة أخرى».

تعود أمي إلى الغرفة في تلك اللحظة. ترى ابتسامتي، فتنظر إلى يوسف لترى إن كان شيء ما قد تغير للأفضل. أعض شفتي. وحين يلاحظ ويليام توتّري، يميل إليّ قليلًا ويقول: «في رأيي المتواضع، من المهم أن تتمسكي بمعنويات مرتفعة. هذا لصالح الجميع، بمن فيهم يوسف».

كان يوسف... مبالغًا بعض الشيء ذلك اليوم. نهض عن كرسيه وركض إلى أمي ليسألها: «ماما، هل تعرفين هذه القصة؟» لم أذهب خلفه لأني ظللت أقرأ، في حين ركض هو بعد قراءته الفقرة الثانية. أغلقت صفحة الموقع قبل أن أخرج من غرفته، ولم أخبره قط بما حدث لمن يحمل اسمه قبل ذلك -ألقى به إخوته الحاقدون في بئر، وتركوه هناك ليموت.

لم أستغرق عند هذا الجزء من القصة، لأني لم أستطع تخيل إصابة أخي بأي مكروه، حتى ولو كان جرحًا بسيطًا.

أضغط يده وأرى وجهه يتلوّى.

يلاحظ ويليام ذلك ويعلّق قائلًا: «تحسّن عظيم، حقًا»، فتميل أمي برأسها إلى الخلف وتتمتم بدعاء. لم أرَ والديَّ يدعوان الله بكثرة هكذا من قبل.

يتفقد ويليام كيس المحلول الشفّاف المعلّق أعلى فراش يوسف، ويتتبّع الأنبوب الشفّاف الذي يصل إلى يده اليمنى. يتحرك إلى الحاسوب في ركن الحجرة ويحدّق في شاشته. كليك، كليك، كليك. ثم يُنحِّي الحاسوب جانبًا، ويقول لأمي:

«نحن في العادة لا نسمح بوجود أكثر من زائرَين في الحجرة، لكنني أدرك أهمية وجودكم جميعًا معه الآن. أرجو يا آنسة جمالي

أن تُبلغيني إن احتجتِ إلى ماء أو غطاء».

في صوته بطء له أثرٌ مُهدِّئ، مثل كوبٍ خزفي دافئ بين يدين باردتين. تشكره أمي بصوتٍ خافت، وعيناها على أخي.

رأسه مضمّد كعمامة من شاش، وتغطي ضمادة مربعة حاجبه الأيسر. أنبوب الأكسجين في فمه، ووجهه شاحب ومتورم. على وجهه لاصق يضمه كله معًا. يُبالغ الضوء الفلورسنت في كل كدمة وكل بقعة تضررت في جلده. كلّ ما لم نره في الظلام اتضح الآن بقسوة شديدة، ولا يمكنني النظر بعيدًا. تغطي ملاءةٌ بيضاء الجزء السفلي من جسده، ما عدا قدمه اليمنى المجبّسة. لم يتضرر عموده الفقري من السقوط، ما يُعدّ معجزة. أُصيب بكسر في ضلعين، وفي إحدى عظام ذراعه اليسرى، وقد جُبست أيضًا. أريد الاقتراب منه، لكنني أخشى الإضرار بشيءٍ ما حيوي.

يقول ويليام، وهو يرفع طرف الملاءة القريب من قائمة السرير: «سنراقبه عن قرب». يوجد كيسٌ بلاستيكيٌّ بعلاماتٍ قياسية عليه، ومملوء بسائلٍ أصفر، أدرك سريعًا أنه بول يوسف. أنظر بعيدًا، أشعر أنني اقتحمت خصوصيته. يده أكثر دفئًا الآن، لكن ليس كثيرًا.

لا يبدو أنه أخي. يبدو مفككًا. أستدير مبتعدة وأحاول التنفس بعمق، دون أن يلاحظ والداي. الهواء في الغرفة قليل، كأن كل الأكسجين تحوّل إلى الجهاز الذي يتنفس لأخي.

يبدو الزائرون في هذه الوحدة قلقين. لو أحضروا زهورًا، تجدهم يحتضنونها كأنها درع.

أعرف أنها وحدة العناية المركزة، في رأسي، همس:

أنا أراك.

هل يرونني؟ إنهم لا يرون سوى ما تقرؤه أجهزتهم فقط. لا يرون سوى ما يمكنهم تضميده بالشاش، أو ضمّه معًا بلاصق. لا يرون حقيقتك يا يوسف.

أشعر برأسي يدور، والحجرة تدور من حولي. يسألني ويليام: «هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟». يقف بجانبي ويسحبني إلى مقعد. لا أعرف كيف عبر الحجرة بهذه السرعة.

بعد دقائق قليلة، أعود إلى السيارة. يقلّني أبي إلى البيت ليمكنني النوم قليلًا. بقيت أمي مع يوسف. نظل صامتين في طريق العودة، أُسند رأسي إلى زجاج النافذة البارد. نتوقف عند إشارة حمراء، وأرى امرأة تتفقد طلاء شفتيها في المرآة الخلفية. عجوز يسير بكلب صغير على الرصيف. كلهم يظنون أن اليوم يوم عادي، كأن ليلة أمس كانت مجرد ليلة أخرى بلا قمر.

أدخل البيت وأنظر إلى غرفة المعيشة. مائدة يالدا، التي رفعت عنها أمي كل شيء قبل أن نجد يوسف، ليس عليها سوى المفرش وشموع ذائبة. يعلّق أبي مفاتيحه بجوار الباب ويسألني إن كنتُ جائعة. أُومئ برأسي وأتجه إلى غرفتي مباشرة. لا أنزع جوربيّ. أُوصل هاتفي بالشاحن، وأنزلق أسفل لحافي. نمت قرابة أربع ساعات خلال الليلتين الماضيتين. الآن، أنا على وشك الانهيار.

يُطلّ أبي برأسه من باب غرفتي في اللحظة التي أُغمض فيها عيني، ويسألني:

«سأعود إلى المستشفى بعد أن آخذ حمامًا، هل ستكونين بخير؟»

أُومئ له برأسي مرة أخرى. لا أعرف كيف سأكون، لكنني بخير أكثر من يوسف إلى حد كبير.

يظل عند الباب دقيقة أخرى، فأتوقّع أن يقول شيئًا ما، لكنه لا يقول شيئًا. يسير في الرواق نحو غرفتهما، ثم أسمع صوت الدُّوش من بعيد.

قد يفيدني أخذ حمام أنا أيضًا. أشعر بوطأة الليلة على جلدي، كامنة تحت أظافري. أشمّ رائحة المستشفى في ملابسي وشعري. لكنني لا يمكنني إزاحة الغطاء عني، فأبقى في مكاني وأضغط أنفي في ملاءة الفراش. أغطّ في النوم قبل خروج أبي من الحمّام.

يُوقظني ضوء النهار بعد ساعات. ريقي جاف، وملابسي متعرّقة. نلت قسطًا من الراحة، لكنني لا أشعر بارتياح. تومض الصور في ذهني، تعيدني إلى الواقع: رأس يوسف المضمد، أمي تميل إلى كتف أبي، حديد الدرابزين المكسور، أبي يسير في ساحة انتظار خالية.

أفتح عينيّ. أسمع خطوات في غرفة المعيشة.

تهوي معدتي لفكرة أنني قد أكون في خطر. ماذا لو كان أحدهم قد تعقّب يوسف، وهو الآن يتعقّبني أنا أيضًا؟

أنظر إلى نافذتي، ولجزء من الثانية أتساءل عن احتمال كسر ساقي لو قفزت من الطابق الثاني.

أسمع صوت فتح أدراج وإغلاقها. يرنّ هاتف، فأُميّز نغمة رنين هاتف أمي. أتنفّس الصعداء.

تسألني بالدارية: «خيريات آست؟». ها هو ذا تفاؤلها الأبدي،

تسأل من الطرف الآخر إن كان كل شيء بخير، فيما أسمع في نبرة صوتها أنها متأكدة تقريبًا من وجود خطأ.

تقول: «حسنًا، سأحضره. لا، لم أتصل بأختك. ماذا سيمكنهما فعله من هناك؟ لدينا ما يكفينا للتعامل معه. اتصل بهما أنت إن شئت. لا يمكنني التحدث إلى أحد الآن. لا يمكنني فحسب».

حين سافرنا إلى إنديانا بالطيران الداخلي لحضور جنازة رحيم، شعرت بانقباض في صدري ما إن صعدنا متن الطائرة. فككتُ حزام مقعدي، وظللت أتململ كثيرًا دون أن أجد وضعًا مريحًا. بعد أربعين دقيقة من الإقلاع، ساء الأمر أكثر. أعلن الطيّار أننا سنواجه بعض الاضطرابات، وأشعل ضوء ربط الحزام. لم أكن مستعدة للارتجاج الذي تلا ذلك. ظللت أتوقع أن تسقط أقنعة الأكسجين، أو سماع صفير إنذار ما. رآني أبي أمسك بمرفق أمي، فمال إليّ ليخبرني أنه لا داعي للقلق. لم يبدُ مقتنعًا تمامًا بما يقوله، ولم يعرف حتى أين يمكنه توصيل سماعات أذنه، لذلك صعب عليّ أن أصدّق أن رأيه هذا مبنيّ على أي علم بالطيران. ثبّتُّ عيني على مضيفات الطائرة، في انتظار أن أرى إحداهن تستعدّ لصدمة، أو تجري مكالمة هاتفية لتودّع أحباءها. جلستُ، بمفاصل بيضاء، وأكاد أتقيأ، أراقب وجوههنّ اللا مبالية حتى خرجنا إلى سماء أكثر هدوءًا.

لم يقترح والداي أي تجمعات عائلية مؤخرًا. كانت تجمعاتنا صاخبة وفوضوية ومرحة قبل وفاة رحيم. حتى التحدّث على الهاتف مع عمّاتي صار إجباريًّا الآن، بوعود مبهمة عن زيارة في الصيف أو الخريف، حين يهدأ العمل قليلًا، أو بعد انتهاء

الدراسة، أو انتهاء موسم كرة السلة.

أو حين لا يُذكّر بعضنا بعضًا بالتربة التي قُلِبت حديثًا وزُيّنت بورود بيضاء.

تمنيت لو كان لديّ مزيد من الصور لرحيم، لكنه لم يكن من هذا النوع، لذلك ليس لديّ سوى ذاكرتي لما بدا عليه حين رأيته آخر مرة. ظللت أتوقع أن يفتح عينيه، أن يبتسم بخبث ويمزق القماش الأبيض الذي يلفّه كالشرنقة. لكنه لم يتحرك. كان ساكنًا بشكل مرعب. كنت أرتجف في أثناء الدفن. لم أكن قد تناولت شيئًا، وكدت أسقط مغشيًا عليّ حين هبطوا بنعشه في التجويف الأرضي الذي اشتراه أبوه من قبل لنفسه. بدا كأن خطأ ما قد حدث. صدرت أصوات بكاء خافت ومتكسر ونشيج، فيما يهيل أبو رحيم أول حفنة تراب على النعش. ثم فعل أبي ويوسف مثله، وكذلك رجال العائلة الآخرون وعدد من أصحاب رحيم.

كانت الجنازة أهدأَ تجمعٍ عائلي حضرته في حياتي. حطّت علينا عباءةُ الصمت، وظلّت تزداد ثِقلاً كلما اقتربنا من بيت رحيم. كانت كل همسةٍ بمثابة انتهاك.

كان العم زهير هو من وجده في غرفته، وبالكاد تمكّن من التحدث منذ ذلك الحين. لا ألومه. أخبرني بهذه التفاصيل، همسًا، ابنُ عمٍّ آخر لي. حين تحدّث والداي، كان أغلب ما قالاه أدعيةً لوالدي رحيم. كانت أغلب جملِهما غير منتهية، وكذلك أطباق طعامنا. قضيتُ أنا ويوسف أغلب اليومين التاليين في مقابلة قريباتٍ ينهرن بالبكاء ما إن يريننا، ونحن نغمغم بجمل عزاءٍ تعلمناها ونحدق إلى الأرض.

كانت عمتي ليدا في حالة سيئة جدًّا طوال الوقت. وكان العم زهير كالتمثال. ظلّ رأسه مطرقًا طوال الوقت كأنه يصلي بهدوء. رأيتُه مرّاتٍ قليلةً يرفع رأسه بجهدٍ بالغ، كأنه ينهزم في معركةٍ مع الجاذبية الأرضية.

بعد أسابيع من عودتنا إلى فيرجينيا، ظلّ الصمت. وحين زال أخيرًا، كان قد ترك أثره في بيتنا، مثل أثرِ كفٍّ على إسمنتٍ مبلل. أصرت أمي أن نبقي أبواب غرفنا مفتوحة. ما زلتُ أنا ويوسف نغلقها حين ننام، لكن في صباحات كثيرة، أستيقظ لأجد الباب مفتوحًا. كانت، حين تسألنا كيف حالنا، تحدّق إلينا كأنها تحاول الاستدلال من إجابتنا على ما يحدث في المساحات الخفيّة من عقولنا. واكتسب أبي، الذي يفضل خلعَ ضرسه على الذهاب إلى المركز التجاري، عادةَ العودة إلى البيت بأشياء ليست ضرورية ولسنا بحاجة إليها، مثل جواربَ بيضاءَ، دزينةٍ.من كعك الدونات، أو بطاقات بوكيمون توقفنا عن جمعها منذ سنوات.

تمنيتُ أن يتحدثا ليقولا ما يقلقهما حقًّا فحسب، مع ذلك، لم تواتني الشجاعة الكافية لصياغة هذا في كلمات. تبدو بعض الأفكار داكنة جدًّا في ضوء النهار. رددتُ اسم رحيم ذات مرة، وبدت أمي كأنني استدعيتُ جنيًّا. وكنتُ متأكدةً من أنني إنْ تحدثت إلى أبي، فسيعود إلى البيت بمزالج أو زبادي مثلّج بالفستق.

بعد الجنازة بأسبوع، وجدتُ يوسف مستلقيًا على فراشه ويداه متشابكتان خلف رأسه، يحدّق في فراغ السقف.

سألته وأنا أقف عند الباب: «هل تفكر فيه؟»

أومأ برأسه دون أن ينظر إليّ.

فقلت: «وأنا أيضًا». لكنه ظل صامتًا، فاقتربتُ قائلة: «أنا فقط... أنا فقط أتساءل كيف... أقصد، لماذا...».

قال: «لم نعرفه حقًّا يا يال، ولا يمكننا التخمين الآن».

فسألته: «هل سألت نفسك ماذا كان سيحدث لو اتصلت به ذاك الصباح؟

قال، بصوت مفعم بالندم، كأنه مرآة تعكس مشاعري: «بل أتساءل عن هذا طوال الوقت». تمنيتُ لو لم أسأله.

قلت: «لم أقصد أنه كان عليك الاتصال به. بل كنتُ أتحدث عن نفسي...».

قال: «لكنه لم يكن على البيكاب حتى. لا أظن أنه كان يحب الوجود مع العائلة».

لم أعرف هذا، بالطبع. لكن ليس على يوسف حملُ ذنب الفشل في إنقاذ رحيم وحده، في حين لم أفعل أنا أيضًا شيئًا. ماذا لو اتصلتُ به أنا ذاك الصباح؟ أو قبله بشهر؟

لم أتحدث مع يوسف عن رحيم بعد ذلك، لأنني لم أُرد رؤية الألم الذي رأيتُه على وجه أخي. تساءلتُ: ما الذي آلم رحيم أكثر؟ أننا لم نقترب منه أكثر وهو على قيد الحياة؟ أم أننا نبدو أكثر حماسًا لترك اسمه يتبخر بعد وفاته؟

الفصل الثامن عشر

أنهض بصعوبة من فراشي. لا أشعر بارتياح، لكنني لم أعد أشعر بأنني زومبي أيضًا. أسير بتثاقل في الرواق إلى غرفة والديّ.

تلقي أمي بشاحن هاتفها في حقيبة قماشية على فراشها، ثم بزجاجة صغيرة لحبوب الإيبوبروفين.

أسألها: «كيف حال يوسف؟»

لا بدّ أنها لم تسمعني أقترب. تستدير وتطرف بعينيها، مفزوعة من شرودها في أفكارها. تحيطني بذراعيها وتقبّل جبيني. جمعت شعرها المبلّل إلى الخلف في عقدة، وتفوح منه رائحة الشامبو.

تقول: «كما هو»، وتتنهد من بين شفتيها المزمومتين، ثم تضيف: «سأعود إليه الآن، جئت لأغيّر ملابسي فقط».

فأقول: «سأذهب معكِ». تهمّ بالاعتراض، لكنها تعدل عن ذلك. أضيف قائلة: «أحتاج إلى أخذ حمّام فقط. سأسرع».

فتجيبني، حائرة: «حسنًا، لكن أحضري كتابًا، أو فرضًا مدرسيًا ما. الأفضل أن يوجد ما يشغلك».

آخذ حمّامي بسرعة وأجمع أشياء قليلة في حقيبة ظهري. أجدها في السيارة، وألاحظ ترموس الشاي الخاص بها في كيس في الخلف. لم تنم فعليًا منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة، ولا يبدو أنها تنوي الرقود على فراش في أيّ وقت قريب.

نسير في المستشفى إلى موقعنا في الغرفة رقم 5 في قسم العناية المركزة، على جانبي فراش يوسف. يضيء هاتفي، فأدرك أنني ضبطته على الوضع الصامت بالخطأ حين وصلته بالشاحن في البيت. توجد عشرات الرسائل من أصدقائي. أنظر في رسائل مونا، أول من تواصلت معه أسما، بالطبع:

[يا إلهي، سمعتُ عمّا حدث ليوسف. كيف حاله؟]

[أين أنت؟]

[ألو، هل كل شيء بخير؟]

[اكتبي لي حين تستطيعين، آسفة جدًا].

[أنا أكتب لك كثيرًا، آسفة لو كان في هذا أي إزعاج. سأكف عن ذلك لكن اتصلي بي فقط أو راسليني أو أيًا كان حين يمكنك].

يمكنني تخيلها وهي تقضم شفتيها. في الغالب تصلي من أجل يوسف. أشعر بتأنيب الضمير لأنني لم أجبها بعد.

فأكتب لها:

[عدت لتوي إلى المستشفى. لا أعرف الكثير بعد].

يصلني ردها على الفور تقريبًا كأنها أعدته لترسله لحظة أن أجيبها:

[أنا وأسما قادمتان. سنغادر الآن].

تحرقني عيناي. بقدر ما أشعر بالوحدة، أشعر أيضًا بتعب شديد، ولا أعرف إن كان لديّ الطاقة للإجابة عن أسئلتهما أو لتحويل انتباهي عن يوسف.

[لا تأتيا. ليس الآن. سوف أخبركما متى].

وأضع قلبًا في نهاية الرسالة لأبدي تقديري لرغبتهما في ترك المدرسة لتكونا هنا معي.

يبدو يوسف كما كان حين تركته بالضبط، ما عدا الظلال أسفل عينيه؛ تبدو أغمق درجة. تميل إليه طبيبة، تتسمّع صدره. تنظر إلينا حين ندخل وتبتسم سريعًا. يقف أبي على الجانب الآخر للفراش ممسكًا بيد يوسف.

تقول، بعد أن تنهي الفحص: «سيستغرق الورم في مخه وقتًا ليزول. لكنه الآن، تبدو رئتاه سليمتين، وضربات قلبه طبيعية، وكليتاه...» تعدّد أعضاء جسده التي تؤدي وظائفها الحيوية جيّدًا، فيما نحدق إليه وهو راقد متورم ومكسور.

تواصل قائلة: «كما قلت، الوقت مبكر جدًّا الآن لنعرف معنى هذا. نحن نقوم بكل ما يمكننا، لكن يجب أن أكون واقعية معكم أيضًا. حالته حَرِجة جدًّا الآن».

تلتفت أمي إليّ تلقائيًا، كعادتها دائمًا حين تسمع كلمة لا تعرفها.

«حرجة».

ثم تشيح ببصرها بعيدًا حين تفهم المعنى من تعبير وجهي.

حرجة تعني منتهى الرعب.

حين أرى يوسف ممددًا على ظهره وعيناه مغمضتان، يعود ذهني إلى صورة رحيم في نعشه. أطرد الفكرة بغضب. أخي ليس ميتًا، بل على قيد الحياة.

أسأل الطبيبة: «هل يمكنه سماعنا؟»

تلتفت إليّ مأخوذة قليلًا من سؤالي. ينتظر والدَيّ ردّها. أشير إلى شاشة عليها خطوط متموجة وخط مسنّن، وخط آخر لا يُقلق أحدًا، مع أنه يعبر الشاشة مسطّحًا. قراءتها مستحيلة مثل قراءة الكف.

«هل يمكن لأحد هنا أن يخبرنا إن كان بإمكان يوسف سماعنا حين نتحدث عنه أم لا؟»

يلين وجهها، وتجيبني ببطء، كأنها تختار كلماتها بحرص:

«يمكننا التحقق من تنفّسه، ومعدل ضربات قلبه، وضغط الدم، ومستوى الأكسجين، والمزيد، لكن توجد أشياء لا نعرفها. مع ذلك، فخبرتي ممّا رأيته في غرف العناية المركزة تقول إنه من المفيد أن تقعدي وتتحدثي مع أخيكِ، ليسمع صوتكِ ويعرف أنكِ قريبة. ليست كل الوظائف الحيوية يمكن قياسها بهذه الشاشات».

يومئ أبي مؤكدًا، شعره منكوش ويظلّل جبينه. يسحب كرسيًّا إلى جانب يوسف فورًا، كأنه ينفّذ أمرًا. ينظر إليّ ويشير إلى الكرسي الآخر.

ينظر إليّ والدَيّ بتوقّع. تعود الطبيبة إلى فحص يوسف، ترفع جفنه الأيمن، وتحرك قلمًا ضوئيًّا أعلى بؤبؤه. أتقدّم خطوتين في الغرفة، وأقعد على الكرسي. رائحة أخي ضمادات، ودم جاف ملتصق، وأذى. ترتاح يداه إلى جانبيه. مُثبَّت برأس سبابته ملصق صغير بضوء أحمر، يذكّرني بغطاء الأصابع الذي استخدمه حين بدأ تعلّم الجيتار.

حين كنا في العاشرة من عمرنا، أعلنتُ أنني أريد تعلم البيانو، فقرّرتْ أمي الاستفادة من خصم الإخوة وقدّمت ليوسف أيضًا. بعد ستة أشهر من التدريب، كنتُ ما زلتُ أكافح لعزف

«توينكل توينكل ليتل ستار»، وأصابعي تتحوّل إلى أعواد جافة حين أقعد للعزف. في الحفل الأول، رأيتُ أطفالًا في نصف عمري وبضعف مهارتي، فقرّرت ألا أهدر مزيدًا من نقود والديّ. لكن يوسف تجاوز بالتدريب إلى ما بعد بدايات الأغاني، وانطلق بقوة وسرعة. سرعان ما تحدث لغة الموسيقا بطلاقة: النوتات والإيقاعات. بعد عام من تعلم البيانو، أراد أن يتعلّم الجيتار. حين أمسكه، بدا الأمر كأنه لقاء بعد فِراق، لا تعارفًا. لم يكن يتمرن لأن عليه ذلك، بل لأنه بالنسبة إليه أمر طبيعي، مثل النهوض من الفراش في الصباح. صار الجيتار هو ما يجعله «نفسه». ظن أبي وأمي أنه مجرد شغف كبير، إلى أن أعلن ذات يوم أنه يريد أن يدرس الموسيقا. بدا أنهما يبذلان جهدًا شاقًّا ليفهما ما قاله.

بدأ كريس وويليام ويوسف يتمرّنون معًا بانتظام منذ أول عام في المدرسة العليا. كانوا يعزفون أغاني الفرق التي يحبّونها. بعد ذلك بعام تقريبًا، أطلقوا على فرقتهم اسم «ذا هايبر كامبوس». حين سألتهم عن معنى الاسم، قال يوسف إن اسم الفرقة يجب أن يُثير تساؤلات معجبيها، وأن يظل سرًّا داخليًّا بين أعضائها.

أُحدِّق الآن في أذن يوسف. ظللت أتحدّث معه كل يوم طوال حياتي، ولا أجد الآن ما أقوله له.

أقول بصوت خافت: «أهلًا يوسف.. أنا فقط.. أرجوك...».

يسقط رأسي. ماذا أقول له؟ قد لا يكون في حاجة إليّ أنا الآن، بل إلى والديّ، ليهدّئاه كما كانا يفعلان حين كان صغيرًا وسقط عن الدراجة، أو حرق إصبعه على الموقد، أو غضب لأنني أخذت منه لعبة.

أنهض وأمسك بحقيبتي، وأقول لأبي: «تحدّث إليه أنت أولًا يا أبي، لا أريد أن.. لا أريد أن أقاطعكما».

يحتضنني أبي ويمنحني ورقة نقدية بعشرين دولارًا، في حال شعرتُ بالجوع.

أترك خلفي الخطوط الحرجة على الشاشة، وطنين الأجهزة، والتقاطر البطيء للمحاليل. تدمع عيناي، فتتغبش الأروقة أمامي. أُبقي بصري منخفضًا كي لا يُلاحظه أحد. في المصعد، أضغط زر الطابق الأرضي مرارًا، وحين تصبح أبوابه على وشك الانغلاق، تبرز يد لتمنعها، ثم تتبعها قدم، ثم لوح مشبكي.

تقول امرأة ببنطال أسود وقميص بأزرار يصل كُمّاه إلى مرفقيها وهي تبتسم لي قبل أن تتفقد الهاتف المعلّق بحزامها: «آسفة لتأخيرك».

حرجة تعني منتهى الرعب.

أُحدّق إلى أرض المصعد وأتنحنح في هذا الهدوء الغريب. لا شيء أكثر إحراجًا من البكاء أمام شخص غريب في المصعد. لحسن حظي، نهبط إلى الطابق الأرضي دون توقف. أندفع قبل أن ينفتح الباب تمامًا إلى البهو، حيث تُلقي أضواء حمراء صغيرة معلّقة على شجرة أعياد الميلاد بوهج أحمر على صناديق الهدايا المرصوصة على الأرض. إلى جانب الشجرة طاولات تُباع عليها هدايا اللحظة الأخيرة. يتجوّل أشخاص بين صفوفها، ما يُعدّ أفضل من التحديق في شاشة التلفاز بالطبع.

أتجه إلى المقهى، مجرد كشك في الركن. تبدو أطباق السلطة ذابلة قليلًا، ولا يوجد سوى شطائر التونة أو لحم الخنزير بالجبن.

يجب أن يتناول والداي شيئًا. أطلب كوبَيّ شاي أخضر وثلاث كعكات بالتوت الأزرق من امرأة ترتدي مريولًا من الدينم وقفازين في يديها. أمرّر بطاقة ائتمان أمي، وهي تضع الكعك في كيس ورقي وتقول لي: «لحظات وسيكون الشاي جاهزًا يا عزيزتي»، ثم تضيف: «فصل أحدهم قابس الغلاية، لذلك ليس لديّ الآن سوى إناء ماء بارد». أبة نبة بنه قبتكه

أجيبها: «بالطبع، حسنًا»، وأتحسّس جيب حقيبتي لأدرك أنني نسيت هاتفي بالأعلى. أبتعد خطوات قليلة عن الكشك، نحو الطاولات.

تبتسم لي امرأة ترتدي قبعة صوف، فأبتسم لها تلقائيًا. تعرض على طاولتها مجموعة قفازات حمراء وخضراء، من النوع المتصل بخيوط طويلة، كي لا يعود الطفل من المدرسة إلى البيت بفردة واحدة فقط. في الخلفية، أغنية «بيبي إتس كولد آوتسايد».

يسأل رجل ضاحكًا: «ألم يحاولوا حظر هذه الأغنية؟»

تجيبه امرأة: «قد يحظرون الخبز الأبيض إن أمكنهم.. في رأيي إنهم يبالغون جدًا».

يقول: «هذا حقيقي، يسعدني أن حفيدي أنهى تعليمه منذ عامين. إنهم يُدرّسون جميع أنواع الهراء في المدارس هذه الأيام، ثم يتساءلون لماذا يُسيء الأطفال السلوك بدلًا من النضج حقًا».

تجيبه المرأة: «ليس لديّ رد على هذا سوى عيد ميلاد مجيد، عيد ميلاد مجيد». وتنطق كل عبارة ببهجة.

فيقول ضاحكًا: «سيأتون للقبض عليكِ».

يُذكّرني حوارهما العابر، المحمّل بكيف ظن لارسون نفسه مضحكًا وهو يتحدّث عن رقائق الذرة.

يتحرّق خدّاي. أستدير لأُلقي نظرة عليهما.

شعر المرأة بنيّ فاتح، وترتدي سترة مُطرّزة بالورود. والرجل بطول أبي لكن خصره أعرض. لديه بقع رمادية في ذقنه، ويُضيّق عينيه كأن عليه ارتداء نظارة.

أقول: «أنا ليست لديّ مشكلة في قول عيد ميلاد مجيد، هل لديك أنت مشكلة في قول عيد سعيد؟»

يلتفت إليّ، وما زال مبتسمًا. لم يُلاحظني من قبل حقًا، وحين يفعل، يمتد فكّه إلى الأمام ويُضيّق عينيه أكثر. تضع المرأة الواقفة خلفه يدها في خصرها. يسأل الرجل: «ماذا؟»

فأقول له: «لن يأتي أحد للقبض عليك».

يقول: «اسمعي يا حلوتي، أنا لا أعرف...».

أقاطعه قائلة: «لا تدعُني حلوتك. أنت لا تعرفني. لا تعرف أخي، ولا أسرتي. أنت لا تعرف أي شيء».

أشعر بنبض دقات قلبي في أذني. أدير ظهري لهما وأبتعد عنهما، أتوقع أن يمسكني أحدهما. أعود إلى الكشك حيث الكيس الورقي على المنضدة. تشير لي عاملة ماكينة الدفع إليه وتلوّح لي. آخذ الكيس، وهي تمسح المنضدة. ترتعش يدي بقوة لا يمكن لمقياس ريختر تحديدها. أحمل الكيس بكلتا يديّ وأعود إلى المصعد. أنظر إلى الطاولات من زاوية عيني، لأرى إن كان أحد يشير نحوي أو يحدق إليّ. لا أرى شيئًا.

حين يُغلق باب المصعد، أُطلق نفسًا ظللت أحبسه في صدري. فيمَ كنت أفكر؟ ماذا عاد عليّ هذا؟ أنا أرتعش وفي حالة يُرثى لها، وهذان الشخصان في الأسفل ربما يضحكان عليّ الآن.

أستند إلى الجدار، لأن والديّ لا ينقصهما رؤيتي بهذه الحالة. آخذ أنفاسًا بطيئة متقطعة لتهدئة أعصابي.

حين أعود إلى الحجرة، أجد أمي نائمة، تسند ذقنها بيدها. أضع الكيس الورقي بجانبها بهدوء ما أمكنني. تحتاج إلى النوم بقدر ما تحتاج إلى طعام.

آخذ كوب شاي وكعكة، وأناولهما لأبي. يشكرني ويفتح غطاء كوب الشاي ليبرد.

أتناول قضمة من كعكتي، ثم أقعد على كرسي إلى جانب فراش أخي. انزلقت يده اليسرى نحو الحافة. توجد كدمة قريبة من معصمه، حيث حُقن بالمحاليل أمس. أمسك يدهُ وأعيدها قريبة منه. أصابعه أبرد مما توقعتُ. آخذ ملاءة من الدولاب وأفردها عليه. بدأت أستوعب أن الأمر أكبر من مجرد كسر ذراع أو ساق، دون أن أنسى أننا نستخدم في التحدث عن شفائه كلمة «لو» أكثر مما نستخدم كلمة «عندما».

أفكر في الطبيبة، وهي تعدد أعضاءه السليمة. هل تعرف كليتاه ما حدث؟ هل تواصل ضربات قلبه إيقاعها وتنتظر، وما زالت تنتظر الرد؟

أنظر إلى والديّ. ثلاثتنا لا نعاني كدمات أو جروح، لكننا نتجمع، نحلق حول يوسف الكسير.

يـده فـي يـدي، أنقـر علـى معصمـه، كمـا أنقـر علـى الجـدار الفاصـل بيـن غرفتينـا.

دقة. دقتان. دقة أخيرة.

أنا هنا يا يوسف. استيقظ أرجوك.

الفصل التاسع عشر

تسأل أمي: «يا يالدا! أين أنتِ؟».أقف في الخارج، في حديقة المستشفى الهادئة، فناء فيه نافورة حجرية خارج كنيسة المستشفى الصغيرة. ممرات بلاطية متعرجة بين أحواض زهور مكسوة بنشارة خشب. أقعد على دكة خشبية بصليب منقوش على مسندها. النافورة ليس بها ماء، وزهور الأقحوان استسلمت للشتاء؛ تبدو براعمها البنية الذابلة كرؤوس مُطرقة في صلاة. عشب خفيف تم جزه وتسويته، أوراقه منتصبة بانتباه.

أسألها: «ماذا حدث؟ هل هو بخير؟»

فتجيبني: «لم يحدث شيء. إنه... كما هو». لا أعرف إن كانت تشعر بإحباط أم بارتياح. أنا نفسي أشعر بمزيج من الاثنين. تقول: «يريد ضابط الشرطة أن يتحدث إليكِ. هل يمكنك مقابلته في البهو؟»

أُطلق تنهيدة ارتياح لأن حالة يوسف لم تأخذ منعطفًا أسوأ، وأُسرع عابرة الأبواب الزلاقة إلى المستشفى، ثم إلى البهو الخالي تقريبًا. بعد دقائق قليلة، أرى ضابط الشرطة مقبلًا نحوي. يشير لي برأسه وشفتيه المزمومتين إلى كرسيين خاليين. يبدو أصغر من أبي، لكن ليس كثيرًا. تقفز عيني إلى مسدسه المعلّق في حزامه بجراب.

«يالدا. هل أنطق اسمك بشكل سليم؟»

أومئ برأسي.

يقول وهو يخرج دفتر ملاحظات صغيرًا: «أنا الضابط سونج. أريد أن أسألك أسئلة قليلة... متى كانت آخر مرة تحدثتِ فيها مع أخيكِ؟»

أحكي له ما حدث في المساء. أشعر بتوتر وأنا أسرد أحداث يومي. أدرك كم الوقت الطويل الذي لم أعرف في أثنائه أين كان أخي أو ماذا كان يفعل. ألاحظ الفرص الكثيرة المفقودة التي كان بإمكاني فيها إرسال رسالة له لأطمئن عليه، أو الاتصال به، حتى لتذكيره بوجودي معه. لماذا لم أشعر من صميم قلبي بوجود شيء ما خطأ؟ ظلت أمي تخبرنا منذ كنا صغارًا بأن ينتبه أحدنا للآخر في الملاعب أو في المدرسة، أو حين نذهب مع أقاربنا في نزهات في الغابات خلف منزل خالتي ليدا.

يوسف، أينما ذهبتما، احرص على ألا يضايق أحدٌ أختك.

يالدا، أبقي عينيكِ على يوسف دائمًا.

أرادا من يوسف أن يتأكد من أن لا فتى يتخطى معي أي حدود. وأرادا مني أن أتأكد من أن يوسف لا يتخطى الحد بين الشقاوة والتسبب في المشكلات.

كان كل هذا في رسائل ضمنية، بالطبع. كنت أسمع التمييز الجندري في كلماتهما، وتحدثت بشأن هذا ذات مرة. اختبأت أمي خلف لغتها الغامضة، لكن أبي واجه بشجاعة.

قال: «يالدا، حقًّا، لا بدّ من أن يعتني الإخوة بأخواتهم أحيانًا. العالم ليس متشابهًا بالنسبة إلى الفتيات والفتية. ألا تسمعين الأخبار؟ ليس عليّ إخبارك بما يحدث في الخارج».

لم أناقشه، لأنني لم أرغب في الخوض في تلك المياه الراكدة، مثله، ولأنني لم أستطع تخيل أي موقف يحتم عليّ الحفاظ على سلامة أخي. كنت مخطئة بشكل كارثي.

كنا سنجده مبكرًا، لو كنتُ فكرت أنه، حتى وإن كان متضايقًا حقًّا مما حدث في «الويرهاوس»، فلن يتركنا في انتظاره هكذا أبدًا.

يسألني الضابط: «هل أنتِ بخير؟ هل تريدين ماء؟»

أهز رأسي وأغمغم: «أنا بخير».

فيقول: «حسنًا، جيد. أردت فقط أن أرى إن كان بإمكانك مساعدتي في أسئلة قليلة. هل يمكنك إخباري بأي شيء عمَّ كان يفعله يوسف ليلة أمس؟ أو أي شخص كان سيقابله؟»

أهز رأسي، وأجيبه: «لا، لا أحد. كان من المفترض أن يعود من العمل إلى البيت».

«وهل يعمل في استديو الموسيقا؟»

أومئ برأسي قائلة: «نعم، كريشندو. هناك، يدرب الأطفال، ويتمرن مع فرقته أيضًا».

«كريس وليام، صحيح؟ هذا ما قالته أمك».

أجيبه: «نعم». فيسأل عن اسميهما بالكامل، فأذكرهما له. فيسأل: «وكان عليه درس هناك ذاك المساء؟»

فأجيبه: «نعم». وتخطر لي أفكار سريعة، فأضيف: «أقصد، ظني هذا. بيتو هو المدير. أنا... هل تظن أن لديهم كاميرات مراقبة في الاستديو؟ ربما سجلت الكاميرا شيئًا ما؟»

يومئ كمدرّس سمع إجابة سليمة عن السؤال الخطأ، ويقول: «تحدثنا إلى بيتو، وننظر حاليًا في الكاميرات».

الشرطة تتحدث إلى أشخاص إذن؛ ما يعني أنهم لا يعتبرون الأمر مجرد حادث فظيع. لا أُسمي شعوري إزاء هذا بالارتياح، لكنني أشعر بتحسّن لأنهم يطرحون الأسئلة.

أقول له: «أرجوكم، لا بد أن تجدوا من فعل هذا به».

فيقول: «تبدين واثقة تمامًا بأن أحدًا فعل هذا به. ماذا جعلك تقولين هذا؟ هل كان يوسف على خلاف مع شخص ما مؤخرًا؟»

كيف أُجيب عن هذا السؤال؟ نعم ولا. لم أسمع صياحًا ولم أرَ عراكًا، مع ذلك بدا أن العالم كله ضده منذ ليلة الويرهاوس. هل تعرف الشرطة عن هذا بالفعل؟

أبدأ الإجابة قائلة: «كانت هناك تلك الفرقة الأخرى في الويرهاوس في الليلة نفسها التي عزفت فيها فرقة أخي ومغنيها ....».

أُخبره عن لارسون، وعن كل ما حدث تلك الليلة، وعن التعليقات على موقع مطعمنا، وعن الجرافيتي في المدرسة أيضًا.

يسأل: «خارج المدرسة أم داخلها؟ يتكرر هذا كثيرًا في الأنحاء. الصليب المعقوف وما إلى ذلك». فأجيبه: «بل على خزانته. موجّهة ضده».

يُومئ برأسه دون أن يُبدي أي تعبير ينمّ عن رد فعل، ولا حتى صوت يدلّ على تعاطف. تصعب قراءة أفكاره.

يسأل: «هل لدى المدرسة أي فكرة عن الفاعل؟»

أجيبه: «لا، ولم يقولوا شيئًا عن الأمر».

لماذا أشعر الآن أن الأسرار في كل مكان؟

«هل كان أخوكِ يتردد كثيرًا على الويرهاوس؟»

«إطلاقًا. أقصد، تلك المرة فحسب، ولم يكن زائرًا، كان عازفًا. لذلك ذهبنا نحن أيضًا. كانوا متحمسين جدًا لفرصة العزف في مكان حقيقي».

«وكيف كان رد فعلهم على ما حدث تلك الليلة في الويرهاوس؟»

«كانوا مستائين. أقصد، مما قاله لارسون، ورد فعل الجميع».

ينقر بسنّ قلمه على دفتره المفتوح، وتتمدد شفتاه في خطّ وهو ينظر إلى الأسفل بصمت. في أثناء صمته، أفكّر في ما أعلنته له للتوّ.

لارسون. الجرافيتي. البلدة. ذهابنا إلى الويرهاوس. يعرف أنه بجواره بار بالتأكيد. طالما تمتع يوسف بأصحاب كثيرين، لكنه يبدو الآن كأنّ لديه أعداء أكثر، وكأنه يذهب إلى الأماكن الخطأ.

يقول: «حسنًا، شكرًا على هذا»، ويميل إلى الأمام على حافة الكرسي، ويتفقد ملاحظاته.

أقول: «انظر، أنا لا أعرف ماذا حدث ليوسف، لكنني أعرف أنه لم يسقط وحده. لا بد أن شخصًا ما يعرف شيئًا ما». أتذكر الشاب الذي كان يحاول سحب المايكروفون من يوسف على المسرح. ماذا كان اسمه؟ فأضيف: «ويمكنك التحدث إلى جيس!»

يتأكد مني: «جيس؟ مَن جيس؟»

أقول: «لا أعرف لقبه. إنه مدير الويرهاوس. أو ربما ليس المدير، لكنه يعمل هناك. كان يقدّم الفِرق تلك الليلة، ويعرف ماذا قال لارسون، يعرف كل شيء. يمكنه إخبارك بالمزيد عن لارسون».

يُضيف اسم جيس إلى قائمته، ويطلب مني رقم هاتفي، ثم يتنحنح

، ويقول: «حسنًا، فهمتُ أن والديك لا يعلمان عن عزف يوسف في الويرهاوس. هل توجد أشياء أخرى كان أخوكِ يحتفظ بها سرًّا عن والديكما؟»

فأجيبه: «لا. يوسف ليس من هذا النوع»، وأشعر بأنني دفاعية قليلًا. فأضيف: «كان سيُخبرني. أقصد أنه لم يكن ليُخفي عني شيئًا كبيرًا».

فيقول: «بالتأكيد، لكنني يجب أن أسأل. انظري، أعلم أن هذه أوقات عصيبة. أنتِ قلقة على أخيكِ وتريدين إجابات، أفهم هذا. أنا أيضًا لي أخت، وقد ظلت سندًا لي طوال حياتي. لذلك، عليكِ الآن أن تكوني معه. لقد دوّنت كل ما قلته، وإليكِ رقمي».

يناولني بطاقة بأرقام الاتصال به، ويردف: «اتصلي بي لو ظننتِ أن عليكِ إبلاغنا بأي شيء».

أُراقبه يسير مبتعدًا، ويدور رأسي بأسئلة. لا أعرف ماذا أفعل بمحادثتنا. لماذا أشعر أن يوسف في مأزق ما؟ ليس لديه حياة سرية. كل شيء أبسط مما جعلته يبدو حقًّا، ومع ذلك، لا شك أن عالمه كان فوضى من الشوك والاشتباكات أيضًا.

أشعر بضيق في صدري وحلقي، وأخشى أن أختنق في البهو. أتصل بأمي وأُخبرها أنني سأعود إلى البيت بالباص. لا تُسعدها الفكرة، لكن توصيلي بالسيارة سيضطرها إلى ترك يوسف، ولا أحد يريد هذا الآن.

بينما أعبر ساحة الانتظار، أتذكر المرات التي دخلت فيها غرفة يوسف ورأيته يُنحي هاتفه بعيدًا عن نظري. يدردش هو وأصحابه كثيرًا. فهمتُ أنهم يتحدثون عن أشياء لا يريدني أن أراها، الفتيات أو أيًا كان. هل كان الأمر أكبر من هذا؟

تُثير كل فجوة مررنا بها أفكاري وتُشتّتها. يُعيد ذهني صوغ المحادثة عشرات المرات حتى أصل إلى محطة الباص، ثم يواصل وأنا أسير في الشارع إلى منزلنا. هل يظنّ الضابط أنني أُغطي على يوسف في شيء ما؟ هل يهتم حقًّا بما حدث، أم طرح أسئلة قليلة لمجرد القيام بعمله؟

أتلقى رسالة من مونا ما إن أعبر الباب الأمامي:

[كيف حاله؟ أين أنتِ؟]

أجيبها: [كما هو. عدت إلى البيت الآن].

أُلقي بنفسي على الأريكة، وأخلع حذائيّ وأركلهما بعيدًا. يبدوان خطأ فادحًا في منتصف الغرفة، لدرجة أنني أُجرجر نفسي وأضعهما في خزانة الأحذية. أُحدّق في غرفة المعيشة، وأتساءل مع من سيتحدث الضابط بعد ذلك. كان يجب أن أسأله. كيف سيعرف حتى إلى من سيتحدث بعد ذلك.

أُخرج من حقيبتي دفترًا وقلمًا. لا أعرف الأسئلة التي ستطرحها الشرطة، وأفكر أنني يجب أن أطرح أسئلتي الخاصة.

أبدأ وضع قائمتي الخاصة، وأبدؤها بعضوي الفرقة: كريستوفر ووليام. ليس لدي رقماهما، لكن يمكنني التواصل معهما عبر تطبيق البيكاب. أُضيف اسم بيتو وكل الأسماء التي ذكرتها للضابط. هل نسيتُ أحدًا؟

ظل يوسف يقضي أوقاتًا طويلة جدًا مع كريس وليام مؤخرًا، وقلّما خرج مع أصحابه الآخرين. مع ذلك، أُضيف أسماءهم إلى القائمة: رومان، إيفان، كريم، نيستور.

كدت أنسى كيث. يتحدث إليه يوسف كل صباح تقريبًا، في وجودي بالطبع، ولا أظن أنني فاتني الكثير، لكنني يجب أن أسأل. لم يتصل، ولم يرسل رسالة. لا أريد تحليل صمته بعمق، لأن لا وقت لهذا.

أفتح تطبيق البيكاب على هاتفي، وأرسل طلبات صداقة لجميع أصدقاء يوسف ليمكنني التواصل معهم، أو ليمكنهم هم التواصل معي. لست من النوع الذي يُوسّع دائرة أصدقائه على وسائل التواصل الاجتماعي، لكنني أشعر أن هذا بأهمية التنفس الآن، أن أفعل شيئًا مفيدًا. أتصل بالاستديو لأسأل عن بيتو.

يقول: «إنه ليس هنا، والاستديو مغلق اليوم في الحقيقة، هل يمكنكِ الاتصال في وقت آخر؟»

أقول: «كريس؟»، وأُميّز صوته، «أنا يالدا».

يقول: «نعم، مرحبًا»، ويبدو مدهوشًا لاتصالي به، «أرسلت لكِ رسالة. كيف حال يوسف؟»

أُجيبه: «ما زال في المستشفى، في العناية المركزة».

يقول: «خراء. لا أُصدّق أنه سقط... أقصد، هذا كله جنون شديد».

أُومئ برأسي، ما يُعد غباءً لأنه لا يراني.

يسألني: «هل سيكون بخير؟»

ليتني أعرف. أُجيبه قائلة: «يقولون إن حالته ستستقر، لكنها ستستغرق وقتًا».

يُطلق تنهيدة قوية.

أقول له: «اسمع، أنا أُحاول فهم ما حدث... تلك الليلة. هل تعرف متى غادر يوسف؟»

يُجيبني: «غادر قرابة الساعة الثامنة، على ما أظن. لم أتحدث إليه كثيرًا. كنا نحن الاثنين نتدرب ذاك المساء. كان تدريبي بعده، لذلك رأيته وهو يغادر. لوّح لي في طريقه للخروج، ولوّحت له، أعني.. ظني أنني لوّحت له».

يبدو متوترًا قليلًا، كأنه يجد صعوبة في نطق الكلمات.

أقول: «هل قلت إن الاستديو مغلق؟»

لم يسبق أن فكّرت حتى فيما يحدث في الاستديو. يقول: «نعم. أغلقنا بعد... بعد ما سمعنا. كان بيتو هنا، لتدريبات قليلة، لكن بوجود يوسف في المستشفى، لم نستطع فحسب. وليلة أعياد الميلاد غدًا عمومًا، فلا داعي لفتحه الآن».

أتذكّر الطبول الضئيلة على شجرة أعياد الميلاد في كريشندو. ربما ينظر كريس إليها الآن أيضًا.

أسأله: «ماذا تفعل في الاستديو؟»

يقول: «الحقيقة أنني سأقابل ضابط شرطة. أراد أن يسألني أسئلة قليلة وطلب مني مقابلته هنا. لا أعرف. في العودة إلى هنا شعور غريب جدًا. كأنه ليس من الواقع. كيف لم أتوقّع...».

اصطدم أبي بهذا الشعور أيضًا. كيف لم ينتبه ليوسف بما يكفي، ولم يستشعر اقترابه من خطر؟

أقول له: «نعم، توجد أشياء كثيرة للتفكير فيها. لكن، هل يمكنني سؤالك عن شيء؟ هل لاحظت أي خلل في الدرابزين من قبل؟»

يُجيبني قائلًا: «لا، لم أُلاحظ. اسمعي، الجميع يعرف أن المكان متهالك عمومًا. سقط علينا الماء من السقف في غرفة الاستراحة الشهر الماضي، وما زالت الدلو التي وضعناها هناك في مكانها. هذا سيئ، لكنني لم أتصوّر أن يؤدي هذا السوء إلى وقوع حوادث. قام أحدهم بلصقه بشريط لاصق مؤقتًا».

أتخيّل اللاصق الأصفر يتطاير مع رياح الشتاء.

أسأله: «وماذا عن وقت مغادرتك؟»

يجيبني: «كان المكان مظلمًا. لا أعرف. ظني أنني أغلقت الباب ولم أنظر حولي إلى ركنٍ ما. أنا آسف يا يالدا، أنا حقًّا آسف».

أقول له: «أعرف. شكرًا».

كانوا ثلاثتهم، يوسف، وليام، وكريس، أصدقاء من قبل الفرقة، لكن صداقتهم توطدت حقًّا حين بدؤوا العزف معًا، كأن التناغم الذي وصلوا إليه بآلاتهم الموسيقية يظلّ معهم في الحياة.

ثم أضيف: «شيء واحد آخر، هل توجد في الاستديو كاميرات مراقبة؟»

يسكت للحظات، ثم يقول: «توجد...»، ثم يتنهّد ويضيف: «لكنها لا تعمل منذ وقت. لا أظن أنها موصّلة بالكهرباء حتى. أمر مؤسف يا يالدا، سأرى إن كان يمكنني التفكير في شيء آخر. ويوسف، سيكون بخير، أليس كذلك؟»

أُجيبه: «نعم»، ولا أعرف إن كان يسألني أم يُخبرني.

أنهي الاتصال، وأرقد على ظهري وأفكر. أُميّز الذهول في صوته، كأنه لا يمكنه استيعاب أن يوسف مُعلّق بين الحياة والموت.

بعد شهر تقريبًا من جنازة رحيم، جاء إلى مدرستنا عدد من ضباط الشرطة بعربة جولف، وأقماع، وحواجز برتقالية. أنشؤوا في ساحة الانتظار مسارًا للقيادة، لم يكن مسارًا صعبًا، لكنهم ألبسوا عددًا قليلًا من طلبة العام الأخير «قناع السكارى» للإشارة إلى القيادة بعد شرب عدد من زجاجات البيرة. شاهدناهم يصطدمون بالحواجز، ويضحكون حين يدركون أنهم انحرفوا بشدة وأطاحوا بقمع. ثم سمحوا لنا بالقعود على العشب في مرج المدرسة، ليشرح لنا الضابط الغرض من هذا النشاط.

قال في مايكروفون موصّل بسماعة على عجلات -خرج صوته منها رفيعًا ومتعرجًا-: «نحن نقوم بهذا عامًا بعد الآخر لسبب. يشعر المراهقون بأنهم لا مرئيون». بدا أن نظام الصوت لديهم من عمرنا تقريبًا.

رفعت بصري حينها، شعرت فجأة أنني مرئية جدًا.

نظر إلينا وسكت بشكل مؤثر، ثم قال: «أنتم صغار ومليئون بالحياة. لا تتخيّلون أن شيئًا ما قد يؤذيكم».

قال «لا يُقهرون» بدلًا من «لا مرئيون». نظرتُ إلى زملائي من حولي سريعًا، أتساءل إن كان ما يقوله حقيقيًا. لو كان كذلك، فسيجعلني هذا مختلفة. لأنني أشعر بانهزام كل شهر تقريبًا، لعدد أيام أكبر مما يمكنني التصريح به.

لذلك، يحدث في كثير من الأحيان أن يرتكب أحد الطلبة من هذه المدرسة خطأً كبيرًا يؤدي بأسرة إلى الترتيب لجنازة

بدلًا من حفل تخرّج. القيادة تحت تأثير الكحول تُعرِّض الجميع للخطر. أحيانًا يُصاب الآخرون، وأحيانًا السائق نفسه. لا تفعلوا هذا بوالديكم، حذّرنا بصوت عميق ليؤثّر فينا.

تلك الليلة، في البيت، ذهبتُ إلى غرفة يوسف وجلستُ على فراشه.

قلت له: «هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟»

قال: «لقد سألتِني للتو بالفعل».

لا بدّ أنني دُرتُ ببؤبُؤَي، وسألته: «هل تشعر بأنك لا تُقهَر؟»

فسألني: «لماذا تسألين؟» وحين لم أُجبه، أبعد كرسيّه عن المكتب لينظر من النافذة، وقال: «لقد نطقها خطأً. الشباب لا يقودون تحت تأثير الكحول لأنهم يظنّون أنهم لن يموتوا، بل لأننا فهمنا أن الجميع سيموتون في النهاية، وأننا لو لم نعش حياتنا حتى آخر قطرة الآن، فسنُضيِّع الفرصة للشعور بالحياة».

أجد نفسي عدتُ إلى غرفة يوسف. أحدّق إلى الخطوط الرفيعة لتشقّق طلاء السقف. أكاد أسمع خبط قدَمه مع إيقاع الأغنية التي تتردّد في ذهنه.

لم يشعر بأنه لا يُقهَر، بل كان يقترب من الخطر، يكتب أغاني، ويُخاطر، ويُعرّض نفسه لعقوبة... كأنه لم يكن يخبط بقدمه مع إيقاع أغنية، بل مع دقّات ساعة.

الفصل العشرون

قالت إيميلي ديكنسون إنّ الأمل كائنٌ له ريش. لا أعرف لماذا أفكّر في هذه القصيدة وأنا أراقب الطبيب يفحص يوسف.

ننتظر أن يمنحنا يوسف الأمل، لكن الهواء حوله ثقيل بما يكفي ليسقِط حتى أخفّ الكائنات وزنًا.

يقول الطبيب: «يبدو اليوم مستقرًا، ما يُعدّ جيدًا. علينا منحه بعض الوقت».

يحرص فيما يقوله لنا، يُوازن بين الجيّد والسيّئ. أريد أن يبقى هذا الطبيب وقتًا أطول، كما أريد من كلّ من يرتدي بدلة عمليات أو معطفًا أبيض أن يبقى في الغرفة وقتًا أطول قليلًا. الأسوأ بكثير أن نُترك وحدنا مع أزيز وطنين الأجهزة التي تُبقي يوسف على قيد الحياة. لم أشعر بقلق كهذا من قبل. أكافح لأبقى في مقعدي.

أحضرتُ معي دفتري لأخطّ فيه حين لا يمكن لوالدي رؤية ما أرسمه. لديّ صفحات مليئة بخطوط وتموّجات ودوائر لا معنى لها. رسمتُ اليوم فيلًا يختلس النظر من خلف ستارة مستشفى، يُزيحها إلى الخلف بخرطومه، وخلفه طفل صغير يقعد على الأرض ورأسه بين ركبتيه المثنيّتين. القلم في يدي هو الشيء الوحيد الذي يمكنني التحكّم فيه.

يقول أبي لأمي بصوت خفيض: «ليدا اتصلت».

تومئ لـه دون أن تسـأله عـن أحـوال العمـة ليدا. تُرهـق عاطفيًا دائمًـا كلمـا تحدّثـتْ إليهـا، وتبـدو الآن منهكـة بالفعـل.

يضيف أبي: «عرضت القدوم، للمساعدة».

تجيبـه أمـي بالدارية: «لا داعـي لهذا»، فأشـعر بارتيـاح. لا أتخيّـل وجـود والـدة رحيـم معنـا الآن. كلمـا تذكّـرتُ كيـف كانـت تُخطّـط لتزويجـه، أشـعر بتكوّن عقـدة غضـب فـي داخلـي.

لا يقول أبي شيئًا آخر.

توجـد مقولـة مبتذلـة عـن كـون اليـوم «هديـة»، ولذلـك ندعـوه الحاضـر. أن أكـون حاضـرة يُعـدّ هديـة أيضًـا. أشـعر بالسـوء كلمـا خرجتُ مـن غرفـة يوسـف فـي المستشـفى، رغـم عـدم فهمـي سـبب وجوده هنـا. لا أعـرف أثـر هـذا فـيّ حتـى، أشـعر للحظـة بأننـي أريـد أن أمسـك بيـده وأتحـدث إليـه فـي أذنـه، وفـي اللحظـة التاليـة أختنـق مـن مشـهد الأنبـوب فـي حلقـه. أريـد أن أسـحب الأنبـوب مـن فمـه ليمكنـه أن يجلـس ويسـألني إن كنـتُ رأيـتُ شـاحن هاتفـه.

أنظـر إلـى هاتفـي. ظـلّ يصلنـي فيـض ثابـت مـن الرسـائل ممّـن يريـدون الاطمئنـان علـى يوسـف: مونـا، وأسـماء، وكريـس.

توجد رسالة جديدة من رقم غير مسجَّل على هاتفي:

[مرحبًـا، لقـد سـمعت الخبـر للتـو، كيـف حـال يوسـف؟ يؤسـفني مـا حـدث لـه. أنـا ليـام بالمناسـبة].

لا بـد أنـه أخـذ رقمـي مـن كريـس. علـى النقيـض مـن كريـس، الـذي يتعامـل بمشـاعر واضحـة، يتعامـل ليـام مـن خلـف زجـاج غائـم. تسـاءلتُ دائمًـا إن كان يوسـف يعرفـه حقًـا كمـا يظـن، مـع ذلـك، لـم يحـدث بينهمـا أي خـلاف قبـل اضطرارهمـا إلـى اختيـار أغنيـة

لحفل الوير هاوس. من المؤسف أن الأمر تطلّب حدوث ما حدث ليوسف ليُعيد ليام التفكير بهدوء.

بينما أفكر في هذا يئز هاتفي برسالة من مونا تسألني أين أنا.

أجيبها: [في العناية المركزة].

لا يرفع والداي بصرَيهما. أستغرب تعوّدنا السريع على أوركسترا الأصوات في الغرفة: صفير قطب كهربائي يؤكّد نبض أخي، وطنين أجهزة تمرّر قطرات سوائل شفّافة إلى أوردته، وقعقعة قضبان الفراش لدى خفضه ليتمكن الممرضون من تحريك جسده الهامد، وصوت تجعّد بلاستيك قسطرة الشفط التي تُصفّي المجرى الهوائي.

ورغم هذه الضجّة، يحدث الكثير جدًّا في صمت. يملأ دم يوسف أنابيب مطّاطية. يلتئم الجرح في فروة رأسه تحت الدبابيس. يُكافح أخي من أجل البقاء.

لكن، هل يقاتل؟

وهو هامد هكذا؟ يصعب التخمين.

أنظر إلى هاتفي.

رسالة من مونا: [نحن في البهو].

أنظر إلى والدَيّ. وضع أبي كرسيه في أقرب مكان ممكن لرأس يوسف، وأمي خلفه مباشرة، جفناها مغمضان ويطرُفان قليلًا. أضع دفتري وأقلامي في حقيبتي بهدوء. أبي فقط من يلاحظ نهوضي وخروجي من الغرفة، ولا يبدو على وجهه أنه يعترض.

أهبط في المصعد لأجد مونا وأسماء تقعدان على دكّة في البهو، الهادئ بشكل خاصّ اليوم، فأتذكّر فجأة أعياد الميلاد. فقد اليوم معناه. تجلس كلّ منهما على حافة المقعد كأنهما تخشيان الالتصاق به إلى الأبد لو استندتا بظهريهما. تهبّ أسماء ناهضة ما إن تراني.

تسألني بعينين دامعتين وأنف مورَّد: «يا إلهي، يا يالدا، كيف حاله؟»

وقبل أن أُجيبها، تُحيطني مونا بذراعيها وتعانقني بقوّة. ثم تميل إلى الخلف لتنظر إليّ. تظلّ ممسكة بذراعي على طريقة الخالات، وتقول: «هذا فظيع جدًّا. كيف حاله؟ وكيف حالك؟ ماذا حدث له؟»

تأخذ أسئلتها ذهني في اتجاهات مختلفة، فيصعب عليّ صوغ ردٍّ واضح. أقودهما إلى ركن هادئ في البهو، بعيدًا عن التلفاز، حيث رجل بشعر رمادي يقعد وحده يقرأ جريدة. الكراسي متّصلة، فأقعد على كرسي في المنتصف، ويقعدان إلى كلا جانبيّ. أقول: «اضطروا إلى إجراء جراحة له بسبب تَخثُّر دموي في المخ. يقولون إنها نجحتْ، لكنه ما زال موصَّلًا بأجهزة كثيرة. قلبه في حالة سيئة».

تمسح أسما دموعًا على خديها، فأشعر بالدموع في مقلتيّ حين أراها. بكيتُ كثيرًا حين وجدنا يوسف، وظللتُ منذ تلك اللحظة أبكي بصمت بعيدًا عن الأنظار.

تسأل مونا: «لكن كيف؟ هل دفعه أحد؟»

فأجيبها: «كان الوقت متأخرًا، وكاميرات المراقبة في الاستديو لا تعمل، لذلك لا نعرف. والحقيقة أنني أعتقد أن... أن... أحدًا دفعه نحو الدرابزين خارج الاستديو. الشرطة تحقق في الأمر، لكنهم لم يُخبرونا بشيء، أو ربما لم يصلوا إلى شيء. أتمنى لو كان بإمكانه هو إخبارنا بما حدث ببساطة».

تقول مونا وهي تهزّ رأسها: «يا إلهي، من الذي يمكنه فعل هذا؟ وبيوسف؟»

تسأل أسما: «هل يتحدث الآن؟»

أهز رأسي، لأنني لا أريد أن أقول إن أخي مجموعٌ كله بدبابيس طبية وأربطة مطاطية. أردد ما سمعته كالببغاء: «يقولون إنه في حاجة إلى وقت». تسأل أسما وهي تطرف بعينيها: «لكنه سيكون بخير؟» إنها تتعاطف، وأنا أحبها لهذا، لكنني قلقة منها الآن، لأنها قد تدفعني إلى الحافة، لذلك أُطلق نفسًا طويلًا ببطء.

تقول مونا فجأة، قبل أن أجيب: «حسنًا. كيف يمكننا المساعدة؟ سترسل أمي بعض الطعام إلى بيتكم. هل تحتاجون إلى شيء؟»

وتقول أسما: «وسيقيمون الليل في المسجد. تحدث والدي إلى الإمام هناك، فشعر أن علينا فعل شيء ما. الناس يودّون المساعدة فحسب».

لا أعرف من تحديدًا تقصد بكلمة «الناس». نحن نذهب إلى المسجد في الأعياد والجنازات فقط. والدَاي مشغولان جدًّا في المطعم والبيت، واجتماعياتهما تقتصر على مكالمات فيديو مع الإخوة والأقارب في ولايات أو قارات أخرى. لكنني رأيت المسجد في الأعياد يفيض بالناس حرفيًّا، وإن كان كل هؤلاء سيدعون لأخي، فسأكون في منتهى الامتنان.

فلماذا إذن أنكمش في داخلي؟

أقول لهما: «شكرًا»، وتومئ مونا برأسها كأننا اتفقنا للتو على خطة حربية.

تضع أسما يدها على يدي.

أقول: «أريده أن يفيق فقط».

فتقول مونا بصوت يملؤه اليقين: «وسوف يفيق».

أريد أن أصدقها، لكنها لم ترَ حالته حتى الآن، وليس لديها أي معرفة طبية.

تضيف: «سترين، الجميع يفكر فيه. ليام طلب مني رقمك أيضًا. ربما يخشى بعضهم إزعاجك، فيتصلون بي كأن لدي كل المعلومات، لكن لا تقلقي، أجيبهم بأنني لا أعرف شيئًا ولستُ في موقع يسمح لي بالإجابة».

أقول لها: «أرسل لي ليام رسالة»، وأتذكر أن كريس لم يردّ عليّ بخصوص كاميرات المراقبة، عليّ أن أسأله.

تقول أسما: «لا بد أنه يشعر بسُخف شديد لموقفه السابق من يوسف».

فأقول: «لذلك ربما أرسل لي رسالة»، وأستعيد رسالته في ذهني، لم يعتذر عن موقفه من يوسف، لكنه على الأقل لديه الشجاعة للتواصل.

يساعد كثيرًا حين يرسل الناس ولو مجرد رسالة. أتمنى سرًّا أن أتلقى رسالة من كيث، لكن أعياد الميلاد تشغل الجميع، وينبغي قضاؤها مع الأسرة، لذلك ربما لن يصلني منه شيء لفترة. أتذكّر مجددًا رؤيته هو وداني يقفان مع لارسون في ساحة انتظار الويرهاوس. أشعر بموجة غضب جديدة من لارسون.

يجب أن أنام قليلًا. أرى الأشياء مقلوبة من الداخل إلى الخارج، ورأسًا على عقب، وأنا في حاجة إلى تفكير سليم الآن أكثر من أي وقت مضى.

تنظر مونا إلى هاتفها وتقول بدهشة: «لا»، ثم تطرف عينيها ببطء وتطفئه وتضعه في جيبها. فأسألها: «ما الأمر؟»

تهز رأسها وترفع كتفيها. تحاول أن تبدو لا مبالية، لكنها مكشوفة رغمًا عنها. أقول: «دعيني أرَ». تنظر أسما إلينا بحنق من كلينا، إنها حانقة عمومًا.

تقول مونا: «لا شيء مهم، مجرد تفاهات».

أقول بنبرة تقنعها بأنه من الأفضل أن تخبرني بما رأته الآن: «مونا». فتقول: «إنه مجرد، أعني، نشر المسجد عن الصلاة للدعاء ليوسف على الإنترنت، وبالطبع سيجد أحمق ما الفرصة لقول شيء ما أحمق مثله».

تنظر أسما إليّ، ثم تهز رأسها.

أقول: «أريه لنا فحسب يا مونا، هذا يجعله أسوأ».

تغمغم بأسف، لكنها تُخرج هاتفها من جيب الحقيبة وتفتح لنا صفحة المنشور.

أسفل إعلان المسجد عن الصلاة للدعاء ليوسف، أضاف شاب اسمه بي بول أونيون فقرة جذبت اثني عشر ردّ فعل، مزيج من النجوم والوجوه المدهوشة:

قبل أن يبدأ الجميع في البكاء على هذا الشاب، لا تنسوا أنه حاول تحويل الجمهور. وهذا لا أخلاقي ويُعتبر جريمة. هذه أمريكا. رأينا جميعًا أشخاصًا كثيرين في المسجد كل يوم مؤخرًا، وفي أوقات غريبة أيضًا. انتبهوا جيدًا.

تقول أسما: «يا إلهي، هل لديه روح حتى؟»

تقول مونا بثقة بخطتها: «ربما كان روبوتًا. لكن الكثيرين لا يحبون ما قاله. إنه سلوك نموذجي للفت الانتباه. وعلينا الرد عليه بالنقيض تمامًا».

تسأل أسما وهي تلوّح بيدها نحو هاتف مونا: «ونتركه هكذا... دون رد؟» من الواضح أنها لا تحب رأي مونا.

في عالم موازٍ لم يسقط فيه يوسف قط، كنت سأريه هذا، لنغضب معًا، وكان سيرد عليه بتعليق ما ساخر وذكي، وكنت سأهدأ وأحفظ لساني. كان يوسف هو المسؤول عن الردود الذكية.

أنا مرهقة، وليس لدي طاقة سوى لإغماض عينيّ والرجاء، كفرشاة مثقلة بالحبر، أن يمكنني إخفاء الجميع وكل شيء.

الفصل الحادي والعشرون

أسأل أبي، لأملأ الصمت في الغالب: «هل ستذهب إلى المطعم؟». لدي احتياج جديد لسماع والديّ يتحدثان. لا يهمني ما يقولانه غالبًا. أريد فقط أن أسمع في صوتيهما نبرة ثابتة، لأتأكد من أنهما ليسا على حافة الانهيار.

يجيبني دون أن ينظر نحوي: «لا». يقود كعادته، يده اليسرى أسفل عجلة القيادة عند موقع الساعة السادسة، واليمنى على فخذه، وظهره إلى الخلف في مقعده. قد يبدو للعين غير المدربة مسترخيًا، لكنني أرى الضيق حول فمه. أعرف أنه لا يقود دون تشغيل الموسيقا أبدًا، في الغالب أغاني شعبية أفغانية، ويسمع أيضًا القليل من جورج مايكل ومايكل جاكسون.

يغلق والديّ المطعم لثلاثة أيام فقط في السنة كلها. كانت آخر ليلة فُتِح فيها ليلة عثورنا على يوسف. مرّ الآن يومان على أعياد الميلاد وما زال مغلقًا، كعلامة مؤكدة على انقلاب عالمنا رأسًا على عقب.

أسأله كي لا يفوتني شيء عن حالة أخي: «هل قال الأطباء شيئًا آخر عن يوسف بعد مغادرتي؟ هل أجروا فحوصات أخرى؟»

فيهزّ رأسه ويجيبني: «لا، علينا الانتظار فحسب».

أطلق نفسًا بطيئًا، أتحكم جيدًا في الهواء كي لا يخرج بصرخة.

وأقول: «أبي؟»

فيجيبني: «نعم؟» وينظر إليّ بفضول.

فأسأله: «هل تظن أنه... أنه سقط فحسب؟»

لا يقول شيئًا. يبطئ السيارة ليوقفها عند إشارة مرور، ثم يبدو كأنه يحدق إلى مغسلة الملابس على الجانب الآخر من الشارع.

يفزعني صوت بوق عالٍ. يفرد أبي ظهره. أضاء اللون الأخضر، وسائق السيارة التي خلفنا لا يطيق صبرًا، يميل على البوق مجددًا. يرفع أبي يدًا في اعتذار ويتحرك. أفكر في استسلامه، وأتساءل إن كان ما زال يجلد نفسه لعدم عثوره على يوسف مبكرًا. إنه ليس المذنب. لا أريد أن أصدق أن أحدًا ما كان شريرًا بما يكفي مع أخي، لكنني لا يمكنني تجاهل الحقائق أيضًا. ولست الوحيدة في هذا. لمَّح اثنان ممن علقوا على منشور المسجد إلى وجود شرٍّ حقيقي خلف ما حدث ليوسف.

أقول له: «يقول البعض إنها جريمة كراهية»، وأشعر بأنني خضت في مياه مثلجة.

يختلج وجهه. فأقول: «أنا فقط أقترح...».

فيقاطعني قائلًا بالدارية، كعادته حين يكون حزينًا جدًّا أو سعيدًا جدًّا: «يالدا، لا أريد التحدث عن هذا الآن». لا تتدفق إنجليزيته بسلاسة إلا بعواطف في درجة حرارة الغرفة.

أترك المحادثة لأنه بدا مثلما كان ذات مرة حين تشنج ظهره ولم يمكنه النهوض.

أرى منزل كيث أمامنا. أخرج هاتفي من حقيبتي وأمرر القائمة حتى أجد اسمه. أريد أن أعرف ما يعرفه وما سمعه في الأنحاء.

أرسل له: مرحبًا، هل أنت موجود؟ شاشة هاتفي بزاوية لا

يراهـا أبـي. نتجـاوز منـزل كيـث حينهـا ونقتـرب مـن منزلنـا، وأرى بوابـة الجـراج مفتوحـة.

أسأل أبي: «هل تركت باب الجراج مفتوحًا يا أبي؟»

فيهز رأسه ويقول: «عمتك هنا. قدمت بالطائرة هذا الصباح».

ظهـرت خـارج الجـراج -كأننـا اسـتدعيناهـا- تحمـل كيـس قمامـة أبيـض كبيـر. تلقـي بـه فـي حاويـة القمامـة الكبيـرة وتتوقـف حيـن تـرى سـيارتنا تقتـرب.

لـم أحتـج إلـى السـؤال عـن أي عمـة يقصـد. اقترينـا بمـا يكفـي لأتأكـد بعينـي أنهـا العمـة ليـدا، أم رحيـم.

يقـول أبـي ليضـع الخطـة: «لقـد سـافرتْ فـي وقـت مبكـر جـدًا. وأنـا واثـق بأنهـا لـم تـأكل شـيئًا. لنعـد بعـض الطعـام لهـا، ونريحهـا قليـلًا».

لـم أرَهـا منـذ الجنـازة. سـمعتُ أمـي تتحـدث معهـا علـى الهاتـف عـدة مـرات، لكنهـا كانـت مكالمـات وجيـزة تدمـع عينـا أمـي بعدهـا دائمًـا، وتظـل تدعـو الله أن يحفـظ جميـع الأطفـال ويعفـي أمهاتهـم مـن هـذا الألـم.

تبـدو العمـة ليـدا مختلفـة. ازداد وزنهـا قليـلًا، وظهـر عنـد مفـرق شـعرها خـط جـذور رماديـة. أترجـل مـن السـيارة وأسـير نحوهـا. تعانقنـي بقـوة، وأنـا أغمغـم بتحيـة وأمنـع دموعًـا تسـيل بسـهولة مؤلمـة هـذه الأيـام.

تقـول لـي عمتـي: «هيـا يـا حبيبتـي، لا تضيعـي وقتـك، الصـلاة خيـر مـن البـكاء. ويجـب أن تأكلـي شـيئًا مـا. والـداكِ لا ينقصهمـا القلـق عليـكِ».

لاحظتُ ما إن دخلتُ أنها بدأت العمل فورًا. حوض المطبخ خالٍ، والمناضد لامعة. طبق المايكروويف الدوّار على رف التجفيف؛ ما يعني أنها عملت على الأجهزة أيضًا. أسمع صوت دوران الغسالة من الرواق. ليس علينا استضافتها، من الواضح أنها هنا لمساعدتنا نحن. لجزء من الثانية، أشعر بالأمل، كأنه بالقدر السليم من الجهد في العمل المنزلي قد تزول مشكلاتنا كلها.

أقول: «شكرًا عمة جان. ربما في وقتٍ آخر، عليّ الآن إنجاز فرضٍ مدرسي»، وأترك أبي وعمتي ليتحدثا. أشعر بالسوء لتفكيري هكذا، لكن رؤيتها تقرّبني من الحزن.

تقول باستحسان: «فتاة جيدة.. أنت دائمًا فتاة جيدة». وتدير ظهرها لي.

ظلت تردد هذا عني منذ كنت فتاة صغيرة، حتى صار هو الرأي العام للعائلة كلها. لا يعني هذا أن أبناء عمومتي الآخرين حمقى، بل أغلبهم يسهل عليهم أكثر مني إبداء آرائهم، أو الصياح في المباريات الرياضية، أو الرقص على أنغام الموسيقا. أنا أقوم بحسابات المخاطر، وأبالغ في التفكير، وأتوه في أفكاري الخاصة. لستُ فتاة مثالية حقًا، ولو كنت كذلك، لما كنتُ سأنسحب إلى غرفتي لأرى إن كان كيث قد رد على رسالتي أم لا.

وقد رد:

[كنت أريد التحدث إليك، سأخرج لتمشية فيشر بعد قليل، هل يمكنك الخروج؟]

أُرسِل له إبهامًا مرفوعًا. ليس لديّ كثير من الصبر والكلمات هذه الأيام.

عمتي ليدا في المطبخ، يدها في الخزانة. أقول لها من بعيد: «سأذهب للتمشية. أحتاج إلى بعض الهواء النقي»، ثم أهبط السلم إلى الخزانة بجوار الباب الأمامي. أدس قدميّ في حذائي الرياضي.

تقول وهي تتحرك بسرعة: «أنتِ لم تأكلي أيّ شيء، إلى أين أنتِ ذاهبة؟». تقف أعلى السلم وتنظر إليّ.

أقول لها بدهشة، لأنني لم أتوقع أن أُضطر إلى التوضيح: «إلى أين! إلى الخارج»، وأضع يدي على مقبض الباب، لكنني لا أفتحه.

تسألني: «هل استأذنتِ والدك؟»

أسألها بنبرة تؤكد أن سؤالها غير معقول بلا شك: «إن كان بإمكاني الخروج؟!»

فتقول: «يجب أن تستأذنيه. والجو بارد في الخارج. لا نريدك أن تصابي بالتهاب رئوي».

هل استئذان أبي سيمنع الالتهاب الرئوي؟ لستُ طبيبة، لكنني لا أعتقد أن الالتهاب الرئوي يعمل هكذا.

أقول محاولة أن يبدو صوتي مهذبًا: «سأكون بخير. لدي معطفي».

تتنهد تنهيدة ثقيلة وتقول: «حسنًا، لا أريدك أن تمرضي فحسب».

لا أريد أن أُسيء الأدب مع عمتي خلال دقائق من رؤيتها، خاصة وقد قدمت لتساعدنا، لكنني شعرت فجأة أن البيت قد أصبح مختلفًا، وتساءلتُ: إلى متى سيظل عليّ تنحيتها جانبًا من طريقي؟

أقول لها: «سأعود سريعًا».

أسير في الشارع بسرعة، وألتفت إلى الخلف لأتأكد من أنها لا هي ولا أبي خرجا ورائي.

يقعد كيث عند طرف كتلة سكنية، يعدّل طوق فيشر، الذي ينبح مرتين حين أقترب منهما، فيفرك له كيث رأسه، وأسمعه يقول له: «لا بأس يا صاحبي، هذه يالدا، ظني أنها تحبك».

ويبدو أن فيشر فهمه، لأنه بدأ يهز ذيله.

يقول لي حين يراني: «مرحبًا، كيف حال يوسف؟»

أجيبه: «أفضل، قد ينزعون عنه أنبوب التنفس قريبًا».

يقول بصوت يعلو قليلًا: «هذا جيد، يعني أنه سيكون بخير؟»

أقول، مكررةً ردّي التلقائي الجديد: «أتمنى هذا، مع ذلك يقولون إن الوقت ما زال مبكرًا جدًّا لنعرف»، ثم أضيف: «هل نتمشى؟»

فيقول: «نعم، سيكون هذا لطيفًا».

نسير حتى نصف كتلة سكنية، قبل أن يتحدث قائلًا: «انظري، أنا آسف حقًّا لأنني لم أتصل بكِ. سافرنا لعدة أيام، قضيتُ أعياد الميلاد مع جدّيّ».

فأقول: «لا بأس».

فيقول: «وفكرت أنك ربما في حاجة إلى بعض الخصوصية أو المساحة».

سببٌ ثانٍ. جمعُ الأسباب قد يجعلها أعذارًا وليست أسبابًا.

لكنني لستُ في مزاج للحكم عليه. أتذكر نفسي حين أُغمض عيني وأتمنى أن يختفي الجميع، حتى وأنا أدعو أن يُضيء هاتفي

برسائل من أصدقاء. ربما كان محقًّا في الابتعاد لوقت، وربما لم أرغب في البقاء وحدي كما ظننت.

فأقول له: «نعم، ظني أنه يصعب تحديد القدر السليم من المسافة»، وأنتبه لأول مرة للفرق بين المساحة والمسافة. يومئ برأسه، فأضيف: «وقدمت عمتي بالطائرة هذا الصباح، وستمكث معنا لمدة. لذلك لا أتمتع بأكبر قدر من المساحة بشكل خاص هذه الأيام».

يقول: «نعم، أعرف، الجميع تقريبًا يتحدثون عمَّا حدث».

لا أدهش. قد تُغلق المدرسة في عطلة الشتاء، لكن هذا لا يمنع انتشار الأخبار الكبرى.

أسأله: «ماذا يقولون؟»

يقول وهو ينظر إلى فيشر: «إنه أمر فظيع، وأن المبنى في حالة بائسة، وأن على أحدٍ ما اللجوء إلى القضاء».

أسأله: «إذن، يظنون أنه الدرابزين فقط؟»

يجيبني: «لا أعرف. إنهم يريدون معرفة ما حدث. ويريدونه أن يتعافى».

وأنا أيضًا.

أقول: «ظني أن أحدًا ما دفعه. لا أظن أن الدرابزين سقط فجأة وحده. وأنا أحاول فهم الأمر بنفسي، لأن... حسنًا، ماذا لو فشلت الشرطة؟»

يقول: «أفهمكِ. وأخبريني لو احتجتِ إلى مساعدتي».

فأقول: «سيساعدنا أن نعرف من الذي كان غاضبًا حقًّا بشأن ما حدث في الويرهاوس. وكذلك هذا الهراء على خزانته. قد يكون سرًّا آخر مختلفًا تمامًا».

يقول: «لم أسمع شيئًا، صدقًا. كنتُ سأخبركِ بالتأكيد».

أصدقه.

أقول له: «شكرًا، سيساعد هذا، الأمر كله كأن... كأن الجميع يتراجع قليلًا».

نسير خطواتٍ قليلة هادئة قبل أن يتحدث مجددًا. يقول بكلماتٍ سريعة أكثر من المعتاد: «يؤسفني حقًّا ما حدث ليوسف، وأعرف أنني قلت شيئًا ما عن كونكم عاديين ولستم مخيفين. خرج هذا بشكلٍ خاطئ. أنا آسف. كنت أريد الاتصال بكِ، لكن، بصدق، فكّرتُ أنك ربما غضبتِ وشعرتِ بأنك لا ينقصك التعامل معي وسط كل ما يحدث مع يوسف».

لهذا أحب كيث؛ قليل من الناس من يفكّرون قبل أن يتحدثوا، وأقل منهم حتى من يفكّرون بعد أن يتحدثوا. إنه لا يريدني أن أشعر بأنّ مقارنتنا بالمتطرّفين تحمل إهانة. لقد قضى وقتًا يفكّر في ما قاله.

هذا يعني أنه قضى وقتا يفكر فيّ وفي شعوري.

أقول وأنا أنظر إليه: «لستُ غاضبة، لكنه بدا غريبًا أيضًا أن لا تقول شيئًا».

يوافقني، قائلًا: «نعم، لم أعرف ماذا يجب أن أفعل. في بعض المواقف، يعرف المرء ما يجب قوله. توجد كلمات جاهزة مسبقًا. لكن ليس في هذا الموقف».

أفكّر في ما قاله. هل سبق أن منحنا أحدٌ نصًّا للجروح الخطِرة أو العنف؟ ليس صحيحًا. ماذا قالت أسماء أو منى من قبل؟ لا أتذكّر كلماتهما. أتذكّر أنني شعرت باهتمامهما فحسب. وأنّ صمت كيث كان على النقيض منه.

لا أريـده أن يشـعر بالسـوء الآن، لكننـي أريـده أن يعـرف كيـف أشـعر. فأقـول: «أظنّ أنني كنت سأشـعر أفضل لـو سـمعتُ أي شـيء -أي شـيء- منـك».

ينظر كلٌّ منا إلى فيشر، أأمن نقطةٍ يمكننا النظر إليها الآن.

وجـد فيشـر عصًـا علـى الرصيـف، غصنًـا صغيـرًا لا بـد أنـه سـقط مـن إحـدى أشـجار البلـوط فـي الشـارع، أمسـكه بمخالبـه قبـل أن يلتقطـه بيـن أسـنانه. يأخـذه كيـث مـن فمـه ويشـدّ المقـود برفـق ليدفعـه لمواصلـة السـير.

يقـول: «وكان يجـب أن تسـمعي منـي مبكـرًا. أعنـي، كان علـيّ أن أتصـل بـكِ مبكـرًا».

نقطـع النصـف الثانـي مـن الكتلـة السـكنية أسـرع قليـلًا، كأننـا أزحنـا عـن عاتقنـا بعـض الـوزن.

ثـم أقـول لـه: «فلـو اسـتطعت أن تسـأل فـي الأنحـاء إذن، لا بـدّ أن أحدهـم يعـرف شـيئًا مـا».

فيجيبنـي: «نعم، سأفعل بلا شـك».

يتوقّـف فيشـر ليتشـمّم حافـة عشـب منـزلٍ مـا. فـي مـكانٍ داخـل البيـت، ينبـح كلـبٌ بقـوة. فيرفـع فيشـر قدمـه ويبـول علـى العشـب المُصفـرّ بالفعـل. نسـير خطـواتٍ أخـرى قليلـة، ويظـلّ فيشـر يتشـمّم الأرض. قبـل أن نبتعـد كثيـرًا، يبـول مجـددًا، ويـزداد النبـاح حـدّة.

يتنهّد كيث ويقـول لـه: «لا فائـدة يـا وَلَـد، اسـتولى آخـر علـى هـذه المنطقـة بالفعـل».

ألتفت كلما مـرّت بنـا سـيارة. أخشـى أن يرانـي أبـي مـع كيث. فـي البـدء تمـرّ هاتشـباك حمـراء، ثـم سـويفل خضـراء، ثـم سـيدان بيضـاء بموسـيقا عالية.

أسترخي قليلًا حين نصل إلى ملعب الحيّ. يقف رجل يصوّر بهاتفه طفلين يلعبان. ينتظرهما أسفل الزلاقة، ويحشر رأسه فيها حين يتأخران في الخروج منها، ويقفز إلى الخلف كي يسقطا على المطاط ولا يصطدما برأسه.

نتجول بحثًا عن دكّة. نقف بالقرب منها للحظة قبل أن أقعد أنا. أشعر ببرودة خلال بنطالي الجينز تصدم رجليّ. يقعد كيث بجواري، قريبًا بما يكفي ليشعر بارتعاشي. يقترب قليلًا. أشعر بنوبة هلعٍ سريعة وأتساءل إن كان سيضع ذراعه حولي، لكنه لا يفعل. بل يقول: «كيف حالكِ أنتِ إذن؟ لا يمكنني التخيل حتى».

أشعر بالغصّة في حلقي مجددًا. لا أريد أن أبكي أمامه، لذلك آخذ نفسًا طويلًا وبطيئًا من الهواء البارد، آملةً أن يُثلج الغصّة الساخنة ويزيلها.

أقول: «أنا بخير». لأنه ما عساني أقول غير هذا؟ لستُ من يرقد في المستشفى.

يقول، كأنه سمع أفكاري: «أنتِ مسموحٌ لكِ ألّا تكوني بخير»، فأشعر بتحسّن لقوله هذا، وأقول: «سأكون بخير عندما يصبح يوسف بخير، وعندما أعرف من فعل هذا به. هذا كلّ ما أريده الآن».

يركل بقدمه التراب لمرة واحدة، ثم يتحدث وهو يضغط على مقود فيشر بين يديه: «حين ذهب داني إلى الجيش، كنا نعرف أنه من المحتمل أن نتلقى مكالمة بخبرٍ سيئ. كنت متوترًا جدًا في الأسابيع القليلة الأولى بعد ذهابه، لكننا لم نتلقَّ مكالمة. سارت الأمور جيدًا. ثم مرّ وقت أطول قليلًا، وعند نقطةٍ ما

نسيتُ خوفي من تلقي تلك المكالمة السيئة. وعدتُ للتفكير في أخي الأكبر كبطلٍ خارق.. بطلِنا في الخدمة. ثم عدتُ إلى البيت ذات يوم بعد مباراة كرة سلّة مع أصدقائي، ووجدتُ أمي تبكي في المطبخ».

إنه دوري أنا الآن لأشعر بالتقصير نحوه. لم أسأله من قبل إن كانت رؤيةُ أخيه يعود مصابًا بعرَجٍ صعبةً عليه أم لا.

أقول: «هذا مرعب بلا شك».

فيقول: «إنه كذلك بالفعل. لكن أمي ظلت تردد منذ ذلك الحين أننا محظوظون لأن الإصابة لم تكن أسوأ، لكننا لم نعرف مدى سوء الإصابة حقًّا. ما زال يفكر كثيرًا في ما رآه هناك. لا يتحدث عنه كثيرًا، لكنه في رأسه، يجعله حزينًا أحيانًا، أو غاضبًا، أو مُرهَقًا. ويؤسفني أنني، لوقتٍ طويل، لم أفهم لماذا لا يمكنه الاسترخاء قليلًا فحسب».

أقول: «لا بدّ أن هذا صعب على الجميع».

فيوافقني.

تحرّك الأطفال إلى الجسر المعلّق في بيت الألعاب، وقعد أبوهما على الجهة المقابلة لنا ينظر في هاتفه. تعبر الفتاة الصغيرة إلى الناحية الأخرى من الجسر، فتجعلَ ألواح الخشب كافة تقعقع وتهتز. خلفها بقدمين تقريبًا، يمسك أخوها الصغير بالقضبان ويبدأ البكاء. تتوقّف الفتاة عن القفز، وتمدّ له يدها المكتنزة.

أقول: «حين لم يعد يوسف إلى البيت تلك الليلة، اتصلتُ به عدّة مرات. ثم حين تأخّر الوقت ولم يعد، هل تعرف ماذا فعلت؟»،

يتحرّق عنقي خجلًا، لكنني أواصل، لأنني لا أريد التهرّب. أشعر ببقع الحرارة تصعد إلى وجهي، وأنا أقول: «نمتُ، كأنه ليس مهمًّا أن أخي مفقود. سقطتُ في النوم».

يقول: «هذا ليس خطأكِ يا يالدا».

أقول: «كان يجب أن أصل إلى هناك مبكرًا. لو كنتُ استطعتُ نقله إلى المستشفى مبكرًا، أو ربما حتى... ربما ...».

يقاطعني قائلًا: «أنتِ لم تعرفي شيئًا».

فأجيبه بحدّة: «كان يجب أن أعرف». لم أشعر بتسامح مع شيء منذ تلك الليلة، كذلك لا أحد يُحاسب على ما فعله.

يخشبني الغضب، وأشعر بتوتّر شديد، لدرجة أنه حين يضع كيث ذراعه حولي، يفاجئني أنني لا أنكسر مثل عود معكرونة سباغيتي جاف. تلمس رأسه رأسي، وأشعر بأصابعه على ذراعي، تعيدني إلى توازني.

في الحقيقة، أحيانًا يشرد ذهني برومانسيّة، وأتخيّل شعوري لو صرنا وحدنا، قريبين جدًّا إلى حد أن أشعر بصدره يصعد ويهبط مع كلّ نفس.

لم أفكّر في أنني سأبكي حينها.

الفصل الثاني والعشرون

تقول أسما، وهي تقودنا أنا وأبي وأمي نحو مدخل المسجد: «سأقدّمكم إلى الإمام جميل». ثم تضيف: «فكّر أنه سيكون جيّدًا أن يلقي أحد كلمة هذا المساء. أحد من الأسرة بالطبع. عمومًا، سيتحدّث هو معكم بالداخل».

يتوقّف أبي ليصافح رجلين يعرفهما، يتردّدان كثيرًا على مطعمنا لشراء طعام. أتساءل إن كان سيلقي كلمة نيابة عنّا. ترتدي أمي معطفها الأسود المنفوخ على سترة وبنطال جينز، وتجمع شعرها إلى الخلف. تضغط على يدي، لا إراديًا ربما. ونحن في السيارة إلى هنا، كانت تمسك عجلة القيادة بقوة حوّلت مفاصل أصابعها إلى الأبيض. ورأيتها منذ يومين تغفو وهاتفها في يدها اليسرى. تتمسك بكلّ شيء بقوة أكبر قليلًا مؤخرًا.

يسير خلفنا أشخاص قليلون، تومض أعينهم نحونا للحظة قبل أن ينظروا بعيدًا. فيما نقترب من الباب الجانبي للمسجد، أنظر خلفي وأرى عددًا من زملاء يوسف من المدرسة مقبلين من ساحة الانتظار. كلّ منّا، أنا وأمي، ترتدي طرحة مسدلة على العنق. ترفع أمي طرحتها على رأسها، وأفعل مثلها، لكنني أتذكّر حين ندخل أنه لا داعي لهذا، لأننا نقف في المركز المجتمعي التابع للمسجد وليس في المُصلّى. دخلتُ إلى هنا مرّة واحدة من قبل، حين تطوّعتُ مع أسما لحمل أكياس بقالة من أجل المخزن الغذائي المجتمعي. تبدو الغرفة مختلفة تمامًا اليوم.

بدايةً، لا أحد يعلو صوته عن الهمس. وبدلًا من أكداس صناديق المعكرونة، وأكياس الأرز، ومرطبانات صلصة الطماطم، فُرشت الغرفة بصفوف من الكراسي القابلة للطيّ أمام منصّة صغيرة. تسع لما يقارب مئة شخص، ونصف الكراسي مشغول بالفعل بالكبار، لكن أغلبها بزملاء من المدرسة. اتّخذتْ رائدة مجموعة الشباب، شابة أشارت لي أسما إليها، موقعًا استراتيجيًا في الصف الأوسط من الكراسي، ليمتدّ دعمها إلى كلّ من يحتاج إليه.

تُخلع المعاطف، وتمرّ امرأة ترتدي حجابًا لتوزّع أكوابًا ورقية صغيرة على الجالسين.

تشير أسما لنا إلى ثلاثة كراسي خالية في الصف الأمامي، ثم تستأذن للبحث عن الإمام جميل. تنظر أمي في هاتفها سريعًا ونحن نقعد. لم ترغب في ترك يوسف، لكنها أرادت أن تكون هنا الليلة.

أنظر حولي لأُجري مسحًا للزحام. المقاعد خلفنا مشغولة كلّها تقريبًا. يوجد عدد من الأشخاص لا أعرفهم، رجال ونساء، أغلبهنّ محجّبات. تجمّع الكثير في خلفيّة الغرفة، كأنهم يخشون أن يدعوهم الإمام للإجابة عن سؤال. أرى خلفنا بثلاثة صفوف، نهال تقعد مع امرأة وطفلين آخرين. أتذكّر الغرفة التي فرشناها لها في الشقة، والملابس التي جمعناها. تتقابل أعيننا، لكنها، على النقيض من الآخرين جميعًا، لا تنظر بعيدًا.

أسأل أمي: «لماذا لم تأتِ عمّتي ليدا؟». اعتذرت العمة ليدا في اللحظة الأخيرة. كنا في انتظارها في السيارة، وحين دخل

إليها أبي ليستعجلها برفق، لأنه يكره ترك المحرّك دائرًا، عاد إلى الخارج وحده.

همستْ أمي تجيبني: «قالت إنها تعاني صداعًا». يلفت نظرها أحدٌ ما في جانب الغرفة، فأتتبع نظرتها فأرى الإمام جميل. قالت: «أنا لا أعرف ماذا أقول لكل هؤلاء الناس هنا يا يالدا. وأبوكِ... وهذا بيننا، ظني أنه خائف من قول شيء».

أسألها: «لماذا سيخاف أبي؟» كأنني طفلة ساذجة في الخامسة من عمرها، لا تعرف أن والديها مجرد بشر.

تجيبني قائلة: «إنه غاضب جدًّا ومنفعل. نحن جميعًا كذلك، ويخشى أن يقول شيئًا ما في مكان عام، أو أن يحرِّف أحدٌ كلامه»، ثم تتنهد وتضيف: «انظري إلى ما حدث ليوسف».

ما إن تتفوه بهذا، أشعر أنه ما أخشاه أنا أيضًا. أخرج الناس ما قاله أخي عن سياقه، فصرنا جميعًا على المحك الآن. هذه صحبة ودودة بالطبع، لكنها ستصل إلى وسائل التواصل الاجتماعي بالتأكيد، حيث كل منشور وحده بمثابة جرس نداء للمتصيّدين.

الأمر الآخر أنني حين أتخيل التحدث إلى كل هؤلاء، يتحول ذهني إلى لوحة بيضاء. تشبه الغرفة الجنازة كثيرًا. اقترب يوسف من الموت تلك الليلة، والنظر إلى كل تلك الوجوه الواجمة يجعل آلاف الضربات الثائرة تضج داخل صدري، وأظل أذكّر نفسي بأن أخي على قيد الحياة.

يوسف هو الوحيد من أسرتنا الذي يمكنه الوقوف أمام جمهور دون ارتباك أو تعرّق أو شرود. لو كان هنا، لكان الآن يبتسم ويُلوّح لمن يقفون في الخلف ويدعوهم إلى الاقتراب، وكانوا سيقتربون،

من أجله، لأن الجميع يحب الاقتراب منه حتى ولو لم يعرفوا السبب.

في المدرسة المتوسطة، أقنعني مُدرّس الرسم بالانضمام إلى فريق المسرح للمساعدة في تصميم الديكورات. ما كان عليّ سوى المساعدة في تصميم خلفيات المشاهد. كانت المسرحية عن قراصنة يستولون على مدرسة، ولم يكن عليّ الوجود بالقرب من خشبة المسرح أثناء العرض، خاصة بعد حادث زي العنكبوت في الصف الرابع.

الأمر ليس أنني يصعب عليّ قول «لا»، بل مشكلتي في قولها بصوت عالٍ، وهكذا انتهى بي الأمر على المسرح، يتحول وجهي إلى اللون الأحمر وأنا أتلعثم في الكلمات الثمانية التي كان عليّ قولها. والأسوأ من هذا أن يكون عليّ التفكير في ما سأقوله. تصبح الإنجليزية حينها لغتي الثانية، وأظل أبحث عن الكلمات مثلما كنت أبحث عن قطع المكعبات الصحيحة في دلوٍ مليئة بها. أحتاج إلى وقت وهدوء وخصوصية لأصوغ مشاعري بشكل معقول.

آخذ نفسًا من فمي، ثم أُطلقه من بين شفتيّ المزمومتين، وأحاول ألا يلحظني أحدٌ ما أمكنني، لأن الإمام جميل مُقبل إلينا.

قابلته أول مرة في صلاة العيد العام الماضي، وأدهشني ابتعاده عن الصورة التي تخيّلتها في ذهني لإمام مسجد. رغم أنه كبير، لكنه يبدو صغيرًا بما يكفي ليستمتع بلعبة فيديو مع أصدقائه. يرتدي اليوم صديريّة مبطّنة بلا أكمام بلون الفحم على سترة سوداء، ونظارته ذات إطار عريض على أحدث صيحة، ويلفّ

حـول عنقـه دثـارًا مطبوعًـا بمربعـات كسـتائية. تبـدو لحيتـه، عليـه هـو، أشبه بلحـى الهيبيـز أكثـر مـن رجـال الديـن. فـي الحقيقـة، لـولا الطاقيـة المطـرزة علـى رأسـه، لظننتـه جـاء إلـى هنـا لإزالـة فيـروس عـن الحاسـوب.

ورغـم اختيـار مجلـس إدارة الجامـع لـه، لكـن البعـض لـم يرحّـب بـه كإمـام لكونـه ابنًـا لمهاجريـن صومالييـن، ولا يشـبه أغلـب المصلّيـن. أصحـاب البشـرة الملوّنـة خبـراء فـي تصنيـف وتقييـم مختلـف ألـوان البشـرة. تُشـبّه عمـة أبـي لـون بشـرة الفتـاة بألـوان الأطعمـة للتنبـؤ بمسـتقبلها. بشـرة بلـون اللبـن تعنـي أن الفتـاة سـتتزوج بمـن تختـاره، وعلـى مـن لهـا بشـرة قمحيـة أن تتحلـى بالواقعيـة فـي اختياراتهـا ولا ترفـض عرضًـا جيـدًا، وغيـر المحظوظـات مـن ذوات البشـرة بلـون قشـر الصنوبـر عليهـنّ التخطيـط للبقـاء فـي منـزل أبيهـنّ ورعايـة والديهـنّ فـي شـيخوختهما.

كانـت عمّاتـي يضحكـن علـى تعليقاتهـا ويقلـن أشـياء مـن قبيـل: إنهـا كبيـرة فـي السـن جـدًا لتتغيـر، ولا يصـح الجـدل مـع كبـار السـن، وقـد قضـت حيـاة صعبـة، وهـذا مجـرد كلام.

قيلـت هـذه الأعـذار نفسـها عـن الإمـام السـابق. رجـل بلحيـة بيضـاء خفيفـة وصـوت أجـشّ صـارم، كان يتحـدث وعينـاه مغمضتـان تقريبًـا. حيـن سـمعتْه أمـي يقـول إن علـى النسـاء أن يوفـرن علـى أنفسـهنّ الجهـد الـذي يبذلنـه فـي التحـدث عـن الآخريـن لأنـه يعتبـر «نميمـة»، قـررتْ أن تضيـف صوتـه إلـى الأصـوات التـي علينـا تجاهُلهـا.

لسـتُ متأكـدة مـن أن الجميـع مثلهـا، يتجاهلـه. أتذكـر لارسـون وهـو يقـف علـى المسـرح فـي «الويرهـاوس». وافقـه البعـض وانجرفـوا

معه دون وعي بما يقوله. أصدرتِ الشرطة تحذيرًا له بعد أن قابلته. كان في السينما مع أصدقاء ليلة الحادث. قد لا يكون مذنبًا، لكنه بالتأكيد ليس بريئًا.

يحيّينا الإمام جميل بصوت هادئ، ويسأل والديّ عن حال يوسف. فيخبرانه بأحدث التطورات، ويبدو أن هذا يذكرهما بأنهما ليسا معه الآن. يتحنح أبي ويستأذن، قائلاً إنه سيتصل بالمستشفى للاطمئنان عليه.

يسألني الإمام جميل: «وأنتِ يا أخت، كيف حال تماسكك؟»

أجيبه قائلة: «ما زال بإمكاني، على ما أظن»، ثم أتذكّر إلى من أتحدث، فأتمتم قائلة: «أعني الحمدُ لله».

تعبر وجهه ابتسامة طفيفة، ويقول: «إن كان يمكننا المساعدة في أي شيء، أرجو أن تخبريني. هذه الليلة مجرد ليلة واحدة، وسأطلب من الحيّ كله في كل خطبة أن يتذكر أخاكِ وأسرتكِ في دعواتهم».

أقول: «شكرًا لك».

فيقول: «سألقي كلمة قصيرة بالطبع، وحين أنتهي سأنظر إليكِ. لو شعرتِ بالرغبة في التحدث، أشيري لي فحسب أو تعالي إلى المنصة. أعرف أن هذا ليس سهلًا، لكن من المفيد أحيانًا أن نعبّر عمّا نشعر به ويستمع إلينا الآخرون».

أومئ له تأدُّبًا، لكنني لا أنوي الوقوف في منتصف الغرفة، وخاصةً وقد بدت ممتلئة. لديّ الكثير جدًا لقوله، لدرجة أنني لن أستطيع قول شيء. أنا غاضبة، وأريد العدالة، وأريد أن يعاود يوسف التنفّس والتحدّث. بل أريد العودة في الزمن إلى الخلف،

إلــى مــا قبـل حفـل الويرهــاوس. يتركنــا الإمــام جميـل، ويعــود إلــى منتصـف الغرفـة.

تظهر مونا، تعانق أمي، ثم تقعد إلى جانبي.

تميـل عليّ، وتقـول: «هـذا منحنـى مذهـل للمسـار، كثيـر جدًّا مـن المدرسـة هنـا».

أسـألها: «هل رأيتِ كريس أو ليام؟»

تمـد عنقهـا، وتقـول: «قـد يكـون هـذا ليـام... لا، بـل جريت فـي الحقيقـة. أو شـخصٌ مـا آخـر. أظنّ أننـي فـي حاجـة إلـى عدسـتين جديدتيـن. نعـم، لكـن هـذا كيـث بالتأكيـد».

كيث؟

أسـتدير، فـأراه يقـف بعيـدًا فـي نهايـة الغرفـة، مـع عـددٍ مـن الزمـلاء. يسـعدني وجـوده.

يعـود أبـي إلـى مقعـده، بإشـارةٍ تفيـد بأنـه لا جديـد بشـأن يوسـف. تسـند أمـي رأسـها إلـى كتفـه، فيهمـس لهـا بشـيءٍ مـا.

أعتـرف لمونـا بهـدوء: «لا أحـب وجـودي هنـا»، وأسـمع فـورًا مـدى جحـودي نحـو كلّ مـن جـاء إلـى المسـجد فـي الليـل البـارد ليدعـو لأخـي.

تنظـر إلـيّ فـي عينـي مباشـرة، وتقـول: «ولا أنـا أيضًـا، أنـا أكـره وجودنـا هنـا بشـدّة».

أريـد معانقتهـا لأنهـا تفهمنـي. تضيـف قائلـةً: «تقـول أسـما إنـكِ قـد تشـكرين النـاس علـى المجـيء، بعـد كلمـة الإمـام جميـل».

أُجيبهـا: «مسـتحيل. سأُفسـد الأمـر، وسـأبدو غبيـة جـدًّا. لا يمكننـي»».

تقول: «لا بأس إذن، سيقول الإمام جميل كلّ ما ينبغي قوله».

يُخفف أحدهم الإضاءة قليلًا، بما يكفي ليظهر وهج الشموع الصغيرة التي تعمل بالبطاريات والتي وُزِّعت مسبقًا.

يقف الإمام جميل خلف المنصة، يميل إلى المايكروفون، ويرحب بالجميع، فيردّون جميعًا التحية. همساتٌ بالسلام.

يقول وهو ينظر إلى والديّ مباشرةً: «نريد الليلة أن نؤكّد لأسرة الشاب يوسف، آل جمالي، أنهم ليسوا وحدهم، وأن مصابهم هو مصابنا، وأننا ندعو الله وسنظل ندعوه ليشفي أخانا يوسف».

تمدّ أمي يديها لي ولأبي. تضغط بيدها اليسرى يده، وباليمنى يدي.

يواصل الإمام كلامه، قائلًا: «أظنّ أن كثيرين منكم لا يعرفون يوسف، لكنكم جئتم لِما في قلوبكم من شفقة. في أوقاتٍ كهذه أشعر بفخرٍ شديد بهذا المجتمع...». صوته مريحٌ لدرجة أنني أفقد تركيزي فيما يقوله، وأشعر بهدهدة وزن الكلمات ونبرة صوته، وهو يقود الحضور في الدعاء. أكوّر يدي، وأطرق برأسي أنا أيضًا.

آمين. تكسو الكلمةُ الغرفةَ مثل بطانيةٍ دافئة.

ثم يقول وهو يمدّ ذراعه: «معنا الليلة أيضًا عضو مجلس المقاطعة، العضو بيترز، شكرًا لك لقدومك». يشير إلى رجلٍ بشعرٍ رمادي، يرتدي بنطالًا أسود داكنًا ومعطفًا صوفيًا بنيًا. تقف بجانبه امرأةٌ بمعطفٍ أسود، مشدودٍ بحزام عند الخصر، وتعلّق حقيبة أوراق على كتفها. يرفع عضو المجلس يده إلى الإمام، فيشير له الأخير لينضمّ إليه أمام المنصة، فيتحرّك بخفةٍ ليقف خلف المنصة، بمسحةٍ قليلة من التردد.

أسأل مونا: «لماذا هو هنا؟»

يقول ورأسه مطرق قليلًا: «شكرا لك يا إمام».

ترفع مساعدته هاتفها أمامها، وتضغط على الشاشة. هل التقطت صورة؟

يواصل كلامه، قائلًا: «قلبي مع آل جمالي. كأبٍ، وفردٍ في هذا المجتمع، وكعضوٍ في مجلس المقاطعة، أعرف جيدًا الألم الذي يشعرون به. سنظل... ندعو ليوسف في صلواتنا».

ثم يتراجع إلى الخلف، ليترك المنصة للإمام. لا يكاد يبتعد خطوةً، حتى يكسر الصمتَ الثقيلَ في الغرفة صوتٌ يُوقفه.

يبتسم، وينظر إلى الإمام سريعًا، ثم يعاود النظر إلى الحضور باحثًا عن مصدر الصوت، ويقول: «عذرًا، لم أسمع هذا».

يقول الصوت: «ماذا يمكنك قوله عن التحقيقات؟»

أستدير لأرى من يسأل هذا السؤال. تجعل الإضاءة الخافتة وجوه الجميع تبدو غريبة، وتُبالغ في الهالات والأعين الدامعة. لا أعرف، ومن طريقة نظر عضو المجلس إلى الغرفة، أعتقد أنه لم يحدّد صاحب الصوت أيضًا.

لكنه يقول: «التحقيقات؟ حسنًا، أنا أثق تمامًا بأنّ الشرطة ستنظر في جميع الاحتمالات، وأنّ الأولوية للأمن العام. الآن، سواء كان هذا يعني ضرورة البناء طبقًا لمواصفات السلامة، أو... أو أننا نتعامل مع موقفٍ ينطوي على نيةٍ شريرة، فسوف نعرف. لكن دعونا الآن نركّز على شفاء الشاب وعلاجه».

كان عليّ، بدلًا من الوجود في هذه الغرفة والدعاء، أن أضع بطانيةً ثالثة على يوسف، لأنّ المستشفيات أماكن باردة بشكلٍ

مدهش. يجب أن يتمّ تدفئتها برائحة الطعام المطهو في المنزل حين تسري عبر فتحات التهوية، وبتشغيل الأغاني المفضلة لدى المرضى في غرفهم، بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليغطي على طنين الأجهزة. وبصنع ملاءاتٍ من قماشٍ ناعم، أو السماح لأُسَر المرضى بجلب بطانياتهم من البيت، إن أرادوا أن تتحسّن حالاتهم. أريد العدل لأخي، وأريد أن أعرف كم شمعةً علينا إشعالها لإلقاء الضوء على ما حدث ليوسف تلك الليلة.

أشعر بغصّةٍ في حلقي مجددًا. أخلع طرحتي، لأنها تشعرني بالاختناق قليلًا. لا بد أنني فعلتُ هذا من دون هدوء، لأنّ مونا تبدو قلقةً عليّ.

أغوص ببصري في الأرض الباردة، إلى طرفَي حذائي المخدوشين، محرجةً لأنني لا يمكنني التماسك حتى في أثناء سهرةٍ على الشموع، في غرفةٍ مليئةٍ ببشرٍ اجتمعوا ليدعوا ليوسف. لماذا هم من يسألون عضو المجلس عن التحقيقات؟ ألا يجب أن أكون أنا من يبحث عن إجابات؟

«هل تظنّ حقًّا أنها مسألة المبنى فقط؟»

آمر نفسي قائلةً: «تنفّسي».

يكرّر عضو المجلس ردّه الجاهز، قائلًا: «كما قلت، أنا واثق تمامًا بأنّ السلطة التنفيذية...».

تمتلئ عيناي بالدموع. يغلبني التعبُ فجأة. ظلّ نومي متقطّعًا طوال الأسبوع الماضي، وقد لا أستطيع البقاء هادئة وقتًا أطول من هذا.

تقول امرأة، وهي تقف -بذلك لا مشكلة في تحديدها-: «نحن قلقون بشأن أمننا العام أيضًا، جرائم الكراهية في ازدياد في جميع أنحاء أمريكا. ماذا تفعلون بشأن هذا؟»

تجفف أمي دموعها بمنديل. وجه أبي متوتّر، أرى تَشنّج فكّه. هكذا أشعر بالضبط.

يقول عضو المجلس: «أنا أفهم قلقكم....»، ثم لا أسمع باقي ردّه من ضجّة رأسي. ينتهي الأمر سريعًا بعد ذلك، لرحمة الرب. يختم الإمام جميل بالدعاء ليوسف، وينهض الجميع. يقترب من والديّ أشخاص، من بينهم والدا مونا وأسما، لمصافحتهما وعناقهما. حتى بعض زملائنا في المدرسة يقفون على مقربة أقدام قليلة، ينتظرون دورهم في قول شيء ما بخجل. ليس من بينهم كيث، ربما تسلّل وغادر مع جريت والآخرين. أسما ومونا إلى جانبي، حين أراهما مشغولتين في محادثتهما، أنتهز الفرصة لأبتعد.

لم أتّخذ قرار الابتعاد بوعي، لكنّني في لمح البصر كنتُ أقف في الحمّام أمام الحوض، ودموعي تغبّش بصري. وحينها شعرتُ بيدٍ على كتفي.

تقول نهال: «يالدا، يجب أن تتنفّسي».

أغطّي عينيّ بيديّ، أصابعي متخشّبة وترتعش. تنتظرني نهال. أستغرب مناداتها لي باسمي مع أن ذلك طبيعي. نحن نعبر الأبواب نفسها. نعرف الكلمات نفسها. نأكل الأطعمة نفسها. ظللتُ أتجنبها لأنني لم أكن متصالحة مع نفسي أنا، وليس معها هي.

أشـعر بتشـتّتٍ شـديد، لكنـه يقـلّ قليـلًا لأنّ يدهـا تظـلّ علـى كتفـي، مثـل الخيـط الرفيـع الـذي يمنـع طائـرةً ورقيـةً مـن الذهـاب مـع الريـح. يهـدأ تنفّسـي. أحتـاج إلـى لحظـةٍ واحـدة أخـرى فقـط لأواجههـا وأشـكرها علـى وجودهـا معـي.

تقـول مونـا، وهـي تفتـح بـاب الحمّـام: «هـا أنـتِ ذا! مرحبًـا نهـال! يالـدا، هـل أنـتِ بخيـر؟ يـا إلهـي، كان هـذا ثقيـلًا جـدًّا».

تضـع ذراعهـا حولـي وتعانقنـي بقـوة. فـي اللحظـة التـي اسـتغرقتها لمسـح دموعـي ورفـع بصـري، تختفـي نهـال.

الفصل الثالث والعشرون

«مع عَدّي إلى ثلاثة. واحد، اثنان...» يسحب الطبيب الأنبوب من فم يوسف بحركة سلسة واحدة، ونحبس جميعنا أنفاسنا في انتظار أن نرى إن كان سيتنفّس وحده، بعد أكثر من أسبوع من تنفّسه بجهازٍ يأخذ له الشهيق والزفير.

قالت الممرّضة التي اعتنت به الليلة الماضية إنه مرّت أوقاتٌ لم يكن الجهاز يتنفّس له، وأنها رأت جفنيه يطرفان. ومنذ ساعةٍ فقط، أرانا هذا الطبيب أشعّة رأس يوسف التي أُخِذت هذا الصباح، مقارنةً بالأشعة التي أُخِذت منذ أيّامٍ قليلةٍ مضت؛ لا وجود لأيّ نزيف جديد، وقد زال التورّم كثيرًا.

وقال، بصوتٍ خالٍ من الانفعال: «في الحقيقة، هذا تحسّن كبير بالفعل بالنسبة إلى إصابته. حالته أكثر استقرارًا الآن».

عن نفسي، لن أستخدم كلمة «استقرار» لوصف أيّ أحد أو أيّ شيء الآن. يبدو أنه كلّما نظر أحدٌ ما إلى الهاتف، أو غادرتُ أنا المستشفى، يوجد موقفٌ ما للتعامل معه.

أظنّ أنني رأيت صدر يوسف يتحرّك. أنظر إلى وجه الطبيب، فيما تتدخّل ممرضة وتُزلق قسطرةً بلاستيكيةً طويلةً في فم يوسف لسحب اللعاب. الجلد حول فمه ملتهبٌ حيث كان أنبوب التنفّس ملتصقًا. شفتاه جافتان، متشققتان تقريبًا. تجول عيناه خلف جفنيه، بحثًا عن شيءٍ ما.

حذّرنا الطبيب بالفعل من أنه لو لم يتنفّس وحده، فسيُعيدون توصيله بالجهاز. يسود الغرفة هدوء بغياب طنين جهاز التنفّس الصناعي.

تقول أمي: «هيا يا يوسف، سيمكنك التنفّس. تنفّس، جانِم (عزيزي)».

تتحوّل إلى الدارية، تبدو كما لو كانت تشجّع يوسف الأصغر بكثير على ركوب دراجة بلا عجلتَي تدريبٍ، لأوّل مرة على الرصيف. نسكت تمامًا، أنا وأبي. يجب أن يسمع يوسف صوت أمي -إن كان بإمكانه سماع الصوت.

يقول الطبيب، باستحسان: «إنه بخير». تُعدّل الممرضة لَفّة أنبوبٍ بلاستيكي، وتضع طرفيه في ثقبي أنف يوسف لتغذيته بالأكسجين. «هذه خطوة مهمة، لكنه لم يخرج من الغابة تمامًا حتى الآن».

نقضي الساعات التالية في مراقبة تنفّسه. يصعد صدري ويهبط مع صدره، كأنّ تنفّسي يعتمد على تنفّسه الآن. هل أسرق منه الهواء؟ فكرة غير منطقية، لكنني لا يمكنني منع شعوري بضيق مساحة الغرفة.

أقول لوالديّ وأنا أنهض: «سأذهب للسير قليلًا». يعتصر أبي ذراعي، وتبتسم أمي بضعف، وتعاود دعاءها ليوسف وهي تمسك يده بقوة وتضعها على خدّها.

تغريني فكرة أن أجد غرفة خالية، وأدير القرص المثبَّت بالحائط، وأعب أكسجين إلى رئتَيّ. أترك المصعد وأهبط على السُّلَّم. يعلن صرير حذائي على الأرضية المشمّعة عن هروبي إلى كلّ الطوابق في الأعلى وفي الأسفل في بئر السُّلَّم.

أصل إلى البهو ولا ألاحظ أن أحدهم خلفي. يسألني صوت: «هل أنتِ بخير؟». ألتفت خلفي بفزع، فتعود المرأة إلى الخلف نصف خطوة حين ترى مدى جزعي. أعرفها من مكتب الاستقبال. تبرز خصلات شعرها المجعّدة من شعرها المجموع إلى الأعلى في ذيل أرنب. ترتدي سترة وبنطال جينز داكنًا، وحذاء باليه باليًا يمكّنها من الاقتراب مني بشدة دون أن تُحدث صوتًا. تقول: «آسفة جدًا، لم أقصد إخافتك، أنا أوليفيا».

فأجيبها: «لا، أنا بخير. كنت فقط...».

تسألني: «مَن لكِ هنا، طفلة رضيعة؟»

فأسألها حائرة: «ماذا تعنين؟»

فتوضح لي بصوت هادئ ينسيني أنها غريبة: «مَن تزورين؟»

فأجيبها: «أخي. إنه في العناية المركزة. أُصيب في حادث سقوط سيّئ».

تقول: «عرفت أنكِ قريبته. لقد سمعت عن هذا... وأدعو لأسرتكم في صلاتي. أريدك أن تعرفي هذا».

أرفع رأسي لأشكرها، لكن لا يسعني سوى أن أومئ. فتضيف: «أريد أن أخبرك أن أشخاصًا كثيرين يتمنّون له الشفاء. وقد اعتذرت بنفسي إلى بعضهم. بالأمس جاء عدة فتيان إلى هنا يودّون الصعود لزيارته. وكان أحدهم يرتدي نظارة شمسية، ويحاول إخفاء دموعه».

أقول: «كان محبوبًا دائمًا»، وأبتسم رغمًا عني وأنا أتذكّر كيف كان يرفع حاجبَيه ويشرق وجهه حين يرى أحدًا ما.

هذا ما جعل كلَّ عادم الويرهاوس ذلك غير متوقّع حتى. والأهم من هذا: أنّ شيئًا ما بشأن السهر في المسجد يجعلني أرغب في التقيّؤ، والأمر لا يحتاج إلى معالج نفسي لمعرفة السبب. كانت آخر مرة رأيت فيها مسجدًا مليئًا بأشخاص يدعون لأحد، في جنازة ابن عمّتي رحيم.

أقول لها: «لكن هناك... هناك من يقولون عنه أشياء فظيعة. محض أكاذيب».

تهز رأسها وتقول: «الشائعات، إنها السُّم في أجمل صوره. الناس يحبون أن يتحدّثوا، خاصة حين لا يكون لديهم شيء لقوله».

أضحك رغم الغصّة في حلقي. يجب ألا أدع سخافة شخص واحد تُضايقني. ويوسف يتنفس وحده الآن، ويعود الأمل في شفائه. أردد لنفسي أنه سرعان ما سيفيق ليطرح كثيرًا من الأسئلة. أريده أن يعرف أنني قمت بما هو أكثر من الدعاء له.

في حين نظّم المسجد سهرًا للدعاء ليوسف، كان البعض يطالبون الشرطة بالتحقيق في ما حدث بوصفه جريمة كراهية. سمعتُ من قبل عن الاعتداء على أشخاص لأنهم مسلمون، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وكدليل على أن الكراهية جهل حقيقي، تعرّض أفراد من السيخ لاعتداء من متعصّبين وعنصريين ظنّوا أنهم مسلمون بسبب عمامتهم السوداء. ثم هناك من ماتوا بسبب غضب شخص ما. لا يسهل دائمًا إثبات أن الغضب كراهية. أتذكّر الشاب ذا البذلة الرمادية وربطة العنق الوردية الفاتحة، وابتسامته التي تنمّ عن كونه نجم الحفل. كذلك أمّ الأطفال الستة التي أطلقوا عليها النار وهي تسير على رصيف حيّها الهادئ.

والشباب الثلاثة الذين كانوا يلعبون بلوح التزلّج، وناداهم أحدٌ ما من الخارج ليطلق عليهم النار. جارٌ غاضب. ومع أنني سمعت عن جرائم الكراهية، ظللت لا أتخيّل أن تقع أسرتي ضحيةً لأحدها، ولا أعرف ما شعوري نحو هذا الاحتمال.

أقول: «أنتِ محقّة. كان منشورٌ واحد غبيًا. سوف أتّصل بالشرطة لأرى إن كانوا قد وصلوا إلى شيء».

تقول: «فكرة جيّدة، لا تدعيهم ينسوا أمر أخيكِ، إن كنتِ تعرفين ما أقصد». ثم يلفت شيءٌ ما انتباهها. امرأتان ورجل يقفون أمام مكتب الاستقبال. يمسكون بثلاث بالونات هيليوم كبيرة -مصّاصة ضخمة بضعف حجم رأسي، وكلمة «تهانينا» فضّية، وقدم زرقاء ضخمة.

تشير إليهم بأنها ستأتيهم على الفور، وتقول لي: «تخيّلي هذه البالونات، والوالدَين الجديدَين المسكينَين، كيف سيكون عليهما حشرها في السيارة مع مولودهما الحديث وهما عائدان إلى البيت. البعض ينفق النقود في أشياء عجيبة. سأعود الآن إلى مكتبي، لكن مُرّي عليّ في أي وقت تشائين. وأتمنّى أن يأتي العام الجديد بكلّ الخير لأسرتكِ».

يسهل جدًّا فقدان الإحساس بالساعات والأيام في المستشفى، لكن عامًا جديدًا سيبدأ غدًا، ولن يتغيّر شيء سوى الرّزنامة. أراقب أوليفيا تعود إلى مكتبها لترحّب بالزائرين ووحوشهم المحلّقة في الهواء، بابتسامة صغيرة على وجهها.

أَخرج من الباب المزدوج إلى الخارج، فتسري في جسدي رعشة سريعة من البرد. أشعر بنظرة امرأة إليّ، وأريد أن أبتعد

عن الأنظار، فأعود إلى الحديقة الصغيرة. لن يفكر أحد في التحديق في نافورة جافة في هذا الطقس.

أُخرج من حقيبتي قلمًا ودفترًا صغيرًا أفتح فيه صفحة جديدة. أكتب كلمة واحدة أعلاها بحروف سميكة:

من؟

لا يمكنني التفكير في أحد يمكنه إيذاء يوسف. أعلم أن أحدهم كتب شتائم قذرة على خزانته، لكنني لا أتخيل أحدًا يغضب لدرجة محاولة قتله. هل كان -مصادفة- شخصًا غريبًا مختلًا؟ احتمال. وربما لا أريد التفكير في أن أحدًا أمكنه بالفعل إيذاء أخي، لكن قعودي في حديقة خارج مستشفى يُعدُّ حرمانًا قويًا. أضع سن القلم على الصفحة.

لارسون.

لكن الضابط أخبر أمي أنه كان في السينما. مَن غيره؟

يوجد الجرافيتي بالطبع

ويت.

اتضح أنه كان خارج البلدة في أثناء العطلة. وانتهى الأمر بأن أرسل فتى ما رسالة صوتية مليئة بالبكاء إلى الناظر، لمسؤوليته عن الجرافيتي. أتذكر كيف خرج كريس وليام من مكتب الناظر، كيف أدارا ظهريهما ليوسف.

كريس.

ليام.

أشعر وأنا أكتب اسميهما بخيانة أخرى. أريد أن أمحو ما كتبته، لكنني عرفت منذ زمن طويل أن الحبر لا يُمحى. أرسم

على اسميهما خطوطًا تُخفيهما جزئيًا فحسب، كوجهين خلف سور.

تقع عيناي على اسم لارسون مجددًا. قال كيث إن داني كان يحاول التحدث إليه بالمنطق، لكن ماذا لو لم يكن منطقيًا؟ أخبرني كيث بالكثير عن داني، لكنني ما زلت لا أعرف فيما يفكر حين يراني. ويتضاعف شعوري هذا بالنسبة إلى أمه. في الحقيقة، قد تبدو لا تحب وجودي حتى.

داني.

أرفع بصري، أنفاسي متقطعة.

أكتب أسفل الأسماء كلمة أخرى.

لماذا؟

أُخرج هاتفي لأجد رسائل مونا وأسما تسألاني كيف الحال. ورسالة من كيث أيضًا:

[أتمنى أن يكون يوسف بخير. وأنتِ أيضًا].

يسعدني أنه لا يرى دفتري.

أُخبر صديقتيّ عن نزع جهاز التنفس، فتُجيب أَسما بوجهٍ أصفر مبتسم وراحتين مرفوعتين إلى الأعلى. أُكرّر الخبر نفسه ردًا على كيث، فيُجيب بعدد من الإبهام المرفوع.

لا بد أن أصدقاء يوسف يتساءلون عن حاله أيضًا. وصلتني رسائل من عدة أشخاص عبر تطبيق البيكاب، لكنها ليست ممن كان يراهم بانتظام، مثل ليام وكريس.

أمرر أصابعي على السلك الحلزوني لدفتري وأعود إلى الخلف في قعدتي لأسرح. حين كنا في الصف الخامس، استُدعي ليام

إلـى مكتـب الناظـر لنقشـه نصـف حـروف اسـمه علـى مائـدة فـي الكافتيريـا. صنـع المشـرف علـى الغـداء ضجـة كبيـرة مـن الأمـر ، وأتذكـر اندفـاع الـدم فـي وجـه ليـام مـن الإحـراج حيـن رأى كل الشـظائر تطيـر فـي الهـواء، والأفـواه المشـدوهة، والمشـرف يدفعـه مـن مرفقـه إلـى الخـارج. لا بدّ أنـه أراد أن يُقبَض عليـه، ولمـاذا غيـر ذلـك سـينقش اسـمه علـى المائـدة؟

لكنـه فتـى جيـد، وكذلـك كريـس. إنهمـا صديقـا أخـي المقرَّبـان، ولا بدّ أننـي فقـدت صوابـي لأفكـر حتـى فـي أنهمـا قـد يؤذيانـه. أفتـح الدفتـر مجـددًا وأشـطب علـى اسـميهما، بقـوة تجعـل سـن القلـم يمـزق الورقـة.

أشـعر بالبـرودة فـي أصابعـي. أتصـل بكريـس وأنـا أُدس يـدي اليسـرى فـي جيبـي لبعـض الـدفء. أراهـن أنـه مـن جـاء إلـى المستشـفى بنظـارة شمسـية.

لا يجيـب. تتحـول المكالمـة إلـى البريـد الصوتـي قبـل أن أُغلـق الخـط. أفكـر فـي تـرك رسـالة لـه، لكننـي أُقـرّر الاتصـال بليـام بـدلًا مـن ذلـك. أتمنـى أن يسـاعدني سـماع صوتـه فـي نسـيان وجهـه المتجهـم بعـد حفـل الويرهـاوس وعنـد مغادرتهـم مكتـب الناظـر.

يـرن الجـرس أربـع مـرات. أكاد أُغلـق الخـط دون تـرك رسـالة، لكنـه يجيـب قائـلًا:

«مرحبًا؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

فأقول: «مرحبًا ليام، أنا يالدا».

يقـول بدهشـة: «حقًـا، مرحبًـا»، أو كأنـه نـدم علـى إجابـة الاتصـال. ربمـا لـم يحفـظ رقمـي بعـد أن أرسـل إلـيّ رسـالته.

أقول: «أريد فقط أن أقول لك شكرًا على رسالتك»، ثم أُرهف السمع بتركيز، أتمنى لو كان بإمكاني رؤية وجهه.

يقول: «نعم، لا، أعني... لا داعي للشكر. كيف حاله؟»

أُجيبه: «أفضل قليلًا، نزعوا عنه التنفس الصناعي».

فيسأل: «حقًّا؟ هل أفاق؟ هل قال أي شيء؟»

أتردد قليلًا، أتساءل إن كنت أُخبر الآخرين بالكثير. تبدو المستشفى صارمة في عدم البوح بأي شيء حين يسأل الناس عن حال يوسف. ربما عليّ فعل هذا أنا أيضًا.

«يالدا؟ هل أنتِ هنا؟»

أشعر بيد على كتفي، فتقفز معدتي. يمتلئ وجه أبي بالاعتذار. لم يقصد أن يُفزعني.

يقول: «الجو بارد جدًّا في الخارج هنا، دعيني أُقلك إلى البيت». ثم ينظر إلى الهاتف في يدي ويسمع صوت ليام يكرر اسمي ويسألني إن كنت معه.

فيسألني: «إلى من تتحدثين؟»

فأجيبه: «هذا ليام، يسأل عن يوسف».

فيومئ برأسه.

في الظروف العادية، قد يوقِعني التحدث إلى فتى على الهاتف في مشكلات، لكننا بعيدون تمامًا عن الظروف العادية، إلى حدٍّ أن أبي يربت على كتفي فحسب. لم يحلق ذقنه، وينعكس الضوء على شعيرات فضية فيها تفاجئني، لأنني لم ألحظها من قبل.

يقول: «أراكِ عند السيارة»، ويسير ببطء نحو ساحة انتظار السيارات، بكتفيه المتهدلتين. يرتدي سترته الجلدية التي ظل

يرتديها وقتًا طويلًا، إلى حدٍّ أن صيحتها انتهت ثم عادت مجددًا.

أعاود النظر إلى الهاتف، لأجد ليام قد أغلق الخط. لكنني أجد رسالة أيضًا، أضغط عليها، فأجدها منه:

[هل أفاق من الغيبوبة؟]

أستغرق لحظة في الفهم، لأنه كتب «غيبوبة» [coma] خطأ، فظهرت بكلمة «فاصلة [comma].

فارق رفيع جدًا (في الإنجليزية) بين غيبوبة عميقة قد تؤدي إلى النهاية، وفاصلة خفيفة تعني التوقف قليلًا، فرصة ليوسف ليلتقط نفسه وينهي جملته.يا رب، اجعلها فاصلة خفيفة، أهمس في الحديقة الباردة.

الفصل الرابع والعشرون

تجلس مونا متربعة على فراشي. اتصلت قبل نصف ساعة وأخبرتني أنها في طريقها إليّ. لا تبالغ في التفكير مثلي أنا وأسما. لا يقلقها أن تُعتبر اقتحامية، ولا تسأل إن كانت تزعج أي خطط. تظهر فحسب. أشعر هذه الأيام أنني أشبهها قليلًا، كأن المسافة بين أفكاري وأفعالي تتقلص.

تأخذ وسادتي وتحشرها بين الحائط وظهرها. أجلس على مقعد منفوخ اشتريته من معرض جراج العام الماضي، حين كنت في أمسّ الحاجة إلى أي تغيير في غرفتي.

تقول: «أنا سعيدة جدًا بهذه الأخبار يا فتاة»، وذلك بعد أن أخبرتها بأن يوسف تحرك قليلًا، ويستجيب قليلًا بالغمغمة حتى. «يجب أن تتفاءلي بالتحسن ليحدث بالفعل. إنه عام جديد، وعليكِ دخوله بأفضل معنويات».

أقول بسأم: «لا يا مونا».

ظلت تتابع إحدى هؤلاء المشاهير على وسائل التواصل الاجتماعي، واحدة تكرر تأكيدات يومية وهي تعدّ الجرانولا في المنزل أو تطحن الحمص.

ثم أضيف: «يبدو هذا كشيء ما قالته ملكة الأطعمة».

فتصحح لي قائلة: «بل إلهة الأطعمة».

فأكرر: «المعذرة، إلهة الأطعمة، نعم، بالطبع سآخذ بنصائحها. تبدو واقعية جدًا».

تقـول: «وهــي تقـول أيضًـا إن إطـلاق الأحـكام علـى الآخريـن يجـذب الطاقـة السـلبية إلـى عوالمـك الشـخصية».

فأقـول: «مونـا، يوجـد شـخص واحـد فقـط في عوالمي الشـخصية الآن».

فتقـول، وهــي تطـوّح شـعرها خلـف كتفهـا بمسـرحية: «وأنـتِ تحبيـن هـذا! مـن غيـري سـينبش فـي أسـرارك؟»

مـن الواضـح أنهـا تفعـل هـذا لرفـع معنوياتـي والترويـح عنـي قليلًا، مثل تشـغيل فيلـم «البحـث عـن نيمـو» بـلا توقـف فـي عيـادة الأسـنان. أحبّهـا لهـذا، حقًّـا.

أقـول ببسـاطة، أو هــذا مـا حاولتـه علـى الأقـل: «حسـنًا، ليـس سـرًّا، لكننــي قابلـتُ كيـث».

تختفـي ابتسـامتها، وترفـع حاجبيهـا بجديـة شـديدة، وتقـول: «هـل تخبريننـي بهـذا الآن؟ لمـاذا لـم تُبلغينـي مـن قبـل؟»

أجيبهـا موضحـة: «لأنـه ليـس حدثًـا مهمًّـا، كنـا نمشّـي كلبـه، سـرنا إلـى المتنـزه فحسـب».

تقـول: «بالطبـع، أي إنـك قابلـتِ كلـب كيـث، وكيـث كان معـه فحسـب. اسـمعي يـا يالـدا، لا تعيـدي ترتيـب التفاصيـل معـي».

أُصرّ قائلة: «حسنًا، لكننا كنا نمشي كلبه بالفعل».

وأشـعر بانقبـاض فـي معدتـي حيـن أتذكـر اللحظـة التـي تركـتُ فيهـا نفسـي أميـل إلـى كيـث، وحيـن مـال إلـيّ. شـعرتُ بأكثـر بكثيـر مـن تمشـية الكلـب.

أضيـف قائلـة: «لكننـي فـي الحقيقـة أردتُ أن أسـأله إن كان قـد سـمع أي شـيء بخصـوص تلـك الليلـة».

تسأل: «وماذا حدث؟»

أهـز رأسـي قائلـة: «لا شـيء، لكنـه سيسـأل فـي الأنحـاء». ثـم أضيف: «وكان من اللطيف أن أكون معه. لم أرغب في البقاء في البيت حينذاك، حقًّا».

تسألني وهي تمد عنقها إلى الأمام وتحدق إليّ: «أن تكوني معه؟ ماذا يعني هذا؟»

أسمع صوت جرّ نَعلي عمتي ليدا المنزليين في الرواق، ثم فتح باب غرفة يوسف وإغلاقه.

لا بد أنني دوّرتُ بؤبؤيّ أو قمتُ برد فعل ما، لأن مونا تحركت إلى حافة الفراش، لتضع قدميها على الأرض، وتسألني همسًا: «إلى متى سوف تمكث معكم؟»

الجدران رفيعة. أرفع كتفيّ، وأضع إصبعي على شفتيّ كي تُبقي صوتها منخفضًا. تؤدي التحية العسكرية لتؤكد التزامها الأوامر. لا أعرف إلى متى ستبقى. عدتُ إلى البيت لأجد حامل الملابس في خزانتي في مكانه، وملابسي كلها معلقة على الشماعات بنظام. لا بدّ أنها تنتقل من حجرة لأخرى في جولات تفتيش. ربما ستغادر بعد أن تنهي كل ما يحتاج إلى تنظيف أو إصلاح.

تسألني: «هل تشعرين بالجوع؟ لديّ ساعة قبل أخذ صوفيا إلى تمرين التايكوندو. أتريدين تناول شيء معي؟»

أدرك أنني أرغب في الذهاب إلى أي مكان آخر غير البيت والمستشفى، فأنهض وأتقدّم مونا في الرواق. نسير على أصابعنا كي لا تنتبه عمتي ليدا التي تُعتبر حارسًا أكثر منها داعمًا. أظل

أخبر نفسي أنها ما زالت تعاني لفقدها رحيم، لكنني أعرف أيضًا كم عانت في محاولة تغييره، لذلك لا يمكنني التعاطف معها فقط.

نخرج ونقعد في سيارة مونا. أُرسل لأمي لأبلغها أننا في الخارج لتناول شيء ما. ظلت في المستشفى منذ الصباح، وأبي ينوي إعادة فتح المطعم غدًا. إنه هناك الآن. قضت أمي أكثر من خمس دقائق في الاستحمام هذا الصباح، ورأيتها تشرب قهوتها جالسة. لم تبدُ قريبة من الاسترخاء حتى، لكننا لم نعد كالتماثيل المذعورة كما كنا في الأيام القليلة الأولى.

مثل يوسف، نأتي بعلامات صغيرة على أننا قد ننجو.

حين تمر السيارة ببيت كيث، أحاول ألّا يتضح أنني أنظر إلى النوافذ.

تقول مونا وهي تقود: «أنتِ عميلة سرية سيئة جدًّا».

فأجيبها: «أتعرفين؟ أنا أفتقد أسما».

تضحك وتقول: «وأنا أيضًا، أرسلي لها رسالة. لكن أخبريها أننا سنخرج. إنْ ذهبنا إليها، فستطعمنا أمها في البيت بالتأكيد».

أكتب الرسالة. لا بدّ أنها تمسك بهاتفها، لأنها تجيبني فورًا.

أخبر مونا: «تقول إنها ستكون مستعدة خلال دقيقتين».

توقف مونا السيارة أمام منزل أسما في اللحظة نفسها التي تفتح فيها أسما باب المنزل. تهبط السلم الأمامي وتفتح باب السيارة الخلفي. أستدير لأساعدها في إزاحة أكوام أكياس المغسلة والبقالة. أقنعتْ مونا والديها بشراء هذه السيارة لها بوعد أن تقل أختها الصغيرة إلى جميع أنشطتها، وشراء جميع

احتياجات البيت، والتقديم في الجامعات التي لديها برامج إعداد طبي قوية فقط.

تقول وهي تنظر إلى المقعد خلفها: «عذرًا لكل هذه الفوضى، لكنكِ لو جمعتِ كل الأكياس في كيس واحد وعلّقتِ أكياس المغسلة، سأكون أفضل أصدقائك».

تجيبها أسما وهي تعلّق الملابس بالفعل: «لستُ مهتمة، سمعت أنكِ تجعلين أصدقاءكِ يفعلون لكِ الكثير». تعود مونا بالسيارة إلى الخلف لنعود إلى الطريق، وتسألني أسما عن يوسف، فأجيبها بأحدث التطورات، وأسمعها تشكر الله في سرها. في اليومين الأولين بعد الحادث، دعوتُ الله كثيرًا، لكن ليس رسميًا. لم أفرش سجادة صلاة، أو أكوّر يدي حتى. ظلت أمي تدعو الله منذ اللحظة التي وجدنا فيها يوسف. رأيتها في العناية المركزة تمسك بيده وهي مغمضة العينين، وشفتاها تتحركان بشكل طفيف، وجسدها يتمايل، كأنها تحاول تهدئة رضيع بين ذراعيها. اضطررت إلى النظر بعيدًا أول مرة، لكنني بعد ذلك أخرجت الدفتر ورسمت رضيعًا صغيرًا يجلس أعلى حجر ويحدّق في قلب الغابة الداكنة. وجهه غير مرئي، ظهره وخصل شعر حلزونية صغيرة على رأسه. جذب شيء ما قلمي إلى مساحة بين الأشجار، حيث رسمتُ عينين لوزيتين لمخلوق يَقِظ.

تقول مونا: «ماذا نأكل إذن احتفالًا بهذه الأخبار السعيدة الصغيرة؟ سوشي؟ بيتزا؟ برجر؟ اختاري أنتِ يا يالدا».

أجيبها: «لا فارق لديّ، اختاري أنتِ يا أسما».

نقترب من الشارع التجاري حيث محل البرجر. تبطئ مونا وتنظر في المرآة الخلفية إلى أسما، وتسألها: «حسنًا؟»

تجيبها أسما: «لنأكل بيتزا، الجبن له خصائص علاجية».

توافق مونا قائلة: «بيتزا إذن.» تنعطف يسارًا في الإشارة الثانية وتتوقف في ساحة انتظار مطعم البيتزا التي تحيط بها أشجار قيقب حمراء، سقطت أغلب أوراقها وظل بعضها جافًا وهشًا. نترجّل ونسير نحو منضدة الطلب. غالبًا، لم يُجدد المحل طوال عمري كله، لكن يبدو أن الناس في البلدة يفضلونه هكذا. على الحائط صورٌ أبيض × أسود لأشخاص يقعدون إلى الموائد نفسها، وشابٍ يرتدي مريولًا أبيض يقف ويده على فرن البيتزا. هل ستتقلب عليه البلدة يومًا ما؟ كم من الوقت ينبغي قضاؤه هنا لاكتساب تلك المكانة؟يدير والدَاي حسابات المطعم على مائدة طعامنا في البيت. يأتي أبي بملفٍ بُنّيٍّ كبير، وتأتي أمي بحاسوبها المحمول. درست عبر الإنترنت برنامج محاسبة، فيقعدان معًا، بأكداس الإيصالات والشيكات، لدفع الفواتير وحساب ميزان الربح. لدينا نفقات، نشتري أرزًا وزيتًا وخضراوات، كل مكونات الأصناف في القائمة. ندفع مرتّبات اليد العاملة، والكهرباء، والصيانة، والتأمين، والضرائب، والإيجار. والزبائن يدفعون مقابل الأصناف والمشهيات. تدخل النقود وتخرج. تُسمى على برنامج حاسوب أمي ديونًا وائتمانات. لو لم يأتِ الزبائن، لن توجد ائتمانات لتغطية الديون. ولو لم نستطع تغطية الديون، لن يكون لدينا مطعم. ولو لم يكن لدينا مطعمًا...

«يالدا، مرحبًا، ما الإضافات التي تريدينها؟» تسألني مونا وهي تشير إلى قائمة الطعام الضخمة أمامنا، «ما رأيكِ في الفطر والفلفل والزيتون؟»

تحذّرها أسما قائلة: «لا زيتون، وفلفل حلو، وليس حارًا».

تتمتم مونا: «ضعيفة»، ثم تسألني: «هل يناسبكِ هذا يا يالدا؟»

أومئ لها برأسي. لن ألحظ حتى لو جاءت البيتزا وعليها جوز بلوط وطوابع بريد. نملأ أكوابًا ورقية بشاي خوخ مثلج، ونقعد إلى مائدة بجوار النوافذ المطلة على ساحة الانتظار. تسحب أسما عصًا صغيرة من غلاف وتضعها في كوبها.

تسأل مونا: «ألم تَعُد هذه العَصا غير قانونية الآن؟»

تقول أسما وهي تنظر إلى موزّع الأدوات: «حقًّا؟ ظننت أنني سحبتها من باب العادة».

أقول: «كانت كذلك بالفعل، لكن الحاكم الجديد أعادها.» أجيبها لأن المعلومات التافهة عن المطاعم هي قوتي الخارقة.

ينفتح باب المطعم ويدخل شابان، ينظر أحدهما سريعًا نحو مائدتنا قبل أن يقول شيئًا للآخر. صرتُ متشككة جدًّا إزاء من ينظرون نحوي. أقلق بشأن من يكونون وماذا قد تكون أفكارهم أو خططهم.

تقول مونا: «من الواضح أنها ليست إدارة تتمتع بوعي بيئي. لماذا قد تعيد البلاستيك؟ هل رأيتما الفيديو الذي أخرجوا فيه واحدة من هذه من أنف سلحفاة بحرية؟ ظلت تنزف وقتًا طويلًا وهم ينزعونها. لم أكن أعرف أن السلاحف يمكنها البكاء حتى شاهدت هذا المقطع.

تقول أسما بصوت متوتر قليلًا: «فهمتِ يا مونا، أنا آسفة، حسنًا؟»، وتمسك بالعصا البلاستيكية الصغيرة وتضعها في منديل ورقي. تحدق إلى المنديل لحظة، كأنها تدرك مسؤوليتها نحو قطع شجرة أخرى.

أتوسل إليهما قائلة: «هل يمكننا تنحية إنقاذ البيئة جانبًا اليوم؟ أو لمدة ساعة؟ مع احترامنا لحملة مونا لإنقاذ الكوكب، لكنني لا أريد التفكير في السلاحف الباكية الآن».

تقول مونا بفتور: «نعم، بالطبع، آسفة، تذكرتُ فحسب أن... لا بأس». وتنهض عن الكرسي مضيفة: «سأذهب لأرى إن كانت البيتزا جاهزة، وأخفف من صعوبة يوم حسابي».

تعود بعد دقيقة بفطيرة كبيرة عليها جبن ساخن يلمع. تضعها على المائدة وتشم البخار المتصاعد منها. يتبعها نادل ليضع أطباقنا أمامنا. في الجانب الآخر من المطعم عائلة -أم وطفلان صغيران قد يكونان في المدرسة الإعدادية. يقضم فتى صغير من شريحته ويسحبها بعيدًا عن وجهه. يمتد خيط الجبن الصغير، فتبتسم أخته الصغيرة بسرور. كنتُ أنا ويوسف صغيرين هكذا فيما مضى، نتعلم دورات الحياة ومراحل تطور اليرقة، ونتمنى أن تنمو لنا أجنحة نحن أيضًا.

أقول: «أتعرفان ما الذي يزعجني؟ أن يوسف تعرض للأذى لأنه دافع عن آخرين. كان يحاول أن يوضح أن اللاجئين ليسوا غزاة فضائيين أشرارًا. لكن الاهتمام به الآن... أتمنى لو توجد طريقة لتعريف الآخرين بما كان يقوله».

تقترح مونا قائلة: «حسنًا، أنتِ أخت يوسف، ربما عليكِ أنتِ بدء هذه المبادرة».

أجيبها مستنكرة: «لست ناشطة، فقط يستفزني أن الناس ما زالوا ينشرون تلميحات عن كراهية اللاجئين. هذا ما أزعج يوسف كثيرًا، ولا أعرف لماذا فهمتُ الآن مدى سوئه».

تقول مونا: «يمكنك البدء من حيث انتهى يا يالدا. لكن كيف؟ أقصد أي نوع من الحملات نتحدث عنه هنا؟ مسيرة؟ احتجاج؟ مقاطعة؟»

أجيبها وأنا أهز رأسي: «من سأقاطع؟ احتجاج ربما، أو التحدث مع الصحافة، لستُ متأكدة. لا أرى نفسي أُلصق ملصقات في الشارع أو أكتب على المباني رسائل تدعو إلى السلام والتسامح».

تقول مونا: «يجب أن تمسكي مايكروفون؟»

فأسألها: «أتقصدين حرفيًّا أم مجازًا؟ ماذا سأقول؟ كيف يمكن لفت انتباه الناس؟» أشعر بغثيان قليلًا وأعيد قطعة البيتزا إلى الطبق.

تقول مونا: «أنتِ في حاجة إلى شخصية مؤثرة»، ثم تخرج هاتفها وتفتحه، وتسأل أسما: «أسما، أليس لدى قريبتك قرابة ثمانية آلاف متابع على البيكاب؟ نعم، ها هي ذي! سبعة آلاف وتسعمئة وخمسة وثمانون متابعًا، على وجه الدقة».

تقول أسما: «أولًا، أظن أن ثمانين في المئة منهم مزيفون، وثانيًا، إنها تنشر فيديوهات عن مساحيق التجميل، لا أظن أن متابعيها سيهتمون كثيرًا بالمهاجرين في بلدة ما».

تقول مونا: «جربتُ طريقتها ذات مرة، كنتُ أريد أنفًا كأميرات ديزني، وانتهى بي الأمر بوجه سيمبا». وتشفط خديها إلى الداخل.

أقول: «ربما هذه فكرة سيئة، ماذا لو فتحت فمي لأتكلم وانفجر...».

تقاطعني أسما بتوبيخ: «لا تقولي «انفجر» حرفيًّا، استخدمي أي كلمة ما عدا هذه الكلمة».

تزمجر مونا وهي تمسح أصابعها في منديل ورقي: «أتعرفان؟ في عالم المشاهير، لا يوجد ما يسمى دعاية سيئة. قد يُقبض على ممثل للقيادة في أثناء الشرب، ثم ماذا؟ يتحدث الجميع عنه وعن اعتذاره القوي، ثم يؤدي بطولة مسلسل رومانسي كوميدي. لكن الدعاية السيئة عن المسلمين حقيقة. حركة سيئة واحدة وسينتهي الأمر بنا كلنا أمام المحكمة».

ألم يضعنا يوسف كلنا أمام المحكمة بالفعل؟ ألن يقف أحد أمام المحكمة بعد ما حدث له؟

تعود الرزانة إلى وجه مونا وتقول: «أنا آسفة يا يال، لم أقصد أن...».

أقول لها: «لا، لا بأس. أفهم قصدك».

أريد فعل الصواب، لكنه ليس سهلًا تحديد ما يمكنني فعله دون إحداث فوضى أكبر.

«أحيانًا أتمنى أن يكف الناس عن التحدث عن يوسف، ليمكننا التركيز على تحسنه وإعادته إلى البيت. بعد ما حدث في الويرهاوس، أتساءل إن كان قد أخطأ فيما قاله على المسرح

حقًّا. ربما كان محقًّا. وربما كان مجرد حماس. وربما عليّ أن أُبقي فمي مغلقًا أيضًا».

تقول أسما: «لم يكن مجرد حماس، بل كان مستاءً حقًّا من الكراهية في بلدتنا».

أجيبها: «نعم، لكنه لم يفكر جيدًا في فعل الصواب».

تصر قائلة: «لا أعتقد أنه ندم على ما قاله».

أسألها منزعجة فجأة من ثقتها بمعرفتها أخي أفضل مني: «لا أقصد إهانة، لكن كيف تعرفين؟»

تزم شفتيها كأنها تمنع نفسها من قول المزيد.

تسأل مونا وهي تميل برأسها: «ما الأمر؟ يوجد شيء ما».

حين لا تجيب أسما، أدرك أنه يوجد شيء ما بشأنها بالفعل. يتحول انزعاجي إلى حيرة. ظللتُ مشغولة جدًّا بما يحدث ليوسف لألاحظ.

تقول: «لم أظن أن الأمر سيكون صعبًا هكذا». ويشتعل وجهها احمرارًا، وتسيل دموعها. تغطي وجهها بيديها وترتعش وهي تحاول كتم بكائها. أحاول تهدئتها بوضع ذراعي حول كتفيها.

تقول مونا بصوت هادئ: «ما الأمر يا فتاة؟ يجب أن تتحدثي معنا».

فتغمغم أسما قائلة: «أنا آسفة يا يالدا». فتهوي معدتي. تهب ريح في الخارج فتتراقص أوراق الشجر البنية المجعدة، كمئات الشرنقات الفارغة. «أنا آسفة جدًّا جدًّا».

الفصل الخامس والعشرون

تقول أسما: «كنت أذاكر في المقهى ذاك المساء». تبلع ريقها بصعوبة، وتتنفس ببطء لتستعيد هدوءها. «كنت عائدة إلى سيارتي، وكان يوسف خارجًا من الاستديو. تحدثنا لوقت قصير، ثم غادرت».

تبدو مونا حائرة، وتقول: «ظننت أنك كنتِ في المكتبة تلك الليلة. منذ متى وأنتِ تذاكرين في (رووم) من دوننا؟»

تضغط أسما شفتيها معًا. شفتها السفلى ترتعش.

أسألها: «كم كانت الساعة حينها؟ هل رأيتِ أي أحد آخر هناك؟»

فتجيبني: «كانت قرابة السابعة. لم يكن أحد هناك... أقصد، لا أحد أعرفه. حين غادرتُ، كان في طريقه إلى الاستديو مجددًا ليُحضِر وترًا جديدًا لجيتاره».

أسأل: «لكن لماذا ...»، ولا أستطيع صوغ أفكاري في كلمات. تبدو عيناها مركّزتين على نقطة ما خلف رأسي، بل تبدوان بعيدتين تمامًا عن التركيز. تقول: «ظننتُ أنه سيكون غريبًا جدًّا أن أخبرك. ولم يكن... كنا نتحدث أحيانًا فحسب. أقصد، أقصد اعتدنا أن نتحدث أحيانًا، بالقرب من استديو الموسيقا».

أسألها: «مهلًا، أنتِ ويوسف... تخرجان معًا؟» وأستعيد كل محادثاتنا لأرى إن كان قد فاتني شيء واضح. أتذكّر حين أخبرني يوسف أنه قابل أسما مصادفة خارج الاستديو منذ مدة. لم يذكر

شيئًا آخر بعد ذلك، لكنني حين أفكر في الأمر الآن، أرى أنه كان يبالغ في الحفاظ على سرية هاتفه مؤخرًا. أسألها: «وكنتما تتحدثان عبر الرسائل؟»

فتومئ برأسها وتقول بصوت مرتعش: «أنا آسفة جدًا لأنني لم أخبرك يا يالدا. لكنني، صدقًا، لم أجد أن هذا قد يفيد في شيء، وقد قلتُ لوالديّ إنني في المكتبة ذاك المساء». تصارحني.

لا عجب الآن من تصرفها بشكل غريب مؤخرًا. أسما التي انهارت بالفعل حين نسيت تسليم مقال في مادة الإنجليزية حين كنا في الصف العاشر، لا بدّ أنها كانت مشوشة بشدة لحفاظها على سرية علاقتها، أيًا كانت، ولقائهما تلك الليلة، سرًا.

أقول لها بيأس شديد: «تذكّري جيدًا يا أسما. هل أنتِ متأكدة من أنك لم تلاحظي أي شيء؟ هل تتذكرين وجود أي سيارة في ساحة الانتظار؟ أي شيء؟»

فتجيبني: «صدقًا يا يالدا، لقد استعدتُ المشهد في ذهني آلاف المرات يوميًا، ولو أنني تذكرت أي تفصيلة صغيرة لكنت قلتها. سأقابل ضابط الشرطة، وسأخبره بما قلته لكِ بالضبط، لكن هذا هو كل شيء. أنا نادمة لأنني تركته هناك. لو كنتُ بقيتُ معه فحسب، ربما كنتُ سأرى شيئًا، أو منعتُ شيئًا من الحدوث، أو ساعدته على الأقل. وربما، لولا لقاؤنا، لعاد إلى البيت قبل أن يؤذيه أحد. أنا... أنا...».

أحتضنها بين ذراعي، لأنني أفهم أن ما يعذبها ليس خوفها من أن يراها الآخرون مخطئة، بل لعيشها الدائم، منذ علمها بما حدث، مع صوت لا يرحم في رأسها. تسيل الدموع من عيني، فأمسحها بظهر يدي.

تقول مونا وهي تنهض: «يا لها من فوضى». تذهب إلى منضدة الأدوات وتحضر حزمة من المناديل الورقية البنية، القابلة لإعادة التدوير، ذات الملمس الخشن على أنفينا، لكنها أفضل من لا شيء. تصرّ أسما على أن أتصل بضابط الشرطة الذي أعطاني رقمه، لكن البطاقة في درج مكتبي. يمكنني الاتصال بقسم الشرطة والسؤال عنه لو تذكرتُ اسمه، بعد أن فقدته في غابة كل الأسماء التي سمعتها منذ اندفاعنا إلى غرفة الطوارئ.

تقول أسما: «لنذهب إلى قسم الشرطة فحسب، سأخبرهم بكل شيء».

فأقول لها: «وماذا عن والديكِ يا أسما؟ أن يكتشفا أنكِ تتحدثين مع شاب شيء، وأن يكتشفا أنه شاب أثار جدلًا في البلدة وانتهى به الأمر في المستشفى شيء آخر مختلف تمامًا.

فتهزّ رأسها وتقول: «دعيني أستعد لكل المحادثات الواحدة تلو الأخرى».

أُرسل لأبي وأمي أنني ما زلت مع صديقتيّ، وسأعود إلى البيت خلال ساعة. لا أريد أن أقلقهما، وعمتي ليدا تراقب من ركنِها.

تسأل مونا وهي تنقر أيقونة الخريطة على هاتفها: «أين قسم الشرطة؟ هل تعرفان؟»

أنا لا أعرف. رأيت سيارات الشرطة تقود في الأنحاء، ولم يسبق أن احتجتُ إلى معرفة من أين تأتي أو إلى أين تعود. ومع أن قسم الشرطة كان على مسافة عشر دقائق من موقعنا، بدا الطريق إليه لا نهاية له. تشخص أسما ببصرها من النافذة.

جفّت دموعها، وبدت مرتاحة بشكل غريب، كأنها كانت في حاجة إلى إزاحة عبء عن صدرها.

لكنني، على الجانب الآخر، أشعر بأنني أسلّم صديقتي للسلطات. لو كانت لم ترَ شيئًا تلك الليلة، فلن تفيد الشرطة بشيء.

يوجّه مونا صوت نظام تحديد المواقع [الجي بي إس] المنبعث من هاتفها أن تنعطف يسارًا على مسافة عشرين قدمًا. ثم يعلن أننا وصلنا إلى وجهتنا كأن قسم الشرطة كان فندقًا من فئة خمس نجوم. أول ما ألاحظه سبع سيارات شرطة مصطفة في ساحة الانتظار المقابلة للمبنى. يوجد أيضًا مزيد من السيارات الأبيض× أسود، وعدد من الـ(سويفل)، وشيء ما ضخم مثل مقطورات التخييم. أتخيل فريقًا من المقنّعين يرتدون الأسود من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم، ويقفزون من الباب الخلفي وهم يسددون مسدساتهم. يرن هاتفي قبل أن أترجل من السيارة. أمي!

لا أجيبها، لكنني أرسل لها رسالة. أعلم أنها ستتأفف، لأننا اتفقنا بالفعل على أن الرسائل ليست وسيلة تواصل حقيقية.

[نحن نوصل أسما إلى بيتها الآن.. سأكون في البيت سريعًا. أحبك].

ترجّلت أسما من السيارة بالفعل، وتبدو غريبة جدًا على المشهد هنا، أمام مبنى طوبي من طابقين، مليء بالأطر والزوايا المعدنية. باب المدخل الزجاجي المزدوج مؤطّر بالأزرق، والمساحة أمامه مفروشة بالحصى، لا نبتة واحدة.

أقول وأنا أقفز من السيارة: «أسما، انتظري». تلتفت إليّ، وتطرف عيناها بسرعة، في انتظاري أن أتحدث. بمَ سيفيدهم معرفة أنها كانت هناك تلك الليلة؟ ماذا إنْ لم يصدّقوها؟

ينفتح باب القسم الزجاجي، ويخرج ضابط شرطة يتحدث في هاتفه. تبدو أسما مذهولة، كأنه خرج لها، لكننا خلف السيارة تقريبًا فلا يلحظنا. لكنني أعرفه، إنه الضابط الذي جاء إلى المستشفى تلك الليلة. يسير نحو سيارة في ساحة الانتظار ويفتح بابها الخلفي ليأخذ كيسًا. يلمحنا وهو يغلق الباب، نقف عند سيارة مونا، أنفاسنا تشكّل سحبًا صغيرة في الهواء البارد.

يقول شيئًا ما للطرف الآخر على الهاتف، ويضع هاتفه في جيب قميصه. يمسح الساحة بعينيه، ثم يسير نحونا.

تسأل أسما: «لماذا يأتي...؟»

يقول: «مرحبًا، أنتِ... أنتِ الأخت»، واضح أنه نسي اسمي، لكن لا بأس، أنا أيضًا نسيت اسمه.

أجيبه وأنا أومئ برأسي: «نعم».

فيسأل: «وأنتما الاثنتان، قريبتان؟

فأجيبه: «إنهما صديقتاي».

يومئ برأسه ويُقدِّم نفسه لأسما ومونا بأنه الضابط سونج. ظلّت مونا في مقعدها تمسك بعجلة القيادة، وتبتسم الآن ابتسامة عريضة، كأنه أوقفها وعليها إقناعه بإعفائها من المخالفة.

يلقي نظرة في السيارة، ثم يقول: «حسنًا، ماذا أتى بكنّ إلى هنا؟ هل اتصل بكنّ أحد؟»

أوشك أن أجيبه بلا، لكنني أتساءل عن سبب سؤاله؛ هل كان من المفترض أن يتصل بي أحد؟

فأقول: «اعتقدت أننا سنسمع منك أنت في حال وجود أي جديد».

فيقول: «أنا آسف، كان عليّ أن أتصل، لكنني لا أعمل على هذا وحدي، وكذلك توجد إجراءات».

بالكاد أسمعه من ضجة دقات قلبي. حدث شيء ما.

تبلع أسما ريقها بصعوبة. تفتح مونا باب السيارة لتقف معنا، بانتباه.

أسأله: «أي إجراءات؟»

فيقول: «الأفضل أن نبدأ ووالداكِ موجودان. أين هما الآن؟»

أجيبه بسهولة: «إنهما في طريقهما إلى هنا»، مع أنهما ليسا كذلك بالتأكيد.

يضع يديه عند خصره ويُطلق زفيرًا، ويقول: «وهو كذلك، لننتظرْهما في الداخل إذن»، ويتجه نحو مدخل القسم.

ظلّت مونا تقوم بعمل رائع في التحكُّم في تعبيرات وجهها، لكنها ما إن أدار لنا الضابط ظهره حتى نظرت إليّ بحيرة. بدت أسما متجمّدة. أرفع كتفي وأومئ برأسي نحو القسم، في إشارة إلى أن عليهما أن تتبعاني. لا نسير خطوتين قبل أن يستدير ويدرك أنهما ملتصقتان بي عمليًا. فيقول لهما: «يا آنستيَّ، أنا أقدّر رغبتكما في البقاء مع صديقتكما، لكنني أعتقد أنه من الأفضل أن تعودا إلى البيت».

تعترض أسما قائلة: «حسنًا، الأمر أنني، كنت سوف...» لكنها تسكت حين أضغط على معصمها.

أقول لها: «يمكننا التحدث لاحقًا يا أسما، يجب أن أذهب الآن».

تقضم شفتها بارتباك واضح. أعلم أنها ضغطت على نفسها لتفعل الصواب، لكنها تشعر بارتياح أيضًا لعدم دخولها قسم الشرطة.

تقول بهدوء: «يالدا».

تنظر مونا إليّ، ثم إليها بعينيها المكحلتين. فأقول لأسما: «أرجوكِ»، كي تتأكد أنها تقرأ أفكاري بشكل صحيح. لا أريدها أن تشتّت الضابط الآن، وهو على وشك الإفصاح عن معلومات مهمة بما يكفي لدرجة أنه يريد والديّ هنا قبل ذلك. ثم أضيف: «أنا بخير، يمكنكما العودة إلى البيت».

تظلّان في مكانهما، وذراع مونا حول كتف أسما، وأنا والضابط سونج نسير نحو قسم الشرطة. حين ندخل القسم، تنظر إلينا بفضول امرأة تجمع شعرها إلى الخلف في كعكة مشدودة. ترفع حاجبها للضابط، فيجيبها قائلًا: «إنها الأخت، الوالدان في الطريق... آل جمالي. أريد إدخالهم إلى غرفة. اتصلي بي حين يصِلان وسآتي إليهما».

تومئ برأسها وتقول: «بالتأكيد. هل ستأخذها إلى الأعلى؟»

فيقول: «نعم، سنكون في نهاية الممر».

نصعد إلى الطابق العلوي، ثم نسير في رواق بأبواب مكاتب على الجانبين. بعضها بنوافذ زجاجية، وواحد مسدول الستائر فلا يُرى ما في داخله.

يسرع ذهني، ربما حين نصل إلى وجهتنا، سيمكنني الاتصال بوالديّ وإخبارهما بالمجيء إلى هنا، كان بودي التمهيد لهما أولًا. أتمنى من كل قلبي أن يخبرنا بمن فعل هذا. لكنني قلقة أيضًا من أن يخبرنا بأشياء قد تُدمّرنا أكثر.

نعطف يسارًا وندخل غرفة صغيرة في منتصفها طاولة معدنية رمادية وكرسيان على جانبيها. الستائر مسدلة، فلا يدخلها ضوء طبيعي. الجدران ناصعة البياض، والأرضية بُنِّية فاتحة مليئة بالخدوش. أشعر أن درجة الحرارة هنا أقل بخمس درجات من الرواق.

يقول لي: «تفضّلي بالجلوس. متى في ظنك سيصل والداكِ إلى هنا؟»

أجيبه بصدق: «لست متأكدة».

فيقول: «حسنًا»، ويتنحنح وينظر في ساعة يده، ثم يسألني: «هل... هل تريدين ماءً أو شيئًا ما؟»

فأجيبه: «لا، شكرًا».

يومئ برأسه ويقول: «سمعت أن حالة أخيك تتحسّن؟»

تتحسّن؟

أجيبه قائلة: «ما زال لا يمكنه التحدث، لذلك لا أعرف إن كان يتحسّن أم لا».

يومئ برأسه، ويبدو آسفًا، لكن التذاكي معه يُعدّ حنقًا في غير محله، ولن يفيدني بشيء، لذلك أسامحه على اختياره السيئ للكلمات، وأعيد صوغ إجابتي قائلة: «سيستغرق التحسّن وقتًا طويلًا جدًا، هذا ما أخبرونا به. ما زال يصعب علينا تصديق ما حدث، لذلك فأي معلومات لديك عن تلك الليلة أو من فعل هذا به ستساعد حقًا. هل جاء أحد بمعلومات؟ هل وجدتم مشتبهًا فيه؟»

أبحث في وجهه عن رد فعل، حركةٍ تفصح عما سيخبروننا به.

يجيبني قائلًا: «الأفضل أن ننتظر والديك، قلتِ إنهما سيصلان سريعًا، صحيح؟»

أقول وأنا أُخرِج هاتفي: «سأطمئن عليهما».

يقول، وهو يعود إلى الرواق: «بالطبع، سأعود إليك خلال دقائق»، ويترك باب الغرفة مفتوحًا.

هل أتصل بأمي أم أبي؟ ماذا أقول لهما؟ أنهض واقفة، أشعر فجأة بالغرفة تتقلص من حولي. أسير إلى النافذة وأجد حبل إزاحة الستارة. أميل لأرى إن كانت مونا وأسما ما زالتا في ساحة الانتظار، لكن حافة الستارة تلكز وجهي. أشد الحبل وأرفع الستارة بالكامل.

لا وجود لسيارة مونا. أقرر أن أتصل بأبي أولًا. يرن هاتفه ثلاث مرات قبل أن يجيبني: «مرحبًا؟»

لكنني لا أقول شيئًا.

يقول: «يالدا.. يالدا؟ هل تسمعينني؟»

عيناي مثبّتتان على ساحة الانتظار؛ على ضابطين يحيطان بشخص ما. أُميِّز المعطف -رماديًا منفوخًا بقلنسوة مبطّنة بالأحمر. إنه كريس.

يقول أبي: «يالدا، هل أنتِ بخير؟»

يقف كريس بين الضابطين ورأسه مطرَق. حتى من هذه المسافة أرى توتره، كتفاه مرفوعتان إلى أذنيه. تتقبض معدتي. كريس؟ أستعيد محادثتي معه على الهاتف حين كان يوسف في العناية المركزة. ماذا قال؟

أنا آسف، آسف حقًا.

هل كان آسفًا لما حدث ليوسف؟ أم لأنه لم يساعده؟ أم لشيءٍ ما أسوأ؟

يسأل أبي بصرامة: «يالدا، أين أنتِ؟» يعيدني الذعر المكتوم في صوته إلى الآن وهنا، فأقول: «أبي؟ أنا هنا. عليكَ أنتَ وأمي المجيء إلى قسم الشرطة الآن». ثم أُكرّر ما قلته لأنه ليس متأكدًا من أنه سمعني جيدًا. أضغط وجهي بالزجاج البارد. ربما لفتت هذه الحركة انتباه كريستوفر، لأن بصره تسلّق جانب المبنى ليجدني أمام النافذة أعلاه. يسقط فكه لا إراديًا حين يراني، فأشيح ببصري عنه إلى الرصيف، وأتخيل كيف قد يكون السقوط من ارتفاع كهذا على الأرض الباردة.

الفصل السادس والعشرون

أجدني في الرواق، ثم أهبط السلم سريعًا. أستند إلى الدرابزين لعدم ثقتي بساقيّ الآن. أصطدم بالضابط سونج وأنا أنعطف.

يصيح قائلًا: «ماذا، ماذا حدث؟»

أجيبه وأنا أنظر خلفه: «كريس هنا، لقد رأيته. أريد أن أتحدث إليه!» أبعد عن ساحة الانتظار ببابين. لماذا كريس هنا؟ لماذا يبدو بائسًا ومذنبًا؟

تنضم ضابطة الاستقبال إلى الضابط سونج، يمسك كلٌّ منهما بأحد مرفقيّ، ويطلبان مني العودة إلى الطابق الأعلى، إلى غرفة الاجتماعات. يُخبرانني بأنني لا يمكنني التحدث إلى كريس الآن. وحين أُطالبهما بالسبب، يقودانني إلى كرسي معدني، ويطلبان مني التنفّس بعمق والاسترخاء. يبدو هذا كعقوبة أكثر منه تهدئة.

يسأل الضابط سونج ضابطة الاستقبال: «هل يمكنك تغطية هذا لدقيقة؟»

فتجيبه: «اذهب أنت وسأبقى مع الآنسة الصغيرة هنا»، وتغلق الباب خلفه.

تقول لي: «أنا الضابطة جانا، دائمًا ما توجد انفعالات قوية في لحظات القبض».

فأسألها: «كريس مقبوض عليه إذن؟»

تقول بدهشة: «كريس؟ لا. ألم يوضح لكِ الضابط سونج بالفعل؟إنه ليس...». تختفي كلماتها في همهمة وهي تهز رأسها. تسحب نفسًا عميقًا كأنها ستحتاج إلى مزيد من الهواء في مهمة توشك أن تبدأها.

تتحدث ببطء يحبطني، لأنني أريد معرفة كل شيء فورًا، لكنه يفيدني أيضًا مع الضجة التي تملأ رأسي.

تقول: « اتصل بنا كريس ليبلغنا بمعلومات. الآن، أعرف أنك تريدين معرفة المزيد، لكن علينا انتظار وصول والديك للتحدث في هذا، الأفضل أن يتم هذا مرة واحدة شاملة الجميع».

أتنفس الصعداء. بالطبع ليس كريس. صدمتني فكرة أن يؤذي كريس يوسف بقوة شديدة. وأحتاج إلى وقت لاستعادة صوابي قبل أن أفكر في المعلومات التي أبلغ عنها كريس ليتم القبض عليه.

لا بد أن والديَّ تخطّيا الحد القانوني للسرعة، لأنهما وصلا إلى القسم خلال ثلاث عشرة دقيقة. نجتمع في الغرفة، وجه أبي جامد كالحجر، وذراع أمي حولي لتقربني منها، يعود الضابط سونج ويخبرنا أخيرًا بما عرفته الشرطة من كريس.

يقول: «اتصل بنا كريس وقال إن علينا التحرّي عن تحركات زوج أمه هذا المساء. يبدو أن زوج أمه سمعه وهو يتحدث مع مالك (كريشندو) عن كاميرات المراقبة، وبدأ يتصرف بغرابة، حسب وصف كريس. وسأله كثيرًا عن نظام الكاميرات في الاستديو».

يقول أبي بتحفظ: «لكنهم أخبرونا أن الكاميرات لم تكن تعمل».

فيُوضح الضابط: «هذا صحيح، لم تكن تعمل. ما زال ليس لدينا مقطع من كاميرات الاستديو، لكننا تحقّقنا من كاميرات المرور، لنتأكد من معلومات كريس، وتأكدنا من وجود سيارة زوج أمه بالقرب من الاستديو في الوقت الذي غادر فيه يوسف».

تقول أمي: «يا إلهي»، وجسدها كله يميل إلى الأمام وهي تسمع كل كلمة يقولها الضابط. تقعد بيني وبين أبي وقدماها على الأرضية الباردة. تضغط يدي وركبة أبي. تقول: «لماذا يفعل هذا بفتى؟ أنا لا أفهم».

يقف أبي ويقول: «أريد أن أراه»، كل كلمة من كلماته محسوبة ومقصودة.

يقف الضابط سونج ببطء، بعد أن يتبادل هو والضابطة جانا نظرة. لا يبدو أبي مرهقًا أو حزينًا الآن، بل يبدو أن بمقدوره اختراق الجدار ليواجه زوج أم كريس.

يقول له الضابط: «سيدي، في هذه المرحلة، علينا التعامل مع الأمر طبقًا لإجراءاتنا. لا نريد موقفًا قد نندم عليه جميعًا».

يكرر أبي خلفه: «نندم!»، كأنه يتأكد مما سمعه. «هل هذا موقف قد نندم عليه؟ أريد أن أعرف إن كان نادمًا على ما فعله بابني».

يجيبه الضابط: «أفهم هذا، لكن توجد إجراءات علينا اتباعها، وهذا لمصلحة الجميع».

يقول أبي: «لكنني أريد فقط أن أتحدث إليـ...».

تقاطعه الضابطة جانا قائلة: «بقدر صعوبة هذا، سيكون علينا أن نطلب منكم التحلي بالصبر».

أحيانًا يصعب على المرء استجماع شجاعته لفعل شيء ما، وأحيانًا أخرى يتطلب الأمر منه قوة خارقة ليمنع نفسه من فعل شيء.

في طريق العودة إلى البيت، تبدو السيارة كأنها سفينة نوح تحمل كل المشاعر التي وجدت يومًا ما على الأرض: غضب، راحة، ارتباك، إحباط، حزن متجدد.

نجد عمتي ليدا في غرفة المعيشة، وجهها كأنه علامة استفهام.

تقول أمي: «ألقوا القبض على شخص». تلقي العمة ليدا ذراعيها حول أمي وتشكر الله بهدوء. أنسحب إلى حجرتي وأمسك هاتفي. أجد رسالتين من مونا وأسما، لكنني أريد الاتصال بكريس أولًا.

يتحوّل الاتصال إلى البريد الصوتي في المرة الأولى، والثانية. ثم، في الجرس الثالث، يجيب كريس.

لا يقول أحد منا كلمة. أسمعه يتنفس، ثم يقول بهدوء وبصوت مبحوح ومذعور: «أنا آسف جدًا يا يالدا، أنا... لا يجب أن أتحدث إلى أحد في هذا، قالوا إنني... إنني...».

أتوسل إليه قائلة: «أرجوك يا كريس، أنا أريد أن أعرف».

يهمّ بالرفض، لكنه يتراجع. ثم يبدأ بالتحدث.

يخبرني أن زوج أمه كان من المفترض أن يقله تلك الليلة، وأنه أغلق الاستديو وهبط السلم لينتظر زوج أمه في ساحة الانتظار. اتصل به عدة مرات ولم يُجِبْه. لم يدهش كريس، لأن من عادة زوج أمه الذهاب إلى البار بعد عمله وفقدان الزمن هناك. فكر في الاتصال بأمه، لكنه توقّع حدوث مشاجرة جديدة بينهما.

يقـول: «وحيـن يتشـاجران، يسـوء الأمـر حقًّـا، لذلـك سـرت واسـتقليت حافلـة ثـم سـرت مجـددًا وعـدت إلـى البيـت ونمـت».

يقـول إنـه اسـتيقظ فـي اليـوم التالـي على أخبـار غيـاب يوسـف. فـي طريقـه للخـروج مـن البيـت، وجـد زوج أمـه ينـام علـى الأريكـة ورائحـة البيـرة تفـوح مـن ملابسـه.

«لا أعـرف لمـاذا لـم أربـط كل شـيء معًـا. ظننـت بجـزء منـي أيضًـا أنني سـأذهب إلـى المدرسـة وأرى يوسـف هنـاك. كنـت أمسـك بهاتفي لأرسـل إلـى يوسـف رسـالة أو أتصـل بـه. اسـتيقظ زوج أمـي وبـدأ يوبخنـي لتأخـري عـن المدرسـة، فأجبتـه أنـه آخـر مـن يتحـدث عـن التأخيـر، بعـد أن نسـي تمامًـا أن يقلّنـي الليلـة الماضيـة. فجلـس وأخبرنـي أننـي فهمتـه خطـأ، وأنـه لـم يكـن مـن المفتـرض بـه أن يقلّنـي، بـل خطّـط لقضـاء الليلـة مـع رفاقـه».

تركـه كريـس ولـم يفكـر فـي الأمـر كثيـرًا. زوج أمـه أحمـق، وهـو فائق وبائـس حيـن يكـون مخمـورًا. وكريـس لا يريـده أن يقلّـه، بـل أمـه هـي التـي تريـد مـن زوجهـا أن يكـون والـدًا لكريـس، ومـا لـم يحـدث.

لـم يكـن لـدى كريـس سـبب للتفكيـر فـي أن زوج أمـه هـو مـن دفـع يوسـف مـن فـوق الدرابزيـن. تشـاجر الرجـل مـع الأم، بالطبـع، بعـد مـا سـمع بمـا حـدث فـي الويرهـاوس، لتركهـا ابنهـا يرافـق «انتحاريًـا مستقبليًـا»، وحيـن حاولـتْ مناقشـته دفـع بهـا نحـو الجـدار.

يقول كريس: «يتحول هكذا معها أحيانًا».

لسـت فـي حاجـة إلـى خيـال واسـع لأفهـم أن كريـس لا يحـب أن يخبرنـي بمـدى سـوء الأمـر فـي البيـت. فـي الغالـب، يمـارس الرجـل العنـف مـع كريـس أيضًـا، وقـال مـا هـو أسـوأ بكثيـر عـن يوسـف، لكننـي أفهـم قصـده. كمـا لـم يخبـر كريـس أمـه عـن ركوبـه الحافلـة.

يضيف كريس: «أعلم أنه سيئ، لكنني ظننت... ظننت أن هذا في البيت فحسب. لم تخطر لي الفكرة حتى سألني عن الكاميرات. أنا آسف جدًا لأنني لم أفهم قبل هذا. وآسف لأن...».

أقول له: «أنا آسفة. أعرف أن الأمر لم يكن سهلًا عليك... شكرًا لك على...».

لا أجد الكلمات لأعبّر له. يسود صمت مريك، ثم يقول إنه من الأفضل أن ينهي المكالمة، فأقول له وداعًا.

ماذا أسمّي ما فعله كريس؟ إنه بمثابة إشعال شمعة في غرفة مظلمة. قول شيء حقيقي لكنه مرعب ومؤلم. لن يتعافى يوسف بشكل أسرع. لا أشعر بسعادة. بل أشعر بأن الخطأ في العالم قَلَّ قليلًا فحسب.

الفصل السابع والعشرون

تنفتح عيناي وأبحث بيدي عن هاتفي، فأجده على الطاولة المجاورة للفراش.

ألقي نظرة على الساعة، فأجدها الرابعة. تحولت قيلولتي الصغيرة إلى نوم عميق دام ساعتين.

تقول عمتي ليدا: «هل أنتِ جائعة؟ يوجد أوش(1) دافئ على الموقد. صنعت الشعيرية بنفسي أمس. إنه أفضل كثيرًا من الحساء المعلَّب».

منذ متى وعمتي ليدا تقف عند باب غرفتي؟ ولماذا تكره كل ما يمكن شراؤه من البقالة؟ ظني أنها تنسى أحيانًا أن لدي قائمة طعام أفغاني كاملة متاحة أمامي في مطعمنا.

أجيبها وأنا أجلس: «شكرًا، لستُ جائعة الآن». ينزلق لحافي عن الفراش، ويسعدني التحجج بهذا لأدير ظهري لها. أسحبه إلى أعلى الوسادة وأدس طرفه لتسويته. تقعقع المدفأة وتتسلل دفقة هواء خلال فتحة تهوية في السقف. ألم أغلق باب غرفتي قبل نومي؟ كان عليّ ذلك، مع ما يبدو من عدم فهم عمتي لحدودي.

تقول: «عليكِ ارتداء كنزة، هذا البرد ليس جيدًا لعظامك، ستصابين بالتهاب المفاصل مثلي.. لا يمكنني النوم على كتفي اليسرى أبدًا».

أغمغم قائلة: «لا أشعر بالبرد».

---

(1) حساء شعيرية من المطبخ الأفغاني. (المترجمة)

فتجيبني: «حين كنتِ صغيرة لم تكوني تشعرين كم كانت قدماك باردتين».

أفكر في خياراتي. لو نهضتُ وارتديتُ كنزة وجوربًا، فهل ستتركني عمتي ليدا؟ أم سيتيح لها هذا إسداء مزيد من النصح؟ لا بدّ أن أختار بحرص. لا أبحث عن ملابس ثقيلة، بل أستدير لأواجهها.

أقول، محاوِلةً أن أبدو حازمة: «لو كانت قدماي باردتين، لكنتُ قد لاحظت وارتديتُ جوربين»، لكنني أدرك من تعبير وجهها أنني تجاوزت الحزم ووصلت إلى الوقاحة.

تطرف عيناها ببطء، ثم تنصرف. أسمع وقع خطواتها في الرواق، وأزمجر لأن المحادثة لم تسر في الاتجاه الذي أردته.

أرتدي قميصًا أسود بأزرار وبنطال جينز. لم يطلب مني أبي العودة إلى المطعم، لكنني أعرف أنه سيحتاج إلى مساعدتي. وأراهن على أنه لن يمانع وجود صحبة أيضًا. في طريقي لإحضار حقيبتي وهاتفي، ألقي نظرة على غرفة يوسف. أرى دليل وجود عمتي ليدا هناك. يبدو الفراش مرتبًا، ووضعت الوسادة أعلى اللحاف. تبدو فائقة النعومة، كأنها صورة على موقع إلكتروني لغرفة في فندق، باستثناء ملصقات فيلم «حرب الكواكب».

عبثتْ في أرففه أيضًا. أزاحتْ كتبه جانبًا، ووضعت دمية ليبرون جيمس في ركن من الرف الثاني. على الطاولة المجاورة للفراش حقيبة أدوات زينة مبطنة ومفتوح سحابها. رُصّت بجانبها ثلاث زجاجات دواء، مثل جنود برتقاليين برؤوس بيضاء، وزجاجة أخرى فاتحة لمضاد الحموضة، وعلبة كريم نيفيا زرقاء.

وضعتْ حقيبة سفرها ذات العجلات في دولابه، وأزاحت أمتعته جانبًا لتفسح مجالًا لأمتعتها.

أذكّر نفسي بأنه لا توجد غرفة أخرى للضيوف في بيتنا. فإما أن تنام عمتي هنا، أو تنتقل إلى غرفتي لتزيح جانبًا أشيائي أنا. كلاهما ليس خيارًا جيدًا.

وأنا أعلم أنني على حافة الانهيار حقًّا لأنني زرت يوسف. ظللنا نبتهل بجانب سريره بأمل أحمق في أنه سيستيقظ ليعود كما كان من قبل.

مرت أيام قليلة منذ نُزع جهاز التنفس عنه. صار أكثر يقظة ووعيًا، لكنه ما زال لا يستجيب.

حين قضينا الصيف الماضي أربعة أيام في فندق على الشاطئ، كنت أستيقظ كل صباح بحيرة للحظات من المرتبة المنفوخة والبساط الأحمر المبهج المعلق على الحائط.

نوم يوسف الآن أعمق وأطول، ابتعد عن البيت وعن الشاطئ. نام في الأسبوعين الماضيين عدد ساعات أكثر مما ينامه الشخص العادي في شهرين تقريبًا. عطل زمني، مثلما في أفلام السفر في الفضاء.

كان استيقاظه صعبًا أيضًا. يتفقد الأطباء والممرضون علامات التقدم يوميًا. حين حاول ويليام -الذي سرعان ما صار ممرضنا المفضل- أن يجعله يُمسك بإصبعه، أبعده يوسف وهو يغمغم. اقتربت أمي منه فورًا، لتسنده وهو يعود إلى وعيه ويعتذر إلى ويليام.

قال ويليام إن تحفزه شيء عادي. سنكون كلنا صبورين معه.

أُضيف خوفًا جديدًا إلى مخاوفي التي تبقيني ساهرة ليلًا.

ماذا لو كان هذا هو يوسف الذي عاد إلينا؟

أسمع صوت خزانة المطبخ تنفتح وتنغلق، ثم صوت حركة ملعقة في فنجان.

أدخل غرفة المعيشة، فيغلي رأسي بغيظ. تقعد عمتي على الكنبة أمام التلفاز، تتابع مسلسلًا تركيًا بصوت خفيض جدًا، يجعلك تظن أنها تقرأ شفاه الممثلين. يتصاعد البخار من فنجان الشاي على الطاولة الجانبية. على ركبتيها ملابسي الداخلية، وفي يدها قطعة منها، بنقوش رقيقة لقوس قزح، اشتريتها لنفسي حين كنت سخيفة قليلًا. أشعر بأنها تحكم عليها وهي تطويها.

أقول لها: «ليس عليك فعل هذا، أنا أطوي ملابسي بنفسي».

فتقول: «حقًا؟»

بل يمكنني طي ملابسي بنفسي، بشكل أصح. وسواء كنت أفعل ذلك أم لا، فهو أمر غير ذي صلة تمامًا.

فتضيف: «عزيزتي يالدا، هل انزعجتِ من كلامي عن الجوارب؟ كنت أخبرك لمصلحتك فقط».

أجيبها: «نعم، لكنني لست طفلة. يمكنني الاعتناء بنفسي. لو كانت قدماك أنتِ باردتين، سيسعدني أن أحضر لك جوربين».

تقول ببطء، وهي تنظر إلى نعليها المنزليين المنفوشين: «لا. لست بحاجة إلى جوربين». ثم تضيف: «يالدا عزيزتي، أشعر بأنك لست سعيدة بوجودي هنا، لكنني هنا لمساعدتكم، لا ينبغي أن يكون والداك وحدهما في هذه المحنة. خاصة والدتك».

أقول بنبرة هادئة: «أمي ليست وحدها، أنا معها».

فتجيبني: «أنت ما زلت صغيرة».

أشعر أنني أريد قذف شيء ما على التلفاز لأنني لا أعرف ما السن التي ينبغي أن أبلغها لتضع عمتي حضوري في اعتبارها.

تواصل قائلة: «ولك حياتك أيضًا، مدرستك وأصدقاؤك. هذا ما يجب أن تنتبهي له. أسرتك وصحتك بخير، اشكري اللّه على هذه النعم، ولا تدعي شيئًا آخر يشتت انتباهك. أنا أقلق عليكِ حين تكونين في الخارج ليلًا في الشوارع».

أقول: «في الشوارع! ماذا تعنين بهذا يا عمتي؟ أنا لا أخرج ليلًا. والظلام يحلّ الساعة الخامسة مساء، وهذا لا يُعد ليلًا حقًّا». لا بدّ أنها رأتني أسير مع كيث وفيشر، لكنها تجعل الأمر يبدو كأنني أتسكع في الشوارع الجانبية مع عبدة الشيطان.

إذا كانت تعتبر خروجي للتمشية أو سيري حافية في البيت جنوحًا، فيمكنني تخيل مدى قسوة حكمها على رحيم لحقيقته التي كان عليها. يؤلمني التفكير في شعوره بالاختناق. يتمزق قلبي لذكراه، وأرغب بشدة في الابتعاد عن هذه المحادثة قبل أن يسوء الأمر أكثر من هذا، لكن عمتي لديها المزيد لتقوله.

تقول: «أبوك هادئ، لكنني أعرفه، إنه تحت ضغط شديد. وبصفتي عمتك، أهتم بكِ. لذلك أخبرتك مباشرة، لأنك في هذه السن، أنا واثقة بأنك ستفهمين...».

هل تلمح بأنها ستخبر أبي عن خروجي مع كيث؟ أشعر بكلامها يبتعد عن الحوار الودي ويقترب من الابتزاز.

أقول لها: «عمتي ليدا، أعرف أن أبي تحت ضغط، لكن هذا لا يعني أن تتجسسي عليّ أو تحكمي عليّ».

تبدو مأخوذة، ويبدو أن غرفة المعيشة تتقلص من حولنا، كأن الجدران تقترب لتسمعنا. تقول: «أنا لا أحكم...».

فأقاطعها قائلة: «بل تحكمين. هذا ما ظللتِ تفعلينه منذ وصولك إلى هنا. لا شيء جيد، لا طريقتنا في وضع الأطباق في الخزانة، ولا في غسيل الملابس، ولا أي شيء أفعله. تريدين إصلاح كل شيء، لكن لا يمكن إصلاح كل شيء، وربما لا شيء بحاجة إلى إصلاح».

ربي الرحيم... لو كانت أمي هنا، لوضعت لاصقًا على فمي. يندّ عن عمتي صوت غريب، ينمّ عن ذهول. لديها كل الحق في ذهولها. لم يكن لساني حادًا قط، وفي العادة أحتاج إلى مرور أربع وعشرين ساعة للتفكير في أي رد ذكي. هل هذا تأثير عمتي ليدا؟

تقول بهدوء بالدراية: «رحمتك بي يا رب... أنا لا أريد إصلاح أي شيء، أنا أعرف أنني لا يمكنني إصلاح شيء. أعرف... أنا فقط أحاول أن...».

تطرف بعينيها لتحبس دموعها.

في صوتها شيء ما مختلف، شيء ليّن تقريبًا... منكسر تقريبًا... يثقب صدري ويشعرني بالندم على ما قلته.

فأقول بصوت خافت يلائم صوتها: «لم يكن ينبغي لي أن أقول... أنا آسفة».

أريد أن ألمس ذراعها، أن أتواصل معها وأدعمها بطريقة ما. أردت أن أعرف ما بداخلها، لكن من الواضح أنني صدمت عصبًا ما. أريد أن أسألها عن رحيم. أتتذكر كيف كنا -أنا ورحيم

ويوسف- مستلقين على الكنبة في غرفة المعيشة في وقت متأخر من الليل، نضحك على أشكال الظل التي يصنعها رحيم بضوء المصباح. أتذكر كيف كان يقعد بذراعه حول عنق أمه وهي تضغط خدّها بخدّه بحب. من أين أتت هذه الذكرى؟ لماذا لم أفكر في مدى افتقادها له؟

أشدّ كميّ على يديّ وأستجمع شجاعتي لأردد اسم ابن عمتي. أقول لها: «أنا ويوسف، نفكر في رحيم كثيرًا».

تشخص ببصرها خارج النافذة، لأوراق الشجر المتراقصة. يخطر لي حينها، وأنا أراها تقعد ساكنة بشكل غريب، أنها ظلت في حالة حركة دائبة منذ قدومها إلى بيتنا: تنظف، وتغسل، وترتب. تعبر غيمة فتحجب الشمس وتُظْلِم الغرفة بشكل ملحوظ.

تقول: «النهار يمر بسرعة، دعيني أنقع بعض الأرز قبل...».

تعيد كومة من ملابس أبي الداخلية المطوية إلى سلة الغسيل الأبيض، ثم تذهب إلى المطبخ.

أريد أن أركض خلفها وأضغط زر التراجع عما فعلته للتو، لكنني لا أعتقد أن لديّ الكلمات الصحيحة لقولها. أبقى مكاني وأستعيد حوارنا، الذي يشبه الحُجلة، عني وعن أمي ويوسف وعمتي، لكنني أعرف من قلبي أن كلًّا منا ظلت تحجل على ساق واحدة، ونحن الاثنتان نعرف أن ذكر رحيم سيؤدي إلى تعرقلنا وسقوطنا كالأطفال الحمقى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثامن والعشرون

يرن الجرس، فأنهض عن مقعدي وأتجه نحو خزانتي. أشعر بعين مدرّسي عليّ، لكنني اعتدت هذا الآن. غير أن الأشخاص يغيّرون تعاملهم معي، إما بالتحدث إليّ وإمَّا بتجنّبي. لا ألومهم.

تبدو العودة إلى المدرسة غريبة، بعد أسبوع كامل من نهاية عطلة الشتاء. عاد الجميع منذ أسبوع، لكن والديّ لم يرغبا في إرغامي، ربما لأنهما يريدانني معهما أكثر؛ إذ إن يوسف، رغم خروجه من المستشفى، لم يعد إلى البيت.

ما إن استطاع يوسف الإجابة عن أسئلة بسيطة والجلوس على كرسي متحرّك، قرّر الأطباء أنه لم يعد في حاجة إلى هذا المستوى من الرعاية الطبية. ستواصل عظامه المكسورة الالتئام في الجبيرات. استطاع كذلك أن يأكل أكثر، مع أنه يحتاج إلى مساعدة في هذا أيضًا.

يبدو مركز إعادة التأهيل الذي يقيم فيه مثل مستشفى إلى حدٍّ ما. يرتدي الممرضون والمعالجون زيًّا رسميًّا موحّد اللون، كأنهم سقطوا، وهم في طريقهم إلى العمل، في دلو طلاء أزرق أو عنّابي. لكنه ليس مستشفى أيضًا؛ فلا أحد يفحصه بالتكرارية التي كانت في المستشفى، ولا يحتاج إلى توصيله بأجهزة أو شاشات. تشعر أمي براحة لهذا، لكنها قلقة أيضًا؛ تخاف من حدوث خطأ ما دون أن يعرف أحد. أخذت أمس ترمومترًا من البيت لتقيس درجة حرارته بنفسها.

يقـول كيـث: «مرحبًـا». ارتـدى معطفـه بالفعـل، وحقيبتـه علـى كتفـه. أغلـق الخزانـة، وأديـر القـرص مـن بـاب العـادة.

أقول: «مرحبًا».

عـادة، نتقابـل فـي الخـارج ونسـير معًـا إلـى البيـت كشـخصين تصـادف أن يسـكنا علـى مسـافة قريبـة أحدهمـا مـن الآخـر. لكنـه هنـا الآن، يقـف أمـام خزانتـي، ليمكننـا الخـروج مـن المدرسـة إلـى البـرودة فـي الخـارج معًـا، كصديقيـن حقيقييـن.

محادثتنـا فـي الطريـق بطيئـة، وهادئـة. لا أميـل إلـى السـخرية أو التذاكـي، لكنـه لا يبـدو ضجـرًا. نسـير بإيقـاع جديـد متباطـئ. يسـألني عـن يوسـف، وأخبـره أنـه أفضـل قليـلًا. أقـرّر أنـه لا داعـي لأن يعـرف كيـف يبـدو «أفضـل» هـذا. لا داعـي لأن يعـرف كيـث أن يوسـف يذهـب إلـى الحمّـام بمسـاعدة أمـي لتُسـند ذراعـه، أو أنـه أهـدأ قليـلًا. ظـل يشـكو مـن ألـم ضلوعـه وكـره جبيرتـه حقًّـا، لكنـه قبـل هـذا لـم يكـن يشـكو حتـى، لذلـك فحتـى الشـكوى تُعَـدّ علامـة تقدّم. عندمـا يصبـح هـو مسـتعدًا، يمكنـه أن يُخبـر النـاس بمـا يريـده.

نحـاول أن نتحلّـى بالصبـر كمـا نصحنـا ويليـام، ويبـدو أن هـذا أصعـب شـيء الآن.

حيـن نصـل إلـى منزلـه، أتسـاءل إن كانـت أمـه تراقبنـا مجـددًا، وأشـعر بسـأم شـديد مـن توتّـري لوجودهـا. يبـدأ بتوديعـي، لكننـي أقاطعـه فجـأة قائلـة: «هـل تسـمح لـي بسـؤال؟»

يجيبنـي: «بالطبـع»، ويبـدو منتبهًـا. الأسـئلة المعقّـدة فقـط هـي التـي يُعلَـن عنهـا هكـذا، أمـا الأسـئلة البسـيطة فتُعَـدّ محادثـة عاديـة.

يسـألني: «عـن مـاذا؟»

ولدهشتي أسأله فجأة: «ألا تُحبّني والدتك؟»

يسعل ويجيب: «لا، انتظري، ماذا؟ لماذا تعتقدين هذا حتى؟»

لو كنت أشكّ قليلًا، لاعتذرت إليه وطلبت منه أن ينسى أنني ذكرت الأمر من الأساس، لكنني أعرف شعوري جيدًا. أنا متأكدة أنها تراقبنا، وليس بابتسامة عريضة على وجهها.

أقول له بهدوء: «لا تفعل هذا، لا تحاول إقناعي بأنه لا شيء».

يحمرّ وجهه. أراه ينظر إلى الأرض حتى. ثم يقول بتلعثم: «أنا آسف. لم أقصد أن...». لكن الحقيقة آتية، وعليّ أن أتحلى بالصبر مع كيث أيضًا. يقول: «كان عليّ أن أوضّح لكِ. سأخبركِ بالأمر».

يخبرني عن صديق داني، جندي أمريكي خدم في أفغانستان أيضًا. كان على وشك العودة إلى وطنه بعد أن يُسهم في إخلاء المطار، وهم يُخرِجون آخر الناس: مواطنين أمريكيين وبعض الأفغان المعارضين لطالبان مع الأمريكيين. كانت مهمة من المفترض أن تستغرق أيامًا قليلة، إذ كان مجرد مطار، لا ميدان معركة.

أقول: «لكن حدث انفجار»، وأتذكر الصور ومقاطع الفيديو والجدل الذي دار على الإنترنت وجعل والديّ واجمين.

يقول: «نعم. كان صديق داني أحد الضحايا الذين لقوا حتفهم ذلك اليوم، مع اثني عشر شخصًا آخرين، أغلبهم جنود».

قُتل أيضًا نحو مئتي شخص أفغاني، وأُصيب كثير من الأفغان والأمريكيين. كان هجومًا شنيعًا على أبرياء.

أسأله: «وما علاقة هذا بي؟!»

يومئ برأسه ويقول: «كان داني يتحسّن قليلًا، ثم حين حدث هذا، انهار تمامًا من الحزن على صديقه. صدمه الأمر بشدة. كان يتحدث مع جنود سابقين، وصُدموا جميعًا صدمة قوية أيضًا. كانوا غاضبين بشدة من طريقة سير كل شيء. قال داني إنهم يشعرون بأن كل ما فعلوه، ذهابهم للحراسة هناك وابتعادهم عن أسرهم وتعرّضهم للموت... كان كل هذا من أجل لا شيء، لو أننا تركنا العدو يستولي علينا... عمومًا، استغرق داني وقتًا ليتحسّن. لم يتحدّث معنا عن الأمر لأشهر قليلة. لكنه ظل يقضي الوقت على هاتفه، يقرأ الأخبار ويزداد غضبًا. اضطرت أمي إلى الاتصال بخدمة ما للتعامل مع الأزمات لتطلب له مساعدة. لذلك، تشعر بالقلق نحو أي شيء قد يعرقل تحسنه مجددًا، أو يذكّره، أنتِ تعرفين».

أقول، كتلخيص لما قاله: «هي قلقة إذن من تذكيري له بصديقه الذي مات في أفغانستان».

يومئ برأسه بأسف.

وربما تشعر بهذا نحو يوسف أيضًا، وربما هذا حقيقي، لكنني أرى ردود فعلها في حضوري أنا فقط.

أقول معترضة: «لكن، لا صلة لي بكل هذا».

كيف يكون رد فعلها نحوي عادلاً؟ كيف يكون أيٌّ من هذا عدلاً؟

إن الحياة هي المعجزة الأشدّ روعة، وإنها متنوّعة، ومتطوّرة، وقابلة للتكيّف دائمًا، لكنها ليست عادلة إطلاقًا.

أقول لكيث: «ليلة ذهابنا إلى الويرهاوس إذن»، وأتذكّر المرّات التي قابلت فيها داني، حين بدأ يسألني أسئلة، لكننا حينها كدنا نصطدم بسيارة أخرى. «ماذا كان يقول للارسون حقًا في ساحة الانتظار؟»

يجيبني: «سبق أن قلت لكِ الحقيقة. داني يصبح دفاعيًا حقًا بشأن المهاجرين. قال إن هناك أشخاصًا كانوا يحاربون كتفًا بكتف مع الأمريكيين، وأخبر لارسون أنه كان أحمق حقًا فيما قاله عنهم». يبدو كيث مصرًا، يريدني أن أصدّقه، وأنا كذلك. يبدو ما يقول حقيقة، وأنا أثق بمشاعري.

يضيف قائلًا: «أنا آسف حقًا، الأمر ليس بشأن شيء قلتِه أنتِ أو فعلتِه، بل تحاول أمي حماية داني من التفكير في هذا مجددًا فقط».

لم يكن داني في المطار في كابول في أثناء الانفجار. لم يُصَب برصاصة، ولا لقي حتفه، ولا سقط تحت الأقدام... لكنه جُرِح بطريقة مختلفة. فقد صديقًا. هل يُحسب هذا في عداد الجرحى إثر الانفجار؟ هل سيُحاسب أحد عليه؟

أجيبه قائلة: «فهمت». ويخطر لي أنني، بقدر ما أكنّ له ودًا، لست مضطرة إلى تركه أو إلى الشعور بشكل سيئ حين تراني أمه. لست مضطرة إلى القلق من أن أثير شيئًا ما لدى داني. ربما ليس بإمكاني علاج هذه المشكلات. وربما ليست مشكلاتي لأعالجها من الأساس. أسأله: «وما رأي داني؟»

فيجيبني: «لا أعرف».

أنظر إلى الأعلى، إلى السحب الناعمة التي تعبر سماءً قاتمة. القمر قُبّة شفّافة، يسهل عدم ملاحظته في ضوء النهار.

يقترح قائلًا: «أظنّ أنها إنْ تحدثت إليكِ، أتعرفين؟ أقصد، لو تعرّفت إليكِ قليلًا حقًا، سيساعدها هذا على أن تفهم». تبدو فكرة جيدة في البدء فقط. لو قابلتها، فسأكون في أشدّ درجات الأدب، كما علّمني والداي أن أكون، وسأترك لديها انطباعًا جيدًا. أفكر في والديّ في المطعم، يرغبان في أن يكون كل شيء في حالة ممتازة، لأن الزبون دائمًا على حق.

لكنني لا أخدم زبائن هنا. لا أخدم مائدة والدته وأنتظر منها إكرامية.

فأقترح قائلة: «ربما حان الوقت لها أن تسأل داني عن شعوره».

يجفل كيث قليلًا للحنق في صوتي الذي يظهر رغمًا عني، أردف قائلة: «أتمنى أن يتحسن داني. حقًا. ويؤسفني ما عاناه، ويؤسفني أنه فقد صديقه. لكن اختفائي من الوجود لن يجعله يتحسن».

ينظر إلى منزله، ويضع يدًا على جبهته، كأنه يشعر بصداع من محاولته التفكير في الكلمات بحرص، يحاول أن يقود هذا الحوار بشكل سليم. لكن ربما لا يمكنه هذا، على الأقل ليس الآن. ألمس كم معطفه وأقول همسًا: «لا بأس».

فيجيبني بسرعة: «لكنه ليس كذلك».

فأقول: «لا، ليس كذلك. لكنها ليست مسؤوليتي أيضًا أن أجعله كذلك». وأشعر بأنني أزحت عن صدري عبئًا ثقيلًا جدًا، فأواصل: «قل لداني.. يؤسفني كل ما عاناه. أراك غدًا يا كيث».

لا ألتفت خلفي لأرى إن كان يراقبني.

حين أدخل منزلنا، أشمّ رائحة ماء الورد والهيل. أعرف أن عمّتي ليدا صنعت روت، الكعكة الدسمة التي لا تصنعها أمي لأنها مليئة بالكربوهيدرات. لكنني أحبّها، مع هذا. كنت وأنا صغيرة أحبّ مراقبة عمّتي وهي تشكّل العجين بسنون شوكة، أو بكشتبان، أو بغطاء زجاجة.

ظللت أفكر فيها كثيرًا بعد آخر محادثة بيننا. أريد أن أُصالحها أيضًا. كبرت هي ووالدَيّ في مكان وزمان مختلف تمامًا. أعرف أنهم تربّوا على قواعد وتقاليد معينة، وأنهم قضوا حياتهم يحاولون فهم أيّ هذه القواعد والتقاليد يحتفظون به، وأيّها عليهم التخلّي عنه. أعلم أنهم شهدوا فظائع في أفغانستان. سمعتُ قصصًا عن صواريخ سقطتْ على أحيائهم، وهم يحاولون اختيار طريق النجاة: البقاء أم الرحيل. وفي جميع الأحوال، إنها هي الثكلى. أعرف أنها أحبّت نسخة ما من رحيم، حتى لو لم تتطابق تمامًا مع ما كان عليه.

وأنا أصعد السلم، يكسر الصمت رنين جرس، يجعلني أكاد أقفز.

تسعل عمّتي بإعياء وهي تلتقط هاتفها من فوق الطاولة، دون أن تلاحظ عودتي.

تخفض صوت التلفاز، وتقول بالدارية: «هل أنتَ في البيت؟»

تفاجئني نبرة صوتها. سمعتها تجيب على كثير من الاتصالات منذ قدِمت إلى هنا، وكانت تجيب مثل أمي -بتحية، ثم السؤال عن والدة المتصل ووالده وابنه وبنته وخاله وخالته، ومعلّمه في

الصف الخامس، وساعي البريد، وأيّ شخص آخر يمكنها تذكّره. ثم تسأل عن صحته هو. كلّما زادت سن مَن على الطرف الآخر، ازداد ما أسمعه من طقطقة لسانها وسؤالها عمَّ قاله الطبيب.

لا تفعل عمتي أيًا من هذا الآن.

بل تسأل مباشرة: «هل أخرجتَ كرات اللحم من الثلاجة؟» لا بدّ أنها تتحدث مع عمي زهير. يخطر لي أنه بقي وحده في البيت طوال المدة التي أقامتها معنا. هل عليها أن تخبره ماذا يأكل حقًّا؟

تقول: «حسنًا، إنها في الرف الثالث. أو الثاني ربما. أحدهما. لا تنسَ. وإناء طهي الأرز يستغرق خمس عشرة دقيقة فقط. لا تتلكأ».

أتّجه نحو غرفتي، لكنني أتوقّف عند الباب، لستُ متأكدة ممّا سأقول لها، وعند هذه النقطة أسمعها فحسب، حقًّا.

تقول وهي تتنهّد: «لا أعرف، ربما غدًا. هل تعتقد أنك ستجد رحلة؟ حتى إنْ كانت صباحًا، فسيمكنني الوصول إلى المطار».

أشعر بعقدة في معدتي. لماذا لستُ مرتاحة لسماعي هذا؟

تقول: «لا، كل شيء بخير. يوسف يتحسن يوميًّا. إنهم محظوظون».

أجفل لهذا التعليق.

تقول: «أعرف، أعرف، تمنيتُ فقط لو كنا محظوظين نحن أيضًا. اتّصل بي مجددًا لتبلغني ماذا وجدت. أريد أن أعود إلى البيت».

تضع هاتفها على الطاولة، وتمرر يديها على شعرها، تربّت عليه. تمسك الريموت لتُطفئ التلفاز، وتُلقي به على وسادة الأريكة. تبقى ساكنة للحظة، قبل أن أرى ظهرها يستقيم مجددًا.

في أحد احتفالات يالدا الماضية، قرأت أمي بيتًا من شعر حافظ جعل يوسف يعتدل في قعدته ويومئ برأسه: «أقوالُنا بيتُنا الذي نسكنه». أعود أدراجي في الرواق نحو غرفة المعيشة، يدفعني شعور جديد عليّ بأن لا شيء مهم يجوز أن يظل مسكوتًا عنه.

ترى إحدانا الأخرى، وتنعكس صورتانا على شاشة التلفاز الداكنة. أكسر الصمت قائلة: «أنا آسفة يا عمتي».

تلتفت لي وتومئ بعفو ثم تقول بالدارية: «لم يحدث شيء».

لكنني لا أريد اعتبار هذا كأنه لم يحدث، فأقول بإصرار، وأنا أدخل وأقعد بجانبها على الأريكة: «لا، هذا يهمني. لقد كنت... كنت مكتئبة ولم أقصد أن أقسو عليكِ. أعرف أنكِ تحاولين مساعدتنا. لكنني تعودت فعل كل شيء بطريقتي أيضًا. أو بطريقة أسرتنا. وحين تخبرينني أن أكون جيدة، سيبدو من قولك هذا أنني سيئة».

تهز رأسها وتقول: «لا. لا. لا. لستِ سيئة. أنتِ فتاة جيدة جدًا يا يالدا، يا عزيزتي. حقًا، ماذا أقول لكِ؟ أنتِ فتاة جيدة، ويوسف العزيز فتى جيد جدًا».

تلمع عيناها بدموع لا تجففها. تومئ وتقول: «كان فتى جيدًا، ليغفرْ له الله». العبارة الدارية التي ينبغي قولها عند ذكر شخص ميت، تشبه: «ليرقد في سلام». لكنني أتألم لسماعها تطلب له المغفرة. أسألها: «هل تظنين أنه سيحتاج إلى المغفرة؟»

تنظر إلى راحتي يديها، ثم تكوّر أصابعها وتجيبني: «نحن جميعًا نحتاج إلى المغفرة».

لا أعرف كيف أُجيب عن هذا.

تقول بحزن: «كان يحب أن يحلم. عندما كان طفلًا صغيرًا، كان يحلم بشراء بيت كبير ليُخصص لي غرفة فيه، وكان يقول إنه سيحرص على أن تكون نوافذه كبيرة لأنه يعرف أنني أحب ضوء الشمس».

ربما كانت تحب ضوء الشمس، لكن الضوء الوحيد الذي رأيتها فيه منذ أن أقامت معنا هو الوهج الصناعي لشاشة التلفاز».

لا أتخيل كم ألمها لمواجهة كل يوم من دون رحيم. تبدو كجرح لم يلتئم، ولا أجد الكلمات الصحيحة التي ينبغي لي قولها لها. لكنني أقول: «يؤسفني الألم الذي عاناه، وأفتقده كثيرًا». أضع يدي على يدها وأضغطها، ويبدو أن هذا يُطلق شيئًا ما بداخلها. تنسال الدموع على خديها ويهتز صدرها وهي تجهش بالبكاء.

تقول: «لم يوجد أحد مثله. كان يعرف دائمًا ما أشعر به. كان يقول لي: 'لا تحزني يا أمي العزيزة، اخرجي للتمشية'. وحين أراد أن يعلّمني كيف أتنفس، قلتُ له إنني ظللت أتنفس طوال حياتي. قال لي: 'أنتِ تحملين طاقة سلبية كبيرة في صدرك'. كان يتحدث كثيرًا عن التنفّس. خذي شهيقًا وعدّي -لا أتذكّر كم ثانية- ثم أطلقي زفيرًا. كان يسألني إن كنت قد قمتُ به، وكنت أجيبه: 'نعم، بالطبع'، كي لا يغضب مني».

تندّ عنها ضحكة في منتهى الضآلة وسط بكائها، وأدرك أنني ابتسمتُ لذكراها هذه عنه، إرشاده لها بشأن التنفس السليم.

أقـول: «كان سـيصبح معالجًـا نفسـيًا عظيمًـا. كانـت روحـه مسـالمة». وأتذكّـر المـرات التـي لاحظـتُ فيهـا بعـد سـاعات مـن الحـوار مـع ابـن عمتـي أن رحيـم هـو دائمًـا مـن يطـرح الأسـئلة ويسـتمع، يحتفـظ بحيويـة الحـوار دون أن يقـول الكثيـر.

تقول: «اتصل بي قبلها بيوم».

ليس عليها توضيح قصدها، لأنني أعرف ماذا تعني.

«لـم أرد التحـدث معـه عـن أي شـيء يضايقـه. أردت فقـط أن يكـون كل شـيء بسـيطًا. أردتـه أن يتحـدث عـن أحلامـه حيـن كان صغيـرًا: البيـت ذو النوافـذ الكبيـرة. غرفـة لـي. كنـا نحـن الاثنـان متعبيـن مـن التحـدث عـن أي شـيء آخـر، علـى مـا أظـن، لذلـك تحدّثتُ عـن الطقس. قـال: 'ذهبتُ فـي رحلـة اليـوم يـا أمـي العزيـزة، صعـدتُ منتصـف الجبـال، كانـت الشـمس تغـرب، ولا صـوت سـوى زقزقـة الطيـور والريـح. اذهبـي للتشـمية اليوم يـا أمـي العزيـزة. دعـي الطيـور تغـرّد لـكِ».

يمنحنـي مشـهده وقـد تسـلّق نصـف الجبـل، وتوقّـف ليسـتمع للطيـور، سـلامًا ذهنيًـا.

دعي الطيور تغرد لكِ.

ينقبـض قلبـي للتفكيـر فـي هـذا الأمـر بالـوداع. لكنـه أكثـر مـن أمـر؛ يحمـل قـدرًا مـن المسـامحة أيضًـا. وليـس ذلـك اليـوم فقـط، أدرك هـذا. لا بـد أنـه ظـلّ يسـامحها كل يـوم، كلّمـا أمسـك الهاتـف واتصـل بهـا، وكلّمـا ذهـب لتنـاول العشـاء مـع والديـه، وكلّمـا فكّـر فيهـا. وإن كان هـو يسـامح أمّـه، أليس خطـأً منـي أن أسـتاء منهـا؟

أقول لها: «كان مختلفًا، ليس كالشباب الآخرين».

توافقني، حتى وهي تمسح دمعة سالت: «نعم. كان مختلفًا جدًّا. لا أحد لديه قلب مثل قلبه. كان الناس يخبرونني بأنني محظوظة به».

أسألها: «لماذا يا عمّتي...»، لكنني أمنع نفسي من السؤال. مع ذلك، أريد أن أعرف، فأواصل قائلة: «هل أردتِ تزويجه بفتاة ما؟»

تضحك بحزن وتقول: «أنا لم أرد تغيير ابني. هو من أخبرني ذات يوم أن عليّ أن أخبر معارفي بأنني أبحث له عن خطيبة. كان لدينا معارف كثيرون يسألون عنه، يحشرون أنوفهم فيما لا يعنيهم. ولم أرد أن يجرحه أحد أو يتحدث عنه أحد. لذلك أخبرت واحدة أو اثنتين بما قاله، ثم توقفت. لستُ بحاجة إلى توضيح شيء للآخرين. إنها حياته».

أتجمّد ذهولًا. كنتُ أنا من افترض أنها كانت تحاول «تقويمه»، في حين كانت مجرّد إشاعة من تفكير رحيم نفسه. ولأنها أمّه، وبطريقتها الخاصة، كانت تحاول مدّه ببعض الخصوصية. لم أفكّر أبدًا في إمكانية وجود مزيد مما يحدث خلف ما أسمعه من أمي. أقول لها: «لم أكن أعرف هذا».

تقول باكية: «لا أحد يعرف هذا. أنا وأبوه فقط. أخبرني الطبيب أنه مات بسبب مرض، مثلما يموت البعض بالسرطان. لكن، كيف كنت سأعرف وأنا أراه أمامي شابًا وبصحة جيدة؟ كيف لا أشعر بأنني فقدتُ ابني لأنني فشلتُ في الاعتناء به؟»

أقول لها: «كان يحبك بشدّة»، ولا أجد أي كلمات أخرى. الألم في وجهها حزن وندم بقدرٍ متساوٍ. تهزّ رأسها وتحاول استعادة

نفسـها مجـددًا. أقـول لهـا: «أنـا آسـفة جـدًّا للتحـدث معـكِ بهـذه الطريقـة».

تقـول: «لقـد فعلـتُ مـا كان علـيّ فعلـه بصفتـي أمّـه. هـل كان مـا فعلتـه جيـدًا أم سـيئًا، أو صوابًـا أم خطـأ، لا أعـرف. فيـمَ سـتفيد المعرفـة الآن؟ لـم يعـد هنـا ليسـامحني».

كانـت ستفعل أشياء مختلفـة لـو مُنِحـت فرصـة أخـرى. ربمـا كلّنـا هكـذا. لكـن حياتنـا ليسـت لعبـة فيديـو، لا تتيـح لنـا خمـس محـاولات لفهمهـا. كنـتُ مسـتاءة مـن عمّتـي، لكننـي مسـتاءة مـن نفسـي أيضًـا؛ لـم أتصـل بـه لسـؤاله عـن أحوالـه، وليـس لشـهور، بـل لسـنوات. فـي العاميـن السـابقين علـى قـراره تـرك هـذا العالـم، لعلّـي أرسـلت ملاييـن الرسـائل النصيـة لأصدقائـي، لكننـي لـم أرسـل لـه رسـالة واحـدة لأهنئه بعيـد ميـلاده، أو بعيـد الشـكر، أو لأخبـره بأننـي أفتقدتـه. هـل كان هـذا سـيغيّر أي شـيء؟ أم إنـه غـرور منـي أن أفكّـر حتـى أنـه كان بإمكانـي إنقـاذه؟

الاحتمالات كثيرة.

أتذكّـر حيـن تحدثنـا أنـا ويوسـف عـن رحيـم علـى اسـتحياء... كيـف لـم أُرِد ليوسـف أن يلـوم نفسـه. حتـى الآن لا أدّعـي بأننـي لسـتُ ملومَـة، لكننـي أعـرف أنـه ليـس ذنبـي أيضًـا. أقـول لهـا: «ربمـا عليـكِ أن تسـامحي نفسـك». عـرضٌ فـي منتهـى المكـر، لأننـا نتحـدث عـن مغفـرة الله لنـا فحسـب. لكـن، لمـاذا لا؟ مـن المؤلـم أن تكـره رؤيـة نفسـك فـي المـرآة.

تفكّـر فـي هـذا لوهلـة، ثـم تضـع ذراعهـا حولـي. أميـل إليهـا وأشـعر بدفء لـم أتوقعـه. أسـألها: «هـل ستسـافرين حقًّا؟»

تومئ قائلة: «جئتُ لأخفف الضغط عن والديكِ فحسب، وأريد أن أرى عزيزي يوسف يتحسن. الحمد لله أنه سيعود إلى البيت وإلى والديه قريبًا. حان الوقت لأعود إلى بيتي أنا أيضًا».

أدهش لسماع نفسي أسألها: «هل ستعودين مجددًا؟»

تنظر إليّ فأرى مدى ضعفها، وتقول: «كيف سيمكنني البقاء بعيدة، يا ابنة أخي العزيزة؟»

أعانقها بقوة أكبر ونتنفس معًا، نحرر شيئًا ما مع كل نفس من أنفاسنا، ونستمع إلى طيور تُغرد للتسامح خارج نافذتنا مباشرة.

الفصل التاسع والعشرون

أنظر من نافذة غرفتي فأرى شخصين عند الباب؛ على رأس أطولهما طرحة صوفية.

ينفتح الباب وأسمع أمي ترحب بهما بالدارية. تدور محادثة لا يمكنني تمييزها، فأتسلل إلى الرواق لأسمع بشكل أفضل. هل هما أقارب؟ إن كانا كذلك، فهما ليسا ممن أعرف صوتهم.

أسمع أمي تقول: «عزيزتي نهال»، فأعرف ماذا ستقول بعد ذلك حين تناديني: «يا يالدا! تعالي لتري من جاء».

أسير في الرواق إلى أعلى السلم، وأرى نهال وأمها، فيما تشير لهما أمي لتدخلا. أنفاهما ورديّان من البرد. الأم مثل ابنتها، لهما نفس العينين المستديرتين، والشعر الداكن. تحمل بين يديها طبقًا مُغطّى بورق ألومنيوم.

أقول وأنا أرفع يدي: «سلام». تبتسم لي نهال. تبدو مرتاحة أكثر بكثير مما تبدو عليه في المدرسة.

تقول لي أمها بالدارية: «سلام يا عزيزتي!»، ثم تعاود الالتفات إلى أمي وتقول: «يا أختي العزيزة، كان علينا المجيء قبل وقت طويل، لكنني لم أعرف مكان منزلكم».

تقول أمي وهي تُغلق الباب: «يسعدني مجيئكما، إنها مفاجأة سارة، دعاني آخذ معطفيكما».

فتقول أم نهال: «لا، لا نريد أن نتعبك، لن نقعد. أردت فقط أن أقدّم لكِ شيئًا بسيطًا».

تقول أمي: «ابقي وقتًا قصيرًا على الأقل».

فتقول أم نهال: «في وقت آخر، ربما».

هذه رقصة أفغانية رسمية، وأنا أعرفها جيدًا، مع أنني طالما تمنيت أن نقتصر في الخطوات الباهرة ونصل إلى الختام.

تُصرّ أمي قائلة: «لا يمكن أن تأتي ولا تشربي كوب شاي. يالدا، عزيزتي، هل يمكنك أخذ معطفيهما؟»

أهبط السلم وأنا أذكّر نفسي أن أبتسم، كي لا يُفسّرا دهشتي بأنها عدم ترحيب بهما.

أقول: «بالطبع، دعاني آخذهما»، لكن نهال تساعد أمها في خلع معطفها بالفعل. تأخذ شماعة من خزانة المعاطف المفتوحة وتُعلّق معطف أمها أولًا، ثم تُعلّق معطفها على الشماعة نفسها.

أقول حين أهبط السلم: «كنت سآخذهما عنكِ». تصعد الوالدتان السلم وهما تثرثران. تقول نهال: «لا بأس»، وتُغلق الخزانة. تقود أمي أم نهال إلى غرفة المعيشة، وتُقعدها بجانبها على الأريكة.

تقول أمي لي حين نصعد، أنا ونهال: «يالدا، عزيزتي، هل يمكنك صنع الشاي؟» تُثبت عينيها على عينيّ، لتُذكرني بإضافة الهيل، وإحضار الأكواب الزجاجية، وليس الخزفية المرسوم عليها شارب بابا نويل الأبيض.

لو كانت عمتي ليدا هنا، لكان الماء يغلي الآن بالفعل. حين ذهبتُ إلى غرفة يوسف بعد سفرها، أدهشني ما رأيته. عادت دمية ليبرون جيمس إلى مكانها، وعادت خزانة ملابس يوسف كما كانت عليه في الليلة التي لم يعُد فيها إلى البيت، كأن عمتي

لم تبت في الغرفة ليلة واحدة. مع ذلك، تغيّر شيءٌ ما في البيت بمكوثها معنا. أدركتُ أننا لم نشعر بأننا وحدنا حقًا لأنها كانت معنا. وأنني لم أكن أعرف كل شيء عنها، هي ورحيم. ولا أعرف لماذا ظننت أنني أعرف.

تقول نهال: «يمكنني إعداده معها»، وتتبعني إلى المطبخ. تحمل الطبق المغطّى بورق الألومنيوم، وتسألني أين تضعه.

أقول لها بدارية ربما بدت لها مريعة: «يمكنك وضعه على المنضدة»، لكنها لا تُعلّق. تنظر إلى الصور على البرّاد، واحدة ليوسف بذراعه حول كتفي، رغمًا عنه، في حفل زفاف، حين كنا في الثالثة عشرة من عمرنا. أدركتْ أمي أن شعري بحاجة إلى محترف، لكنها أخذتني إلى صالون شعر ببطاقة نقاط، فبدلًا من أمواج شاطئ هادئة، انتهى الأمر بشعري مثل الإعصار.

أملأ الغلاية الكهربائية بالماء وأشغلها. أرجو ألا تظن نهال أنني بحاجة إلى المساعدة في غلي الماء حقًا. تقول بالإنجليزية: «كيف حال عزيزنا يوسف؟» تدهشني إنجليزيتها الجيدة، وأركل نفسي قليلًا لافتراضي بأنها ستكون متكلفة قليلًا. أميل إلى المنضدة وأواجهها.

أقول، مرتاحة للتحوّل إلى الإنجليزية: «إنه يكتسب قوة، قد يعود إلى البيت خلال أسابيع قليلة».

تُضيف قائلة: «إن شاء الله»، مثلما تفعل أمي، لكنها تبدو كحماية أكثر منها تصحيحًا، فأشعر بارتياح. أسألها لأغيّر الموضوع: «كيف حالكِ أنتِ؟ وحال أسرتكِ؟»

تبتسم وتُجيبني: «حصلت أمي على عمل جديد، في متجر بقالة. في الوطن، كانت تعمل في الحاسبات، لكنه عمل لا بأس به حاليًا. تقول إنها تتعلم الكثير عن أمريكا. توجد طرائق كثيرة جدًّا لجلب اللبن من دون بقرة».

أضحك، وأفكر في زجاجتي لبن الشوفان ولبن اللوز اللتين تحتفظ بهما أمي في البرّاد.

أقول: «ظني أنها كانت سنة صعبة. لا بدّ أنكم لاقيتم الكثير لتعتادوا الأمر».

تُجيبني وهي تنظر من نافذة المطبخ إلى فنائنا الخلفي: «نعم، الكثير، لكن الناس ساعدونا. حين جئنا إلى شقتنا، لم يكن فيها شيء. أحضرت لنا خالتي العزيزة، والدتكِ، شالو وكفتة. افتقدتُ أرزنا حين كنا في القاعدة، ثم في الفندق. والسبانخ هو طعامي المفضل أيضًا، لذلك جعلني السابذي الذي أحضرته والدتكِ أشعر بتحسّن كبير. وحين منحتْ أمي البهارات ليمكنها الطبخ هي أيضًا، بكتْ أمي من السعادة».

أتذكّر أمي وهي تعبئ حاويات كبيرة بالكمون والماسالا وبودرة الثوم، ثم تضعها في كرتونة. فكّرتُ في الذهاب معها، لكن فكرة عقد حوارات صغيرة مع الناس أثقلتني، لذلك بقيتُ في البيت، وأنهيتُ فرضًا كان عليّ تقديمه بعد ثلاثة أيام.

تصفر الغلاية. أضع أوراق الشاي الأخضر في الترموس بملعقة، وأُضيف قليلًا من الهيل المطحون، ثم الماء المغلي. أدع البخار يُدفئ وجهي قبل تغطية الترموس بإحكام.

أقول: «إنها تحب الطعام وتحب المساعدة»، وأزيل ورق الألومنيوم عن الطبق الخزفي الأبيض. أرى هالة جميلة من الزبيب الأخضر والجوز وأوراق النعناع الأخضر الطازج، تحيط بكومة مركزية من الجبن الطازج المقطّع إلى مكعبات. شكله جميل؛ فالعين تأكل قبل الفم. ولأنني فتاة تعرف جيدًا عالم المطاعم، أكاد أصوّر الطبق وأضيفه إلى قائمتنا كصنف أجبان أفغاني.

تسأل نهال، وهي تشير إلى أكواب الشاي في الخزانة: «هل أخرجها؟»

أسمع والدتانا تتحدثان في غرفة المعيشة، لكنني لا أميز ما تقولان. قبل شهر مضى، كنت لأتصبب عرقًا من فكرة الجلوس مع أشخاص لا أعرفهم، لكنني كنت شخصية مختلفة حينذاك. كأن بعض الجينات الأفغانية قد تم تفعيلها للتو.

أجيبها: «بالطبع، إنها جيدة».

يئز هاتفي على المنضدة، أسفل خزانة الأكواب مباشرة. أرى الشاشة تضيء واسم كيث يظهر عليها. سجلته في قائمة اتصالاتي، التي زادت كثيرًا منذ حادث يوسف. تنظر نهال سريعًا إلى الهاتف، ثم تحركه نحوي.

أشعر في عنقي بالحرارة نفسها التي شعرتُ بها وهي تمر بي ذاك اليوم في المدرسة. أفكر في كل القيود التي لديهم في أفغانستان الآن، كيف كانت حياتها ستصبح مختلفة لو بقيت هناك. لم يكن ليُسمح لها بالذهاب إلى المدرسة، أو السير في حديقة، أو الذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية. وبإغلاق جميع صالونات التجميل، لم يكن ليمكنها حتى قص شعرها. ولو جرؤت وأسرتها

على الاحتجاج بصوت عالٍ، فقد يختفون كما اختفى معارضون آخرون. قرأت الأسبوع الماضي منشور أحد أبناء عمومتي عن جَلد شابٍ وشابةٍ أمام العامة لتراسلهما على الإنترنت.

الحياة مرعبة حين يكون المسؤولون عن حياتك إرهابيين.

رحلت والدة نهال بأسرتها كي لا يختنقوا تحت هذا الحكم. لكن حتى هنا، ما زالت ثقافتنا تحمرّ خجلًا من فكرة المواعدة.

أقول بسرعة، وأنا أزلق الهاتف في جيبي الخلفي: «إنه ليس صاحبي، بل يعيش في الشارع نفسه، ويسأل عن يوسف».

تبدو مرتبكة، وتقول: «عزيزتي يالدا، أنا لم أقل شيئًا. ولم أسألك حتى».

أقول: «لكنني لا أريدك أن تظني...»، ثم أسكت لاكتشافي أنني أتحدث كثيرًا الآن.

تدخل أمي المطبخ حينها وتحرك عينيها من الترمس إلى الصينية. تقول: «يالدا، هل تذكرتِ إضافة الـ... أوه، واو، ما أجمل هذا الكشمش بانير!»

تتوقف لتستمتع بمنظره. أنا متأكدة من أنها تذكرت جدتي، لأنني تذكرتها أيضًا حين رأيته. تقول حين تمرّ موجة الحنين: «أحضرا الشاي يا فتاتيّ، وأحضري أطباقًا يا يالدا، لنستمتع بهذا معًا».

نسير خلفها، أنا ونهال، خارج المطبخ، ونقعد معهما في غرفة المعيشة. ترمقني أمي بنظرة تخاطرية أخرى تجعلني أنهض عن مقعدي لأصبّ الشاي وأقدمه. لا أشرب الشاي أبدًا، لكنني أمسك بكوبي بحرص، لأنني لو لم أفعل سأجلس على يدي.

تأخذ أمي قضمة من الجبن وتهز رأسها، تبدو كأن جدتي قد طبعت قُبلة على خدها. لا تتأثر هكذا حتى بالأجبان التي تشتريها من أغلى المتاجر وأكثرها عضوية. لو كانت عمّة ليدا هنا، لقالت شيئًا ما عن هذا.

تقول أمي شاكرة: «راقبت أمي وهي تعدّ هذا الصنف وأنا صغيرة، لكنني طوال تلك السنوات، لم أستطع إعداده بالمذاق نفسه قط. سلمت يداكِ».

تهز أم نهال رأسها، وتؤكد أن ما كانت تعدّه جدتي لا بدّ أنه كان أفضل بكثير، وتُصرّ، بتواضعٍ معتاد، أنها أرادته أن يكون أفضل من هذا بكثير، لكنها ترجُو أن نستمتع به. تأخذ أصغر قطعة ممكنة من الجبن وتلمس معصم أمي حين تحاول تقديم المزيد لها. ترتاح إحداهما للأخرى، تتحدثان لغةً مشتركةً من الكلمات والإيماءات».

ثم تقول: «أنا سعيدة جدًا لوجود أسرة أفغانية أخرى مع نهال في المدرسة. الناس لطيفون جدًا معنا، مع ذلك، يختلف الأمر حين تعرف أن أحدًا من قومك قريب منك. لم تكن نهال خجولة هكذا دائمًا. في أفغانستان، أخبرني ناظر مدرستها أنها تتحكم في الفصل أفضل من مدرّستها».

تمنح أمي نهال ابتسامة عتاب.

يئزّ هاتفي مجددًا. حين أخرجه لأضبطه على الوضع الصامت، أرى أنها رسالة أخرى من كيث. لا يسعني سوى أن ألقي نظرة:

[سأذهب لتمشية فيشر.. هل أنت مشغولة؟]

تسـألني أمـي: «هـل تعرفيـن يـا يالـدا أن العزيـزة نهـال تحـب الموسـيقا أيضًـا؟»

فتقـول أم نهـال بفخـر: «الكمـان. إنهـا ماهـرة جـدًا، ربمـا ليسـت مثـل العزيـز يوسـف، لكنهـا بـدأت منـذ عاميـن فقـط. اشـترينا لهـا كمانًـا قبـل رحيلنـا بشـهرٍ واحـد».

تقـول نهـال ضاحكـة: «كانـت مفاجـأة جميلـة. لـم أتوقـع شـيئًا سـوى الملابـس كهديـة عيـد ميـلاد».

تسـأل أمـي برفق: «ومـاذا حـدث لـه؟» لأنـه من الصـواب الافتراض بـأن الكمـان لـم ينـجُ مـن الإخـلاء الطـارئ فـي مطـار كابـول، فـي اندفـاع مـن يحاولـون الهـرب.

تقول نهال: «تركناه»، وتربت على طرف قميصها.

تقـول أمهـا، بإصـرارٍ علـى طـرد التفكيـر فـي الخسـائر: «لكننـا هنـا. وقـد جئنـا لنرجوكـم أن تخبرونـا فـي حـال احتجتـم إلـى أي شـيء. ظللنـا ندعـو الله ليشـفي العزيـز يوسـف منـذ أن أخبرتنـا نهـال بمـا حـدث».

تشـكرها أمـي مجـددًا، وتمنحهـا ملخصًـا عـن التحسّـن فـي حالـة يوسـف، والمؤشـرات علـى أنـه سيتحسـن أكثـر. مـن غيـر المحتمـل أن يعـود كمـا كان بالضبـط. أثّـرت السـقطة التـي نجـا منهـا فـي كلامـه، وحركتـه، وتوازنـه. صـار يُحبَـط سـريعًا ويبتسـم ببطء. يبـذل جهـدًا ليجـد الكلمـات. ينام كثيـرًا فـي النهـار ويسـتيقظ ليـلًا، كأنـه مسـافر يعانـي الفـارق فـي التوقيـت الزمنـي.

غيرتنـي سـقطته أيضًـا، لكـن بأشـكال لا يمكـن للآخريـن رؤيتهـا أو تحديدهـا.

نوصل نهال وأمها إلى الباب. استقلّتا الباص في مجيئهما إلى هنا، وترفضان إصرار أمي على توصيلهما بالسيارة. تقول أم نهال إن هذا سيعني أنهما لن تأتيا لزيارتنا مجددًا، وإنها فخورة جدًّا لأن نهال بدأت تحفظ مسارات الباصات في البلدة.

لو أنني طُرِدت من بلدي إلى بلدٍ آخر، كم من الوقت سيستغرقني لأعتاد نظام المواصلات المحلية؟ كيف سأشعر لو احتجت إلى قدرٍ كبير من المساعدة؟ كم سأستغرق من الوقت لأشعر أن بإمكاني مساعدة الآخرين؟

أفكر في كيف تجنبت الذهاب مع أمي لتوصيل معاطف أو طعام. أردت أن أساعد بعيدًا عن الأنظار فحسب. كيف شعرتُ بتوترٍ من فكرة الوجود مع أشخاص مثل نهال وأمها.

بعد مغادرتهما، أعود إلى غرفة المعيشة لجمع الأطباق. لكنني بدلًا من هذا أجد نفسي بجانب النافذة، أراقبهما تسيران في الشارع، تمران بكيث وفيشر، ثم تنعطفان يسارًا لتستقلا الباص عند نهاية الكتلة السكنية. يسحب كيث فيشر إلى العشب ليفسح لهما الرصيف، يرفع يده قليلًا. تفعل نهال المثل وتومئ أمها.

أنا لم أقل أي شيء. لم أسأل.

لا. لم تقل نهال أي شيء ولم تسألني. لكنني عند نقطة ما من الزيارة، بدأت أسمع أحكامًا في ذهني وكنت متأكدة من أنه صوتها الذي أسمعه.

أو ربما كان صوتي أنا.

الفصل الثلاثون

مراقبةُ تعافي يوسف أشبه بمراقبة تغيّر الأشجار على مدار المواسم. من منظور يومي، لا يبدو ثمّة فارق، ومع ذلك ها أنا ذي في مركز إعادة التأهيل، ظهيرة يوم خميس في نهاية شهر يناير، أفكّر كم يبدو اليوم أفضل بكثير ممّا كان ليلة عثورنا عليه. لقد تطوّر من الاعتماد على التنفّس وحده والاستناد إلى يد أمّي للنهوض من الفراش، إلى إخبار طاقم العمل بأنّ الفول الأخضر له مذاق أربطة الأحذية. وهنا يُسمح بزيارته لأكثر من شخصين في المرة الواحدة، ولهذا يمكن لأصدقائنا أخيرًا المجيء لرؤيته بدلًا من إرسال الرسائل لي للسؤال عن صحّته.

أثرُ أمّي فيّ واضح، إذ ظللتُ أنظّف غرفته وأرتّبها ليبدو المكان أكثر حميمية قليلًا من غرفةٍ في مستشفى. توجد لوحاتٌ فنية على الجدران -أطفالٌ يركبون درّاجاتٍ مارّين بحقل زهور ومناظر خضراء مشابهة. تسع الغرفة خزانة، وكنبة، وفراشَ مستشفى. محنةٌ بعيدة عن البيت، لكنّنا لن نبقى هنا إلى الأبد.

أضع أنبوبَ المرهم، وزجاجةَ ماءٍ وردي، وبنطاله الرياضي في الخزانة لأُفسح مجالًا. ثم أضع صينيّةَ طعام غداء يوسف، الذي تناول نصفه في الرواق. أطلب من يوسف النهوض من الفراش ليمكنني تسويته، وأطوي الطرف العلوي من البطّانية قبل أن أدعه يجلس عليها.

يقـول: «مـن المؤسـف أن أمـي ليسـت هنـا لتـرى هـذا». صوتـه خشـن قليـلًا. يتحنـح، يعتـدل فـي جلسـته، ويبـدأ بإغـلاق سـحّاب سـترته الرياضيـة التـي أحضرتهـا لـه. لقـد مللـتُ بشـدّة مـن رؤيتـه فـي رداء المستشـفى. «قـد تكـون لديـكِ فرصـة لتصبحـي طفلتهـا المفضّلـة».

أنا ممتنة لسخريتك.

أجيبـه قائلـة: «نعـم، احتمـالٌ بعيـد. ومـع ذلـك، أسـدِ لـي صنيعًـا وأخبرهـا بـكلّ شـيء، أظـنّ أنّ لـديّ فرصـة لأصبـح طفلتهـا المفضّلـة الثانيـة». ثـم أفتـح البـاب لتبـدو الغرفـة جذّابـة أكثـر قليـلًا لأصدقائنـا.

تظهـر مونـا فـي الـرواق أولًا. تصيـح، وهـي تنـادي آخريـن لا أراهـم: «وجدتهمـا!»

أسـما خلفهـا مباشـرة، يتبعهـا ليـام وكيـث. وبينمـا يدخلـون الغرفـة صفًّـا، أظـلّ أنظـر إلـى البـاب لأعـرف إن كان كريـس جـاء معهـم أم لا. لا أعـرف كيـف سيشـعر يوسـف لرؤيتـه الآن، ولا يمكننـي تخيّـل مـا الـذي يفكّـر فيـه كريـس وهـو فـي البيـت. لقـد ظـلّ أكثـر هـدوءًا فـي المدرسـة، يقضـي الأيـام دون أن يتحـدث كثيـرًا. أخبرتنـي مونـا أنّـه يـزور المختـص النفسـي بشـكل منتظـم. أرسـل ليوسـف رسـالة واحـدة، سـطرًا واحـدًا، قـال فيهـا إنّـه يتمنّـى لـه الشـفاء. ومنـذ ذلـك الحيـن، يـردّ علـى رسـائل يوسـف أحيانًـا، لكنّـه يسـتغرق وقتًـا ولا يقـول الكثيـر.

أخبر والداي يوسفَ بألا يُتعب نفسه بالتحدّث إليه الآن.

قالـت لـه أمـي: «يجـب أن تسـتعيد صحّتـك أولًا. تذكّـر مـا قالـه لـك الأطبّـاء، لا ينبغـي أن تتعـرّض لمزيـد مـن الضغـوط».

يقول ليام، وهو يرفع قبضته أمام يوسف ليقابلها بقبضته: «أهلًا! كيف حالك يا أخ؟ يسعدني أنّنا تخطّينا الصعب».

تقول مونا: «يوسف! يا إلهي، انظر إليك في غرفتك الخاصّة وكلّ شيء. ملكٌ، صحيح؟»

تسير أسما إلى الجانب الآخر من فراشه، وتبدو غير متأكدة من كيفيّة تحيّته، فيمدّ لها يده، فتضغط عليها وتقول: «تسعدني رؤيتك».

فيجيبها قائلًا: «نعم، وأنا أيضًا». ثم ينظر إلى أسفل ويغمغم قائلًا: «نعم، أنا... تسعدني رؤيتكم جميعًا حقًّا، لكنّني لن أمسك أيديكم».

تضحك أسما، وتميل برأسها إلى الخلف، وتمتلئ عيناها بالمشاعر.

نقعد أنا وكيث ومونا على الكنبة المغطّاة بالمشمع، ويقعد ليام وأسما على الكرسيّين.

أنظر إلى كيث وأبتسم. ما زلنا نسير معًا في طريقنا من المدرسة وإليها، وقد صار واضحًا لنا تمامًا الآن أنّنا مجرّد أصدقاء. ربّما كانت كلمة «مجرّد» خطأً هنا، لأنّ الصداقة كنز كبير، والصديق الذي يريد أن يكون معك حتى ولو في غرفة مستشفى كنزٌ ثمين.

سرعان ما نتحدّث عن المدرسة ومعلّمينا، وأيّ منّا ليس من المحتمل أن يعمل ممرّضًا ولماذا.

يقول ليام: «لا أظنّ أنّني أريد أن أتدخّل في شؤون الآخرين إلى هذه الدرجة، لكن أظنّ أنّني ماهر في رعاية المرضى».

يجيبه يوسف وهو يهز رأسه: «يا أخي».

فيرفع ليام كتفيه قائلًا: «حسنًا، ربما لست كذلك».

تسأل أسما: «كيف حال الطعام هنا، أفضل من طعام المقصف؟»

فيهزّ رأسه ويكرّر قائلًا: «يا أخي...» فيضيء الضحك الغرفة. تأتي ممرّضة لتلقي نظرة، وتبتسم لهذه الفرقة الصغيرة من الأصدقاء... علامةٌ حيويّة أخرى.

يقول ليام: «يوسف، لا أعرف هل سمعت أم لا، لكن الأستاذ ديمبسي ليس جيّدًا من دونك. حاول التحدث عن الموسيقا في الفصل، وكاد يصرخ حين سأله كلينت إن كان أيرو سميث قسمًا تابعًا لوكالة ناسا الفضائية».

يغمغم يوسف قائلًا: «يا إلهي».

تسأل مونا: «ماذا تعني أيرو سميث؟ بل ماذا تعني ذا هيبر كامبوس في الحقيقة؟»

يتبادل يوسف وليام نظرة. يرفع ليام كتفيه، ثم يقول: «القرار لك، لكنني أعتقد أنه لو أراد أحد أن يعرف، فلا بد أن تجيبه».

يبتسم يوسف، ثم يسأل: «هل سمعتم عن الهيبوكامبوس؟»

أقول بسلطوية: «الوحش البحري الأسطوري، المكوَّن من نصف حصان ونصف سمكة. لكن لماذا وحش بحري؟»

فيجيبني: «لا، ليس هذا الهيبوكامبوس. إنه جزء من المخ. مساحة صغيرة لها شكل حصان البحر، شيء صغير مكور يقع عميقًا في المخ، حيث تُخزّن الذكريات، الجديدة والقديمة، وتساعد في الحركة أيضًا، مثل فهم الأبعاد على ما أعتقد.

وبشكلٍ ما، يرتبط كل هذا بالمشاعر. أردتُ أن نصنع موسيقا من النوع الذي يأخذ مستمعيه إلى حيث يشعرون بأنهم أفضل، أو بشيء ما جدير بالتذكّر على الأقل. وهكذا، هذا هو الهيبر كامبوس».

أخفض بصري لأُخفي الدموع في عيني. ليتني عرفت معنى اسم الفرقة من قبل، لكن ربما أفهمه بشكل مختلف الآن، بعد ما عانيناه.

ينظر يوسف إلى مُجلّد على النافذة، أحضرته له منذ أسبوع. جمع أحد المختصين في المدرسة رسائل من المدرّسين والطلبة ليُبلغ يوسف بأن الجميع يتطلّعون إلى عودته إلى المدرسة قريبًا. لا أعرف متى سيكون هذا. مرّ شهر بالفعل على ليلة اليالدا، وما زال أمامه طريق طويل نحو الشفاء.

تمرّ خمس عشرة دقيقة. لا نتحدث عن أطول ليلة في العام. لا نتساءل إن كان علينا قياس الوقت الذي سيستغرقه شفاؤه بالأيام، أو الشهور، أو الأعوام. ولا عن التغييرات التي ستعتريه، وأي أجزاء منه فقدناها. لا أحد يريد أن يذكّره بإصاباته أو يُعيده إلى اللحظة التي اصطدم فيها بالأرض، بعد أن دفعه أحدٌ ما يملؤه الكره له. أو ربما يملؤه الكره فحسب. لا أحد يتحدث عمّا يُقال في البلدة عن يوسف أو عن كريس في المدرسة. نُبقي المحادثة هادئة، ونتجنب كل الجوانب الحادّة. يذكّرني هذا بلعبة «أوبريشين» (العملية). نتحسّس بأيادٍ مرتعشة الفجواتِ المعتمة بحذر، بحثًا عن أهداف بلاستيكية، ونرجو ألا نُشعل المريض المستلقي معنا بألمٍ أحمر مُضنٍ.

نتجنب. هذا ما نفعله بالضبط.

فجوة، هذا بالضبط ما نسير حوله على أطراف أصابعنا، نحاول ألّا نسقط.

كدنا ننجح تقريبًا، لكن يوسف سأل ليام: «هل تحدثتَ مع كريس مؤخرًا؟» فساد الصمت الغرفة، ونحن نُحدّق في الظلام مباشرة... دون أدنى قدر من الدهشة، مع ذلك. إن يوسف هنا، في جبيرة، وبجروح مخيطة، لأنه اختار مواجهة المشكلات فورًا بدلًا من إنكارها.

لدينا الكثير لنتعامل معه، في أسرنا، وفي أحيائنا، ومدارسنا، وبلدتنا، وعالمنا. قد تكون أفضل طريقة للبدء صغيرة، محادثة مع عمة أو صديق. لكنني أعرف من صميم قلبي الآن أن الأمر لا ينتهي هناك. يومًا ما، سأجد طريقةً لدعوة مزيد من الأشخاص إلى الغرفة.

يهز ليام رأسه، يفتح هاتفه ويغلقه، كأنّه يتفقده ليرى إن كان كريس أرسل له شيئًا خلال الدقائق القليلة الماضية، ثم يقول: «صار هادئًا حقًّا مؤخرًا. بل وغاب كثيرًا عن المدرسة منذ القبض على زوج أمه».

ينظر يوسف إليّ، ثم إلى أسما. أبلغناه بكل ما حدث، حسب علمنا. يواجه زوج أم كريس التهمة بالاعتداء. اتصل محامي النيابة العامة بأبي وأمي، وأبلغهما بأنه سيبذل كل ما في وسعه من أجل حقوق يوسف.

يقول يوسف: «لا ينبغي أن يشعر كريس بالسوء، هذا ليس خطأه».

فيضيف ليام: «بالكاد يتحدث معي الآن أيضًا».

تقول مونا: «موقفه صعب جدًا. لكن ماذا قرّر القاضي بشأن الكفالة؟ أرجو أن يكون القاضي من القساة مع المتهمين بالعنف. بعضهم يُطبّق حركة الإصلاح في النظام الجنائي القضائي على نحوٍ فضفاض قليلًا، إن كنتم تعرفون ما أقصده. هل ستكون المحاكمة بهيئة محلفين؟ أتعرف؟ على أسرتك أن تفكر في رفع دعوى مدنية أيضًا».

تقول أسما: «يبدو أن الاستماع إلى كَمٍّ التسجيلات الصوتية قد أتى بثماره أخيرًا».

فتجيبها مونا: «إنْ لم تعرف كيف تعمل المنظومة، فلن تنجح فيها».

أقول لها: «يا إلهي يا مونا!»، لكنني أحسدها بالفعل على طاقتها النشطة.

يسأل ليام: «من الذي يستمع إلى تسجيلات صوتية الآن عمومًا؟ أأنتِ أربعينية أم ماذا؟»

يسأله كيث بغمغمة: «هل قلت لها هذا حقًّا؟»

ترفع مونا حاجبًا وتقول: «حسنًا، في الدفاع عن نفسي، التسجيلات الصوتية قد تكون مصدر معلومات مذهلًا. استمعتُ إلى واحد عن قصص بدايات الشركات الكبرى، هل تعرفون أن أديداس وبوما بدأتا على يد أخوين لم يتحمل أحدهما العمل مع الآخر؟ فبنى كلٌّ منهما مصنعًا في البلدة نفسها، فكان أهلها إما من فريق بوما أو أديداس. تعرفهم من النظر إلى أقدامهم».

يسألها كيث: «هل تؤلفين هذا؟ لأنه يبدو مختَلقًا».

فتحذره أسما قائلة: «لا تسألها».

تقول مونا: «ولماذا سأعني باختلاق...».

أنظر إلى يوسف، يستمع إلى الحوار ويبتسم. ستتركه زيارة اليوم مرهقًا، لكنه يظل أفضل يوم قضاه منذ وقت طويل.

الفصل الحادي والثلاثون

خدع الطقسُ الجيد لمدة أسبوعين أشجارَ الكرز لتزهر مبكرًا. شاهدنا بتلاتها البيضاء الرقيقة تتساقط على الأرض ونحن في السيارة في طريقنا إلى المطعم، كأنها تقلّد الثلج. لكنها بشائر الربيع.

تسأل نهال وهي تضع حقيبة ظهرها على كرسي خالٍ: «ماذا لو لم أستطع؟ ... أنا متوترة».

أُطمئنها قائلة: «التوتر لا بأس به. التوتر شيء عادي، ستكونين رائعة. في البدء كان يوسف يتوتر قبل العزف أمام جمهور، لكنه بعد مرتين، صارت مراقبة الناس له شيئًا عاديًا. حتى إنه تظاهر بأن ساقه مكسورة ليتهرب من أول عرض له. أليس هذا صحيح يا يوسف؟»

يغمغم قائلًا: «يالدا، كان هذا في عرض المواهب في الصف الثالث. وقد التوى كاحلي ذلك الصباح، وكان يؤلمني حقًا».

أشعر بامتنانٍ أكبر مما يمكنني وصفه لوجوده معنا، صار التواء كاحله ذكرى بعيدة. يبتعد يوميًا بمسافة عن إصاباته الحديثة. تحررت ذراعه مؤخرًا من الجبس، وزالت الكدمات. ستحتاج قدمه إلى مزيد من الوقت، لكنه صار ماهرًا جدًا في التحرك بعكازين. ندوبه ما زالت موجودة، لكنها تلتئم. صار نسخة أبطأ وأكثر تخشّبًا من نفسه، لكنه معنا.

تبتسم نهال وتقول مازحة: «حسنًا، لن أقول إن ذراعي مكسورة، لكنني ما زلت متوترة قليلًا». لا أخبرها أنني متوترة أيضًا. كانت

فكرة أن تعزف في المطعم فكرتي، لكنني أخشى ألا يسير الأمر كما تخيلته في ذهني. لماذا أصررتُ على فعل هذا ليلة السبت بدلًا من الثلاثاء؟ عاد العمل إلى الازدهار مجددًا، لكننا ما زلنا لم نعد كما كنا منذ عام. وكلما قالت أمي إن هذا بسبب جنون التضخم وارتفاع أسعار البنزين، وافقها أبي. ربما كانا محقَّين. ربما كانت الموائد القليلة التي تبقى خالية في ليالي الأسبوع لا صلة لها بيوسف ولا بعاصفة التعليقات عنا، سواء في البلدة أو على وسائل التواصل الاجتماعي.

أعترفُ قائلة: «أنا أيضًا متوترة». لم يعد دفتر رسمي مختبئًا في درج الطاولة المجاورة لفراشي، لأنني حين أريت يوسف رسم الهيبوكامبوس، طلب أن يرى المزيد.

يجب أن يرى الناس إبداعك يا يالدا، أنتِ فنانة. كل رسمة من هذه قصة.

فنانة. هذه هي الكلمة التي أسرتني، لأنه محق. لم أكن أرسم عشوائيًا، بل كنت أصنع فنًا، لأن هذا ما يفعله الفنانون.

استخدمتُ نصلًا لقطع الرسومات من دفتري ووضعتها في إطاراتٍ سوداء. حين جاءت أمي إلى غرفتي، ذُهِلت. قضتْ ساعة على أرضية غرفتي، تنظر في كل لوحة.

قالت: «يالدا، هذه رسومات رائعة. كيف فكرتِ فيها؟ ماذا تعني؟»

لا بد أنني عبستُ، لأنها أغمضت عينيها وقالت بنبرة هادئة جدًا: «ربما سيمكنك إخباري بالمزيد عنها لاحقًا».

استخدمنا مشاجب سهلة النزع لعمل جدارية لوحات. برزت رسومات الحبر على خلفية جدار المطعم ذات الطوب الأحمر. أشعر بتوتر لأن الناس سيرونها، ولا أعرف أي نوع من المحادثات قد تُثيره، لكن لا بأس بهذا أيضًا. صرت معتادة على التوتر.

أقول لِنهال: «لقد مررتِ بأشياء أصعب بكثير من هذا. سيوجد كثيرٌ ممن تعرفينهم بالفعل، وجميعهم يتطلعون لسماع عزفك. بنهاية الليلة سينتهي توترك».

تتخذ نهال موقعها على المسرح المرتجل الذي صنعناه أنا وأبي من قاعدتين خشبيتين، وعدة ألواح من الخشب الرقائقي، وسجادة أفغانية أحضرناها من البيت. على المسرح كرسيان، وميكروفونان، وسماعة صغيرة. أضفتُ عدة شموع عند قدميها، طويلة ومدببة بلهبٍ متراقصٍ زائف. ليست أفضل خشبة مسرح، لكنها من بعيد، تبدو كأنها الجو المناسب تمامًا.

تقول: «حسنًا»، وتنظر إلى حقيبة الكمان بين يديها، فتبتسم حينها، تطفو ابتسامتها وتشع من عينيها، وهي تضيف: «نعم، سيكون كل شيء بخير».

أُذكّرها قائلة: «ولن تكوني وحدك أيضًا. يمكنك بدء ضبط الأوتار إن أردتِ، أو الاسترخاء قليلًا. ما زال أمامنا بعض الوقت».

كنت أحب أن أظل معها لتشجيعها بقدر أكبر، لكن عليّ إنجاز مهام. لا أحد يعلم، ولا حتى والدَيَّ، أن العمدة وقليلًا من المدرسين سيأتون الليلة. وسيأتي أيضًا دزينةٌ على الأقل من العاملين في المنظمة المدنية التي عملت مع أسر مثل أسرة نهال خلال العام الماضي. تبرّع هؤلاء بسيارات، وجمعوا قطع

الأثاث، وعلّموا الوافدين كيف يتحدثون لغةً مليئةً بحروفٍ لا تُنطق، وأفخاخِ تجانس، وتخميناتٍ للقواعد النحوية.

تقول أمي وهي تُمسك بمرفقي لتسألني: «يا يالدا، هل تعتقدين أن نهال تحب هذا؟»

أنظر إلى نهال، التي قعدت على كرسي بجوار يوسف. تعرض عليه كمانها، الذي أهداه لها مالك استديو كريشندو بعدما عرف بطموحها. يأخذه يوسف منها ويمسكه مثل جيتار، ويعزف عدة نغمات حتى. تضحك وتصفق بيديها. تعرض عليه أن تعلمه العزف عليه، لكنه يهز رأسه ويعيده إليها... فتضبط الأوتار بهدوء. وراءه قصة كاملة أيضًا.

أجيب أمي وأنا أضغط يدها بثقة: «نعم، ستكون بخير».

تدخل مونا وأسما معًا. تلتقي عينا أسما بعيني يوسف فورًا، ويبتسم كلٌّ منهما بطريقة كنت سأضحك عليها بصوتٍ عالٍ لو كنا في ظروف عادية. بينهما شرارة ما بكل تأكيد، وأركل نفسي مجددًا لأنني لم ألحظ عاطفية أخي التوأم من قبل. ربما كنت مشغولة جدًّا بموقفي الغريب الخاص.

تقول مونا: «هذا رائع. سيأتي والدَاي أيضًا، وبعض أصدقائهما. أرجو أن يكون هناك مساحة كافية».

مساحة كافية؟ كنت أخشى أن يظل المطعم خاليًا. أمنح أسما عناقًا سريعًا، وأقول لهما: «أنا سعيدة جدًّا بمجيئكما. هذان مقعداكما، بجوار يوسف مباشرة. إنه في انتظاركما».

تقول مونا بدهشة وهي تشير إلى الحائط: «لكن يا يالدا، هل هذه رسوماتك؟ أخيرًا أعلنتِ عن مواهبك السرية!»

تقول لي أسما ووجهها يشع سرورًا، فيما تسحبها مونا من يدها للنظر إلى اللوحات عن قرب: «أنا فخورة بكِ جدًّا».

أعود سريعًا إلى المطبخ حيث يُخرج أبي السلطة من البراد. ترفع طباختنا غطاء إناء وتقلِّب ما به بملعقة خشبية. تشمه وتغمض عينيها باستمتاع. عاد المطبخ إلى الحياة مجددًا بعد أسابيع من الخمول.

أعود إلى قاعة الطعام التي تزدحم بمرور كل دقيقة. كيث وليام مع يوسف. يقعد كيث على كرسي ويقف ليام أمامه. أبادرهما قائلة: «مرحبًا يا شباب». فيجيبني كيث: «أنا هنا من أجل الخبز، سمعت أنه جيد جدًّا».

أهز رأسي وأضحك على المحادثة التي دارت منذ مئات السنين، حين كنا يتعرّف أحدنا إلى الآخر. ما زلنا يتعرّف أحدنا إلى الآخر، لكنني أريد أن أتعرف إلى نفسي بشكل أفضل أيضًا. لست الشخص نفسه الذي كنته في بداية الشتاء -لا أحد منا كذلك.

يقول كيث وهو ينظر نحو الباب: «ونحن في انتظار اثنين آخرين أيضًا»، فتدخل من الباب والدته ومعها داني. أسير نحوهما لأستقبلهما. تعانقني والدته. أخذتْ رقمي من كيث منذ أسبوعين تقريبًا وأرسلت لي تسألني إن كان يمكن أن نلتقي. لم يكن كيث وداني في البيت حين ذهبتُ لزيارتها، فقعدنا وحدنا ومعنا فيشر، نشرب كوبَيّ كاكاو ساخن. أخبرتني أنها فهمتْ أن ما يحتاج إليه داني حقًّا هو أن يكون قريبًا من أشخاص يفهمون حزنه. وأنها لم تقصد أن تُشعرني بأنني المشكلة. تحدثنا لأكثر من ساعة،

محادثة لم أكن لأتوقعها حين كانت تقف عند باب بيتها، ويبدو واضحًا عليها أنها تتمنى أن يعود كيث من المدرسة وحده.

قالت: «المرء لا يختار جيرانه في الشارع، لكنه يختار أن يكون هو نفسه جارًا جيدًا». ما زالت لافتات «احموا حيّنا» في الأنحاء. أعتبرها تذكيرًا بأن أفعل ما تدعو إليه حقًّا، بطريقتي الخاصة.

يدخل المطعم أربعة أشخاص آخرون، وأنظر في ساعة هاتفي مجددًا. حين أرفع بصري، ينحبس نفسي لرؤية وجه لم أتوقعه خلف النافذة. أسير وأخرج من باب المطعم، الجو غائم قليلًا وأضواء ساحة الانتظار لم تُشعَل بعد. حين أصل إلى الرصيف، يدير كريس ظهره ويسير نحو سيارته.

أناديه: «كريس!» دون أن أعرف ماذا سأقول له، ولا ماذا سيقول لي.

يستدير وينظر نحوي، ثم يمرر يده في شعره. يبدو ممزقًا.

أسير نحوه فيشيح ببصره بعيدًا، كأن رؤيتي تؤلمه بدنيًا.

أقول: «كريس!»

فيقول مترددًا: «أنا فقط... لا يمكنني...» ويسكت. لا أتخيل ما لا بد أنه مرّ به، العيش مع شخص يحمل هذا القدر من العنف والغضب. يسعدني أنه وأمه تخلّصا منه. كتبت له أننا ممتنّون لقراره بالإبلاغ عمّا رآه. ألقى البعض في المدرسة اللوم عليه لعدم إبلاغه في وقتٍ مبكر، لكن لا بد أنه كان مرعوبًا أيضًا. لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو كنت مكانه.

أقول له: «أرجوكَ أن تدخل».

ينظـر إلـى المطعـم خلفـي، مضـاء بالشـموع وسـلاسـل الأضـواء التـي علقتهـا. وبينمـا نقـف معًـا عنـد سـيارته، يدخـل شـخصان آخـران، فيـرنّ جـرس البـاب.

يهـز كريـس رأسـه قائـلًا: «ليـس الليلـة»، ثـم يُرغـم نفسـه علـى النظـر إلـى عينـيّ ويـردف: «لكـن فـي وقـتٍ آخـر. أعـدُكِ».

أومئ برأسـي لقبـول وعـده ولأؤكد عليـه أن يفـي بـه. أشـعر بالقلق عليـه. أُصيـب هـو الآخـر، لكنهـا إصابـة لا تتـرك ندوبًـا مرئيـة ولا تتطلـب ضمـادة. يسـتقل سـيارته ويرفـع يـده ليودّعنـي قبـل أن يقـود مبتعـدًا.

أعـود إلـى المطعـم وأتنهـد، لكننـي لا أريـد إخبـار أحـدٍ بمحادثتي مـع كريس الآن، لأن نهـال تنظـر نحـوي ثـم نحـو سـاعة الحائـط. مـن الواضـح أن توترهـا تحـوّل إلـى حمـاس لبـدء الأمـر.

أصعد إلـى خشبة المسـرح من الجانب وأشـغّل المايكروفون.

أقـول: «مرحبًـا بالجميـع. يبـدو أن الوقـت حـان لنبـدأ»، فتخفـت الضجـة فـي المطعـم. يتقـدّم ليـام خطـوة مـن خلفـي، ويضبـط صـوت السـماعات.

أواصـل قائلـة: «أنـا يالـدا، وبالنيابـة عـن أسـرتي أقـول لكـم إننـا سـعداء حقًـا بوجودكـم هنـا الليلـة».

يقـف والـدَاي خلـف يوسـف. تضغـط أمـي علـى كتفـه، ويـزمّ أبـي شـفتيه ويومـئ لـي لأواصـل.

قلبـي يضـج بقـوة ويكـاد يقفـز خـارج صـدري، لكـن الوجـوه أمامـي تشـجّعني. أنظـر إلـى الملحوظـات فـي بطاقـات فـي يـدي، لكنهـا تتطايـر كعلـم فـي عاصفـة، فأدسّـها فـي جيبـي الخلفـي وأقـرّر أن أتحـدّث ببسـاطة فحسـب.

أقول: «لقد مررنا بالكثير منذ شهر ديسمبر، وكان الأمر صعبًا حقًّا. ما أنا متأكدة منه هو أننا لم نشعر بأننا وحدنا طوال كل هذا الوقت. بلدتنا ليست كاملة، لكن لدينا فيها كثير من الجيران والأصدقاء الرائعين الذين وقفوا معنا في المحنة حقًّا -في المسجد والمستشفى والمدرسة، وفي مطعمنا، وبيتنا، وبعضهم عبر الإنترنت حتى. يسعدني حقًّا أن أخي يوسف بيننا الليلة». أنظر إلى يوسف بسرعة قبل أن أتحدّث مجددًا، فتنفجر الغرفة بالتصفيق؛ ما يمنحني الوقت لاستجماع شجاعتي واستكمال ما أريد قوله. يهزّ يوسف رأسه ويضحك. تعانقه أمي من خلفه وتقبّل رأسه. أقول له: «لا أريد أن أكون عاطفية هنا، لكنني سأقول إنني أحبك يا يوسف. وإنني أتطلّع إلى إزعاجك لبقية حياتنا».

تموج الغرفة بضحكات قصيرة. ثم أردف: «والآن أقدّم لكم ضيفتنا الموسيقية لهذه الليلة. قدِمتْ نهال وأسرتها من أفغانستان إلى هنا منذ عام، وهي تدرس الآن في المدرسة العليا. بدأتْ تعلّم العزف على الكمان في أفغانستان، لأنه منذ عام فقط، كان مسموحًا للفتيات بذلك. والآن، بعد أن حُظرت الموسيقا وحُرمت الفتيات من الذهاب إلى المدرسة هناك، يسعدني بشدة وجود نهال معنا هنا. ستعزف هي ويوسف معًا أغنية من كلماته وتلحينهما معًا. أرجو أن تستمتعوا بها. أقصد، أنا واثقة بأنكم ستستمتعون بها».

يصدر تهليل خفيف هذه المرّة. يبتسم يوسف. يمدّ له أبي ذراعه فيمسك بها ليتمكّن من النهوض، وبعكاز واحد ينضمّ إليّ أمام المايكروفون.

يصيح ليام: «نعم يا أخي!»، فتصدر موجة أخرى من التعليقات والتصفيق.

يقول يوسف: «شكرًا لكم جميعًا. أريد أن أشكركم جميعًا على وقوفكم مع أسرتي»، ثم يضع يدًا على قلبه ويومئ قبل أن يعود إلى كرسيه.

أقول: «نهال؟»

تتقدّم نهال نحو المايكروفون، وهي تدسّ خصلة من شعرها خلف أذنها. تنظر إلى الوجوه أمامها، وتستقرّ عيناها على الزوجين الأكبر سنًّا، آل بيترسون، اللذين ساعداها وأمها على تعلّم القيادة.

تقول: «شكرًا لكم جميعًا». تنقل وزنها من قدم إلى أخرى، وتتنحنح، ثم تواصل: «لقد كان وقتًا صعبًا جدًّا، وما زلنا قلقين على بقية عائلتنا هناك في الوطن. لكننا هنا لدينا الفرصة للاستمتاع بالموسيقا والحياة. أتمنّى لو كانوا جميعًا معنا هنا، لكن...»

يخفت صوتها قليلًا. أقلق من تأثير كل هذا فيها.

لكنها تردف قائلة: «لكنني سأواصل دراستي، وأتمنى أن يمكنني العودة إلى وطني يومًا ما لعزف الموسيقا ونشر السلام بين الأولاد والبنات والرجال والنساء».

التصفيق ليس هادئًا هذه المرّة، كذلك يعلو صفير وهتاف ونشيج حتى. يوجد قدر هائل من الطاقة الإيجابية، لدرجة يمكن رؤيتها تقريبًا. أتشبّثُ بهذا الشعور بقوة، لأنني أعرف مسبقًا أنني سأقضي أيامًا سأحتاج فيها إلى أن أتذكّر أن ليلة كهذه ممكنة.

تدرّبت نهال مع يوسف مرّات قليلة فحسب، لأنه ليس سهلًا التنسيق بين جدوليهما، ولم يرغب أحد في أن يُجهِد يوسف نفسه. ما زال يُصاب بالتعب سريعًا ويحتاج إلى راحة مستمرة، وكلّ هذا يضايقه. نحاول أن نحتفل بشفائه، لكنها عملية بطيئة وشائكة، إلى حدّ يبدو معظم الوقت كأنّه لا يوجد شيء للاحتفال به.

تتقدّم نهال نحو المايكروفون الثاني وتومئ ليوسف. ينقر بقدمه الأرض ويخفض بصره فيما تبدأ نهال اللحن الحزين؛ نسخة بطيئة ومؤثرة من الأغنية التي عزفتها فرقته في الويرهاوس. ينضمّ يوسف إليها، يغنّي بنصف درجة صوته، لكن بضعف إحساسه. تجعل الكلمات عينيّ تدمعان. لا بدّ أن مونا لاحظت، لأنها لفّت ذراعها حول كتفي.

سواء بقينا أم لا، في كل المعارك التي خضناها
لن يمكنهم سرقة هذا
فرّقونا لكننا أعمالٌ فنيّة
أبدًا لن ينكروها
جئتُ في سلام
تنفس معي أو
سأرحل ممزقًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عينا يوسف مغمضتان. لا ينظر إلى جمع الأصدقاء القدامى والجدد

أمامه. هو والأغنية فقط، ينسجم مع المعنى الحقيقي للكلمات بشكل شخصي وقوي. ليلة سقوطه، أطول ليلة في العام، غيّرتنا

جميعًا. لم نعد الأشخاص الذين كنّاهم من قبل قط، لكن ربما ليس مقدّرًا لنا أن نظلّ كذلك أيضًا، بلا وعي ولا تواصل. أنا متأكدة من أننا سنعيش ليالي طويلة أخرى، لكنني متأكدة أيضًا، وأنا أنظر إلى وجوه من اختاروا أن يكونوا معنا، من أننا لن نكون وحدنا.

تنساب الأنغام في المطعم، تربطنا، وتتردّد في رؤوسنا وقلوبنا وقتًا طويلًا بعد غناء يوسف الكلمات الأخيرة، ووقتًا طويلًا بعد أن تعزف نهال نغمتها الأخيرة الخافتة.

لكنّنا أعمال فنية، أبدًا لن ينكروها.

كلمة الكاتبة

يالدا ويوسف شخصيتان من نسج الخيال، لكن قصتهما عن حقائق قاسية هي مصدر إلهامي برواية «الحبر المسكوب». منها حقيقة أن الكراهية والخوف يتسببان في أضرار كثيرة للبشر والأرض والمجتمعات، وحقيقة أنه، على الرغم من عدم استقبال اللاجئين الأفغان في عملية «ملجأ الحلفاء» بالأذرع الممدودة دائمًا في كل المجتمعات الأمريكية، فإن فيضًا ملحوظًا من الدعم العمليّ قد بُذل لتسهيل استقرارهم.

رواية «الحبر المسكوب» عن توأمين مسلمين أفغانيين أمريكيين يواجهان رُهاب الإسلام ورُهاب الأجانب. أردت أن أفكّر من خلالهما في معاناة ضحايا الاعتداء بدافع التحيّز من تجربة أسرة واحدة. وبهذه المناسبة، أشعر أن كلمة «رُهاب الإسلام» ليست وافية، لأن «رُهاب» تحمل قدرًا من السلبية أو التجنّب للموضوع، في حين أن ما يحدث هو تحرّك فعلي ضده وله عواقبه.

سجّل تقرير الجرائم الموحّد الصادر عن قسم التحقيقات الفيدرالية أكثر من 7000 جريمة كراهية خلال عام 2021، وبالنظر إلى تحوّل في إجراءات الإبلاغ، فقد يُعد هذا العدد أقلّ من الحقيقي. تحدث هذه الجرائم في أماكن ينبغي أن نشعر فيها بالأمان -بيوت وطرقات ومدارس ومطاعم وملاعب. شهدنا في الحيّ الذي أسكن فيه انتشار رسوم جرافيتي قبيحة ومعادية

للسامية في المدارس والملاعب، وخطاب كراهية موجّهًا إلى المسلمين أو حتى إلى أشخاص يبدون مسلمين. كذلك شهدتْ مجتمعات آسيوية وإفريقية قدرًا مساويًا من العنف البدني والنفسي. يحدّد موقع تقرير الجرائم الموحّد على الإنترنت دوافع جرائم الكراهية -بالعرقية، والدين، والميول الجنسية، والهوية الجندرية، والإعاقة، والجندر. والأصعب في تسجيله هي الجرائم التي تضم دوافعها مزيجًا من كل هذا. كما جمع موقع بروبابليكا قائمة مصادر شاملة لضحايا جرائم الكراهية أو التحيّز، بما في ذلك منظمات الإرشاد بخصوص الخطوة التالية التي على الضحية اتخاذها، ومصادر الدعم القانوني، والدعم النفسي. ومن حسن الحظ أنه توجد بالفعل مصادر محلية كثيرة في مدن وبلدان عديدة لا يمكن حصرها هنا.

تشتهر جرائم الكراهية بصعوبة إثباتها، لأنه ما لم يعترف الجاني بدوافعه صراحةً، سيظل الدافع إلى ارتكاب الجريمة مجهولًا. حتى وقت كتابة هذه الكلمات، وضعتِ الولايات المتحدة الأمريكية، باستثناء ثلاثٍ، قوانين تُجرّم الاعتداء أو الإرهاب على أساس التحيّز. لكن بعضها لا يتضمّن جرائم التحيّز على أساس الهوية الجندرية أو الميول الجنسية أو الجندر أو الإعاقة. كذلك توجد قوانين فيدرالية قليلة، أُطلق عليها أسماء ضحايا جرائم شنيعة، مثل: إيميت تيل، وماثيو شبرد، وجيمس بيرد جونيور. لكن القوانين، رغم نصّها على العقاب، ليست مانعة في حد ذاتها، بل يتم العمل الحقيقي خارج قاعات المحاكم وفي مجالاتنا الخاصة -بيوتنا ومدارسنا ودور عبادتنا ومحافلنا الرياضية.

كذلك أردت أن أوضح في هذه القصة أن حتى الأفراد والمجتمعات من ضحايا التحيّز لديهم تحيّزاتهم أيضًا. التحامل معاناة من الجانبين. ومن حسن حظّنا أننا صرنا نتعلّم ونعِي بأهمية الصحة النفسية، سواء كأفراد أو كمجتمع. أتمنى أن نُجسّد ما نقول. ولجميع من يعاني، أرجوكم، اعلموا أن مصادر الدعم متاحة. يوجد خط نجدة الانتحار والأزمة (988) لتقديم الدعم مجانًا وبسرّية، للأشخاص الذين يعانون أي أزمة أو للقائمين على مساعدتهم.

والحقيقة السعيدة في هذه القصة أن الناس في أحيان كثيرة يبنون جسورًا ويساعدون الغرباء بصرف النظر تمامًا عن الاختلاف بينهم.

تسنّت لي الفرصة، حين تم استقبال عشرات آلاف اللاجئين الأفغان وتسكينهم في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، في أثناء عملية «ملجأ الحلفاء»، أن أرى قدرتنا على الترحاب. وفي عملي في برنامج دعم الصحة النفسية للاجئين، وتعاملاتي مع المجموعات الأهلية، أذهلني كرم ضيافتنا. تجمّع المتطوّعون لتأثيث الشقق الجديدة، وجمع قطع الأثاث والمبرّدات الزائدة عن الحاجة من متبرّعين. تولّى مديرو البرامج المهمة الشاقة لإرشاد الوافدين الجدد في بلد جديد. قدّم المحامون خدمات الدعم القانوني مجانًا، وعرض الأفغان الأمريكيون خدمات الترجمة للغرباء، وأدار الأطباء عيادات التطعيم لإعداد الأطفال لدخول المدارس. قدّم مقدّمو خدمات الصحة النفسية خدماتهم للحالات التي تعاني ضغوطًا، وطالب المحاربون القدامى الأمريكيون بحقوق الأفغان

الذين حاربوا معهم كتفًا بكتف في مواجهة عدوّ واحد. سجّل المدرّسون في برامج تيسّر عليهم التواصل مع تلاميذهم من الوافدين الجدد. ابتكر الناس سُبلًا حيوية وإبداعية لتسهيل الفترة الانتقالية على اللاجئين.

يشرفني أن أكون عضوًا في مجلس إدارة المؤسسة الأفغانية الأمريكية، وفي مجلس قيادة برنامج الترحيب الأمريكي، وهما منظمتان ظلّتا القلب النابض للحشد المجتمعي وجهود الترحاب. لم يكن لهذه الإنجازات أن تتحقّق لولا جهود كثير من الحلفاء والمنظمات والأفراد الذين اتّحدوا معًا لمساعدة الأسر الوافدة، لأن إعادة التسكين لعبة طويلة باحتياجات متطوّرة.

ومثلما لا يمكن محو الحبر المسكوب، فإن بعض الضرر لا يمكن الرجوع عنه. نحن مخلوقات غير كاملة، وكثيرًا جدًّا ما نقترب من الآخرين بافتراضات وتصورات نمطية، وتحاملات، ومخاوف. لكننا جميعًا فنّانون أيضًا، بطريقتنا الخاصة، نؤلف قصصنا ونرسم تواصلنا. نحن مخلوقات تتطوّر بشكل مستمر في كل مرحلة من مراحل حياتنا، وإصدار الأحكام بعضنا على بعض قد يُفسد نعمة كهذه.

لأننا ما زال لدينا كثير جدًّا من الحبر.

توطئة

لا يصل أحد إلى كلّ هذا دون أن يشكر أحدًا. وبالتأكيد سأعجز عن ذكر كلّ من ينبغي شكره، لأن الكثير جدًّا من الأيادي، المرئية واللا مرئية، تسهم في وصول القصة إلى العالم. جزيل شكري لروز ماري بروزنان، المحرّرة الرقيقة ذات العين الثاقبة؛ فقراءة تعليقاتك في أثناء احتساء الشاي وصفةٌ سحرية لقضاء وقتٍ رائع في أيّ يوم. وشكرًا لوكيلة أعمالي، سارة هيلر، وفريق العمل في وكالتها، شكرًا لكم على عصف الذهن والتشجيع في كل خطوةٍ في الطريق. وشكرًا لوكالة مارش لإسهامها في توصيل القصص إلى القرّاء في جميع أنحاء العالم. وشكرًا لفريق العمل الخارق في كويل تري بوكس وقسم كتب الأطفال في هاربر كولينز؛ فقد كان هذا العمل سيظهر عاريًا وساذجًا من دون خبرتكم وإبداعاتكم. وشكرًا لكورتني ستيفنسون، وألكسندرا راكازكي، وجويل تيبي، وميغان بيتيت، وأليسون براون، وباتي روساتي وفريقها، وأودري ديستيلكامب. وشكرًا لمحمد مصطفى لتصميم الغلاف الرائع.

لن يسعني حصر جميع نوادي القراءة التي تواصلتُ معها طوال سنوات، لكن أرجو أن تعلموا أن لكم مكانةً خاصةً في قلبي وفي جدولي. تلك المحادثات، التي لا بدّ أن يسألني أحد فيها: «هل تعملين على نصٍّ جديد؟»، تجعلني أواصل الكتابة. شكرًا لكم على صبركم، وعلى نفاد صبركم. وشكرًا بصيحةٍ عالية لنادي كتاب الأمهات الطبيبات، المجتمع الفيسبوكي الذي لا مثيل له. وسأظلّ

دائمًا شاكرة وممتنّة لمن شاركوني خبرتهم الشخصية، وبالأخصّ من الوافدين الجدد. ورغم أنّ شخصيات هذا العمل خيالية، فإنّ التحديات التي تواجهها شخصية نهال حقيقية.

ولأطفالي الذين يقاطعونني في منتصف تركيب الجمل لأنهم لا يجدون ملابسهم، أو عليهم إبلاغي بما فعله أحد إخوتهم: شكرًا لكم على سؤالي بشكلٍ متكرر : «متى يمكنكم قراءة الكتاب الذي أكتبه؟»، ولمشاركتكم هذه القصص مع أصدقائكم ومعلّميكم. شكرًا لكم لفضولكم لمعرفة عمّا تحكي القصة، ولانضمامكم إليّ في الاحتفال بثقافتنا والثقافات الأخرى، ولنموّكم وتعلّمكم معي، وعلى إلهامكم لي أجزاءً من القصص. زوران، وصلتْ أشعارك إلى هذا العمل، وأتمنّى أن تواصل غزل الكلمات في أشعار. يمكننا الآن التحدث عن تعويضك. زايلا، قارئتي المتأمّلة، هذا العمل جاهز لكِ الآن. شكرًا لكِ لمنحكِ لي الإذن بمشاركة قصة المدرّس البديل الذي «رحّب بكِ» في فصلك كما لو كنتِ قدمتِ للتو من بلدٍ أجنبي. أنا فخورةٌ بتعاملك مع هذه الفوضى في العالم. كيروس وكايرا، الثنائي المستكشف، شكرًا لكما على الأحضان القوية، ولإضحاككما لي كلّ يوم، طوال اليوم.

ويظلّ قلبي يفيض بالامتنان لوالديَّ، لإنقاذي، يوميًا، ولأسرة أميني، عائلتي المختارة؛ حبّكم يضيء أيّامي، وأنا محظوظة بكم.

ولأمين، لإصراره على هذه القصص، وللرحلة الفكرية، وللاستشارات المتعلقة بجراحة الأعصاب في هذه القصة، ولبنائه معي، حرفيًا، بيتًا مليئًا بنا وباحتفالاتنا... لك كلّ حبّي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

N A D I A   H A S H I M I

ليست رواية عابرة تُقرأ ثم تُطوى، بل مرآة صادقة تعكس أصداء الهوية والانتماء في زمن يموج بالتحولات. من قلب التناقضات التي يعيشها الجيل الجديد بين الوطن والمنفى، وبين الخوف والأمل، تفتح ناديا هاشمي نافذة آسرة على عالمٍ يضجّ بالصراعات الخفية: رهاب الآخر، وقسوة التمييز، إلى قوة الحب العائلي، وصلابة الصداقة، وجرأة البحث عن صوتٍ خاصٍ وسط ضجيج العالم.

في هذه الصفحات، تهمس الأرواح بأسرارها، وتصطخب القلوب بأسئلتها، وتتشابك الحكايات كما تتشابك خيوط الضوء والظل. تأخذنا يالدا إلى عالمٍ تتقاطع فيه براءة الطفولة مع قسوة الواقع، ويغدو البحث عن الهوية رحلةً محفوفةً بالعزلة والتوق إلى الانتماء.

هنا، حيث يسيل الحبر كما تسيل الجراح، ستكتشف أن بعض الخسارات لا تُمحى، لكنها قد تفتح الطريق لبزوغ معنى أعمق للحياة.

الحبر المسكوب؛ رواية مشحونة بالإثارة والدهشة، نابضة بالتوتر والدفء معًا، وتضعك أمام سؤال ملحّ:

هل يمكن للكلمة أن تُرمِّم ما كسره الحقد؟

وهل للحبر المسكوب أن يكتب بداية جديدة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

kalemat
www.kalemat.com

جميع كتبنا متوفرة على تطبيق مكتبة كلمات
Google play
Available on the App Store